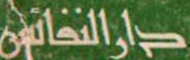


عبد الحميد بن باديس

وبناء قاعدة الثورة الجزائرية

بسام العسلي










بسم الله الرحمن الرحيم



عبد الحميد بن باديس

وبناء قاعدة الثورة الجزائرية

بسّام العسلي

دار النفائس

الطبْعة الثانية
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

© دار النفائس

بيروت - ص.ب : ١١/٦٣٤٧ - هاتف : ٨١٠١٩٤ - برقيًا : دانفايسكو

مُقـدّمة الكِتَابْ

يشكل الصراع المسلح أحد وجهي السياسة الاستراتيجية، في حين يشكل الصراع السلمي وجهها الآخر، وتتشابك في حالتي الصراع العوامل الاقتصادية والإجتماعية والفكرية الخ. . . وقد باتت هذه الحقيقة من المسلمات وذلك منذ أن أطلق «كلاوزفيتز» مقولته الشهيرة: «بأن الحرب ليست إلا استمراراً للسياسة، ولكن بوسائل أخرى ـ هي وسائل العنف والإكراه».

ولقد بات من المعروف ـ عبر التجربة التاريخية الطويلة ـ أن الصراع السياسي هو الأساس في كل صراع، وهو الذي يسبق الصراع المسلح ويرافقه ويستمر بعده.

ولقد استطاعت فرنسا، بتفوقها العسكري، تدمير مراكز القوى العسكرية، وإزالة قواعدها. واستيقظ شعب الجزائر ليجد نفسه وقد بات محروماً من كل قدراته، ومجرداً من كل أسلحته، ولم تكن فجيعته بفقد أسلحته المادية أكثر خطراً عليه من التدمير المستمر لقواعده المعنوية.

عند هذه النقطة، تظهر صعوبة الموقف الذي تعرضت له الجزائر المجاهدة، غداة الحرب العالمية الأولى ـ وهي تتحسس ما حولها لشق طريقها نحو المستقبل، في وسط (ليل الاستعمار) المدلهم الظلام.

وعند هذه النقطة أيضاً، تبرز فضيلة الرواد التاريخيين الذين استطاعوا مجابهة كل الصعوبات وتحدي كل العقبات، وهم يبنون قاعدة الثورة حجراً بعد حجر، حتى أصبح البناء شامخاً، وفي شموخه القدرة الجبارة لمجابهة كل الأعاصير.

لقد عرف أولئك الرواد التاريخيون، أنه من المحال عليهم وهم يبنون قاعدة الثورة، إقامة هذه القاعدة فوق أرض رملية رخوة. ولم يكن من الصعب عليهم الاستناد إلى الأرضية الصلبة التي بقيت على الرغم من تطاول عهد التخريب فيها، وعلى الرغم من كل جهود المخربين، قادرة على احتضان قاعدة الثورة وحمايتها.

وظهر لأولئك الرواد التاريخيين أن الأصالة الذاتية هي الأرضية الوحيدة التي يمكن اعتمادها لبناء قاعدة الثورة. وبدأت عملية تطوير الربط التاريخي بين ماضي الأمة وحاضرها وبناء مستقبلها. وهنا ظهرت قوة الإسلام العظيم الذي ما اعتنقه المسلمون يوماً إلا وكان النصر حليفهم، وما ابتعدوا عنه يوماً إلا وكان نصيبهم الفشل والخذلان.

ولم تكن الجزائر المجاهدة مفتقرة للرجال، وهي أرض البطولات والأمجاد منذ أن عرفت الإسلام، ممن يستطيعون حمل الرسالة وأداء الأمانة. وفي البحث السابق (الأمير خالد الهاشمي

الجزائري) برز بوضوح شكل الصراع المتوقع وطرائقه وما كان عليه حال الجزائر.

عند هذه المرحلة، ينتصب جيل من العمالقة الرجال، العمالقة لا في حجمهم وانما في شدة إيمانهم بحتمية انتصار قضيتهم، قضية الإسلام والمسلمين فوق أرض الجزائر المجاهدة، وفي كل دنيا العرب المسلمين.

وبين جيل أولئك العمالقة من الرجال ينتصب الشيخ المجاهد عبد الرحمن بن باديس وإلى جواره حشد من عظماء الرجال المؤمنين؛ فيهم الشيخ البشير الإبراهيمي والشيخ مبارك بن محمد الميلي والشيخ أحمد توفيق المدني والشيخ محمد العيد آل خليفة. والعربي التبسي وإبراهيم أبو اليقظان والأمين العمودي ويحيى عمودي ومحمد خير الدين والطيب العقبي والسعيد الزاهري ومحمد علي دامرجي والشيخ عبد الرحمن الجيلالي. وعمر راسم (الملقب بابن المنصور الصنهاجي) وأبو اليقظان (رائد الصحافة الوطنية الجزائرية) وسواهم كثير يصعب حصرهم، وليس الهدف هو عرض جيل أولئك الرواد، وإنما الهدف هو إبراز ما توافر للجزائر من رجال عمل معظمهم تحت راية الإسلام وفي نطاق جهد (رابطة العلماء).

لقد ترك هؤلاء، وإخوانهم، على صفحة الجزائر المجاهدة أخاديد عميقة، ورفعوا في سمائها منارات مضيئة، فبات من الصعب «الإمساك بكل النجوم» أو الإحاطة بما في القبة الزرقاء من «شهب وكواكب ونجوم» غير أن اعتراف هؤلاء جميعاً بما كان

لرائدهم ومفجر طاقاتهم ـ الشيخ عبد الرحمن ابن باديس ـ من الفضل في الريادة والجهد، هو أمر كاف للتركيز على جهده بهدف الوصول إلى أرضية الثورة.

وإذا كان للثورة الافرنسية كتابها وأدباؤ ها وفنانوها الذين رسموا الطريق ـ طريق الثورة ـ أمام أجيال الثورة.

وإذا كان للثورة الروسية كتابها ومنظروها وباحثوها الذين حددوا معالم الطريق أمام أجيال الثورة.

فإن للثورة الجزائرية من كل ذلك نصيب لا ينافسه منافس، ولا يطاله مطاول ولا ينكره إلا مكابر.

ولهؤلاء الرواد جميعاً فضل على كل مفكري الثورات وواصفي نظرياتها ومفجري طاقاتها، فقد عمل جميع اولئك في ظروف أقل ما يقال فيها أنها كانت متفتحة على آمال النجاح، مبتعدة إلى حد كبير عن ظروف القهر المرعب والضغط الوحشي. أما هؤلاء: علماء ثورة الجزائر، وكتابها وفنانوها وأدباؤ ها وشعراؤ ها ورجال صحافتها، فقد عملوا وسط ظروف يصعب وصفها، ووسط مناخ من اليأس القاتل. غير إن القلوب التي يعمرها الإيمان بالله الواحد القهار. والنفوس التي يضيئها نور الإسلام الخالد، استلهمت من إيمانها وإسلامها كل الثقة بالنجاح وكل الأمل في المستقبل.

لقد عمل عبد الحميد بـن باديس وجيل الرواد، بإيمان لا تزعزعه الجبال بحتمية انتصار الإسلام والمسلمين، ونـصروا الله، فصدق الله وعده وأيدهم بنصره، وأمكن لهم بذلك (بناء قاعدة الثورة)

بسام العسلي



سيد المجاهدين وامام المصلحين العلامة المرحوم الشيخ عبد الحميد بن باديس
رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

من أقوال عبد الحميد بن باديس

لمن أعيش؟ أعيش للإسلام والجزائر! قد يقول قائل: إن هذا ضيق في النظر، وتعصب للنفس وقصور في العمل، وتقصير في النفع، فليس الإسلام وحده ديناً للبشرية. ولا الجزائر وحدها وطن الإنسان. ولأوطان الإنسانية كلها حق على كل واحد من أبناء الإنسانية. ولكل دين من أديانها حقه من الاحترام. فأقول: نعم، إن خدمة الإنسانية في جميع شعوبها، والحدب عليها في جميع أوطانها، واحترامها في جميع مظاهرتفكيرها ونزعاتها هو ما نقصده ونرمي إليه ونعمل على تربية نفوس الناشئة عليه. ولكن هذه الدائرة الواسعة ليس من السهل التوصل إلى خدمتها مباشرة، ونفعها دون واسطة. فوجب التفكير في الوسائل الموصلة إلى تحقيق هذه الخدمة وإيصال هذا النفع.

إذا قلنا العرب، فإننا نعني الأمة الممتدة من المحيط الهندي شرقاً إلى المحيط الأطلنطيقي غرباً، والتي فاقت سبعين مليوناً عداً، تنطق بالعربية وتفكر بها وتتغذى من تاريخها، وتحمل

مقداراً عظيماً من دمها، وقد صهرتها القرون في بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة.

إن الاتحاد الإسلامي والوحدة العربية، بالمعنى الروحي والمعنى الأدبي والمعنى الأخوي، هما موجودان، تزول الجبال ولا يزولان، بل هما في ازدياد دائم، بقدر ما يشاهد الناس من عمل في الغرب ضد العروبة والإسلام... أما نحن ـ ونحن أعرف بأنفسنا ـ فإننا نتيقن أن هذه الأمم الإسلامية العربية استيقظت من سباتها، وهبت للنهوض من كبوتها، وشعرت بكرامتها، وأخذت تذكر ماضيها، أيام حريتها واستقلالها وهو غير بعيد، فانتبهت تعمل لفك قيودها ونيل حريتها[1].

الإسلام هو دين الله، ويجب أن يكون أيضاً دين الإنسانية، لما فيه من سمو. فهو دين يكبر العقل ويمجده، ويدعو إلى تطبيق جميع أعمال الحياة على أحكام المنطق. والإسلام يستنكر استعباد الإنسان لأخيه الإنسان، كما يستنكر الطغيان في جميع مظاهره وأشكاله.. والإسلام دين ديموقراطي في كل شيء، فهو لا يقبل بالاستبداد مطلقاً، وهو دين إحقاق الحق لكل إنسان عادل ومنصف.

إن الشعب الجزائري ليس فرنسياً، ولا يريد أن يكون فرنسياً، وحتى لو أراد، فلا يستطيع أن يكون فرنسياً لأنه بعيد كل البعد عن

---

(١) صفحات من الجزائر ـ الدكتور صالح خرفي ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ـ ١٩٧٣ ص ٥ و٧٩ و٩٠

فرنسا، بلغته وعاداته وأصوله وديانته. وإن التجنيس - الذي هو في الحقيقة اختيار جنسية غير إسلامية للمسلمين، ينطوي على التنكر للشرائع المقدسة التي تنظم شؤون حياة المسلمين، وتضع لهم قوانين دنيوية وبشرية[1].

---

(١) الجزائر الثائرة، جوان غيلسبي - تعريب خيري حماد - دار الطليعة - بيروت - ١٩٦١

ومما قاله عبد الحميد بن باديس «شعراً»

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال: حاد عن أصله أو قال مات، فقد كذب
أو رام إدماجاً له رام المحال من الطلب
يا نشء أنت رجاؤنا وبك الصباح قد اقترب
خذ للحياة سلاحها وخض الخطوب ولا تهب
وارفع منار العدل والـ إحسان واصدم من غصب

يا قوم هذا نشؤكم وإلى المعالي قد وثب
كونوا له يكن لكم وإلى الأمام ابناً وأب
وأمزج نفوس الظالمين السم يمزج بالرهب
وأقلع جذور الخائنين فمنهم كل العطب
واهزز نفوس الجامدين فربما حيي الخشب

نحن الألى عرف الزمان قديمنا الجسم الحسب
ومعين ذاك المجد في نسل العروبة ما نضب
من كان يبغي ودّنا فعلى الكرامة والرحب

أو كـان يـبـغـي ذلّـنـا فـلـه المـهـانـة والـحـرب

هـذا نـظام حـيـاتـنـا بـالـنـور خط وبـالـلهـب
حتـى يعـود لـشـعـبـنـا من مجـده مـا قـد ذهب
هـذا لـكـم عـهـدي بـه حتى أُوَسَّـدَ في التُّـرَبُ
فـإذا هـلـكـت فـصـيـحـتـي تحيـي الجـزائـر والعـرب[1]

أشعب الجزائر روحي الفـدا لمـا فيك من عـزة عربيـة
بنيت على الـدين أركـانـهـا فكانت سلاماً على البشرية[2]

---

(١) الثورة الجزائرية ـ أحمد الخطيب ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٥٨ ص ١٢٥ ـ ١٢٦.
(٢) صفحات من الجزائر ـ الدكتور صالح خرفي. ص ٩١.

الوجيز في حياة «ابن باديس»

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
١٣٠٧	١٨٨٩	ولادة عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي إبن باديس في مدينة قسنطينة. وبها تلقى تعليمه الأولي.
١٣٢٦	١٩٠٨	توجه إلى تونس لإكمال تعليمه في جامعة الزيتونة.
١٣٣١	١٩١٢	توجه إلى الحجاز وأدى فريضة الحج.
١٣٣٢	١٩١٣	باشر عمله في قسنطينة لتعليم النشء الجزائري
١٣٤٥	١٩٢٦	أصدر جريدة «المنتقد» التي اغلقتها السلطات الاستعمارية بعد إصدار (١٨) عدداً منها.
١٣٤٥	١٩٢٦	أصدر مجلة «الشهاب» التي صدر منها في حياته (١٥) مجلداً، تعتبر مرجعاً لتاريخ الجزائر بين الحربين العالميتين.
١٣٤٩	١٩٣٠	انتخب رئيساً «لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين»
١٣٥٥	١٩٣٦	توجه إلى باريس في وفد جزائري للمطالبة بفصل الدين عن الدولة.
١٣٥٩	١٩٤٠	توفي في الجزائر، وقيل مات مسموماً.
		أصدر في حياته صيانته صحف الشريعة، والسنة المحمدية، والصراط وله «تفسير القرآن الكريم».

تحية وإهداء

هـذا «ابن باديس» يحمي الحق متئداً
كـذاك يـتئـد الـشـمـل الأمـاثـيـل
«عبـد الحميـد» رعـاك الله من بـطل
مـاضـي الشكيمـة لا يلويـك تهـويـل
عليـك مني وإن قصـرت في كلمي
تحـيـة مـلؤهـا بـشـر وتهـليـل[1]

(1) الشاعر الجزائري محمد العيد ، صفحات من الجزائر ـ الخرفي ـ ص ٧٥

﴿ ياأيُّها الَّذين آمَنُوا. لاَ تَتَّخِذوُا بطانَةً مِنْ دُونِكُمْ، لاَ يَأْلُونكُم خَبالاً، وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ، قَدْ بَدَت البَغْضَاء مِنْ أفواهِهِمْ، ومَا تُخفي صُدُورُهُمْ أكبر، قَدْ بَيَّنَا لكُمُ الآياتِ إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلون﴾

الفصل الأول

١ ـ نظرية الاستعمار الافرنسي وتطبيقاتها في الجزائر
٢ ـ حرب الحضارة الصليبية ضد الإسلام
٣ ـ الأهداف التربوية للتعليم الاستعماري
٤ ـ الفَرْنَسَة ، والتنصير، نتائجهما
٥ ـ الانهيار الكبير
أ ـ الجزائر سنة ١٩٢٥
ب ـ أحمد بن عليوه ـ والرحمانية
ج ـ الشيخ عبد الحليم بن سماية
د ـ عمر راسم
هـ ـ احتفـال فرنسا بمرور مائة عام على احتلال الجزائر

١ ـ نظرية الاستعمار الافرنسي
(وتطبيقاتها في الجزائر)

هل يحتاج أبناء الشعب العربي خاصة والأمة الإسلامية عامة للتعرف على الاستعمار من خلال النظرية؟ وهل أصبحت فترة «ليل الاستعمار» بعيدة العهد، متقادمة البعد، حتى لم يبق منها إلا ذكريات باهتة، وأثار جراح مندملة؟

كلا، ليس الأمر كذلك، فلا زالت جراح الاستعمار تدمي الروح والجسد، ولا زال حضوره يؤنس الأمة العربية ـ الإسلامية. وهل الاستعمار الاستيطاني في فلسطين الشام، إلا امتداداً لفضائل الاستعمار الغربي في بلادنا؟ وهل الممارسات الصهيونية وأعمال القمع الوحشية، والاستفزازات اليومية، غير تجسيد عملي لما رسمه الوجود الاستعماري على الصفحة الجغرافية لعالم العرب المسلمين؟ وهل المعاناة التي يعيشها الشعب العربي من عقابيل ذلك إلا واحدة من فضائل الاستعمار؟ . ثم هل توقفت الهجمة الاستعمارية الصليبية حتى يمكن استحضار الشواهد والنظريات من أجل ربط الأحداث التاريخية وإبرازها؟ وهل. . .

الأسئلة كثيرة ولا نهاية لها. ويعرفها إنسان العالم العربي الإسلامي بقدر ما يعرف إجاباتها. غير أنه بالرغم من ذلك كله. فلا بد، التزاماً بمبادىء البحث العلمي وأساليبه، من العودة إلى النظرية للانطلاق منها إلى عالم التطبيق العملي، مما يبرز بوضوح أكبر أهمية الجهد الكبير لدحض النظرية ذاتها وإسقاط تطبيقاتها. وتبرز هنا «**التجربة التاريخية لشعب الجزائر المجاهد**» بمثابة أبرز نموذج وأوضح مثال للصراع بشأن تطبيق النظرية الاستعمارية الافرنسية من جهة، ومحاولات مقاوماتها وإسقاطها من جهة ثـانية، على أيدي مجاهدي شعب الجزائر، ورواده التاريخيين.

الأمر الثابت تاريخياً أن الاستعمار الغربي بانطلاقته المذهلة طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ـ خاصة ـ لم يعتمد على نظرية واضحة المعالم، محددة الأبعاد، وإنما انطلق من خلال ـ فرض منطق القوة الوحشي، والاستجـابة لمتـطلبات النهب الاستعماري ـ (تلبية لاحتياجات الثورة الصناعية). ولعله كان من الأفضل للعالمين، عالم الاستعمار، والعالم الخاضع للاستعمار، البقاء دون نظرية إستعمارية، إذن لكان من المحتمل جداً أن يصل الطرفان المتصارعان إلى صيغة تسمح بتبادل المنافع ـ على نحو ما يتم بذله من جهود في الوقت الراهن، ومع اقتراب القرن العشرين من نهايته، للوصول إلى مثل هذه الصيغة، ولو أن رواسب النهب الاستعماري لا زالت تعترض سبيل مثل هذه التسوية السلمية العادلة والتي يمكن لها ضمان حد مناسب من مصالح كل الأطراف.

* * *

والنظرية الاستعمارية، بعد ذلك، ليست نظرية واحدة ولا موحدة، فهناك نظريات كثيرة مما أبدعته عقول دهاقنة الاستعماريين من مفكرين ومنظرين وباحثين، في كل مركز من مراكز القوى الاستعمارية والمراكز المضادة لها، وفيما بينها أيضاً، كمثل ذلك التناقض ـ أو بالأحرى التباين ـ بين النظرية الاستعمارية البريطانية أو الافرنسية أو البرتغالية أو الاسبانية أو حتى الإيطالية والهولاندية. وهناك تباين أيضاً في أسلوب تطبيق النظرية حتى بالنسبة للدولة الاستعمارية الواحدة، فتطبيقات الاستعمار الافرنسي للمغرب العربي ـ الإسلامي لم تكن واحدة في أقطار المغرب الإسلامي (تونس والجزائر والمغرب) وكذلك بين هذه الأقطار، وبقية البلاد والأمصار التي أخضعتها فرنسا لنظريتها الاستعمارية.

ولكن ، وعلى الرغم من كل تباين واختلاف، فإن أكثر النظريات رواجاً وشمولاً لتطبيقات النظرية الاستعمارية هي التالية:

«الاستعمار ، هو إقامة علاقات مع بلاد جديدة لاستثمار كافة موارد هذه البلاد بكل أنواعها، ووضعها في خدمة الوطن ـ الاستعماري ـ. والعمل في الوقت ذاته لنقل فضائل التفوق العلمي والاجتماعي والفكري والأخلاقي والفني والأدبي والتجاري والصناعي الذي تنفرد به العروق المتفوقة للشعوب البدائية التي يتم إخضاعها للاستعمار. وهكذا فإن الاستعمار هو مؤسسة قائمة في البلاد الجديدة الخاضعة للاستعمار، والتي

يقيمها عرق متفوق لتحقيق الهدف المزدوج الذي أشرنا اليه[١].

قد لا تكون هناك حاجة لدحض مثل هذه المقولة، التي تدحض ذاتها بذاتها، على ضوء التجربة التاريخية. فالتفوق العرقي - المزعوم - لم يكن في يوم من الأيام مرتبطاً بالتفوق الحضاري. كما أن أسس هذا التفوق الحضاري تختلف من عصر إلى عصر ومن قارة إلى قارة. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن تعميم معطيات الحضارة الغربية باعتبارها عاملاً متمماً- أو واجهة تجميلية - لعملية الاستعمار الاقتصادي، إنما تعني القضاء على أسس حضارات أكثر تفوقاً من الحضارة الغربية ذاتها وأكثر أصالة منها: (**مثل الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية**). المهم في الأمر، هو أن النظرية الاستعمارية(**قد انتحلت الحق الذي تكمن شرعيته في أهداف الاستعمار ذاتها**) ومن خلال إنتحال هذا الحق، عملت الدول الاستعمارية على تأميم الشعوب الخاضعة للاستعمار ومواردها وجعلها حقاً لما أطلق عليه الاستعماريون وصفاً تجميلياً هو: (الكنز أو الثروة المشتركة للإنسانية) وبكلمة أكثر وضوحاً: حرمان الشعوب التي يتم إخضاعها للاستعمار من حق التصرف بثرواتها ومواردها بما يتوافق مع مصالحها ومع وجودها ذاته، بعد أن أصبح حق الوجود ذاته مرتبطاً بمصلحة القوى الاستعمارية.

لقد عملت مراكز القوى الاستعمارية على فرض نظريتها الاستعمارية، دولياً، من خلال إعطائها الطابع الشرعي في

---

(1) LA DÉCOLONISATION 1919- 1963. (H. GRIMAL) P. P. 6- 8, 28, 67, ET 93.

(معاهدة فرساي) و (مبادىء عصبة الأمم) التي انبعثت عنها، وتضمنت فيما تضمنته:

«ليست الامبريالية إلا الشكل الخارجي - وغير الشرعي في استطالاته المتطرفة - لفكرة ولحاجة لهما أساسهما الشرعي المطلق. . . . لقد عملت الطبيعة على إجراء توزيع غير عادل، وغير متساو، لقدراتها البشرية ولمخزونها من المواد الأولية في الكرة الأرضية كلها، فبينما توضعت في النهاية القصوى للقارة الغربية - التي هي أوروبا - العبقرية المبدعة للعروق البيضاء، ووفرت لها علم استخدام هذه الموارد الطبيعية ، تركت أضخم احتياطيات لهذه الموارد في إفريقيا وآسيا الاستوائية والمحيطات الاستوائية، والتي تتجه إليها المتطلبات الحياتية حيث تندفع لاستثمارها البلدان المتحضرة. . . فهل يجب أن تترك تلك المساحات الشاسعة جرداء مقفرة؟. . . وهل يجب أن تهجر للأشواك تلك المناطق غير المزروعة والتي يمكن أن تنبع فيها الحياة والغذاء؟. . . إنه من الواجب على الإنسانية كلها أن تفيد من هذه الثروة الموزعة على الكرة الأرضية كلها، إفادة كاملة. إن هذا الغنى هو الثروة المشتركة للإنسانية. وما من سلطة، أو قوة، حتى لو مضى على وجودها ألف سنة، تستطيع التصدي للحق العالمي في استخدام الموارد التي تقدمها الطبيعة في كل مكان من أجل تلبية الاحتياجات الشرعية للإنسانية؟. . .

ليست القضية هنا قضية رثاء للإنسانية التي ارتكبت باسمها أبشع الجرائم التي عرفتها البشرية، ولكن الظاهرة المثيرة هي

انتحال الأقوياء- الاستعماريين- لأنفسهم حق تصحيح الأوضاع التي كونتها الطبيعة. وبكلمة أخرى، محاولة تصحيح أخطاء الطبيعية- إن كانت الطبيعة التي يؤمنون بها معرضة للخطأ- استجابة للنوازع الاستعمارية. وإعطاء هذه النوازع ما أطلقوا عليه اسم «الحق الشرعي- لعمل غير شرعي». وإلباس ذلك كله الرداء «الإنساني». وحرمان الشعوب التي تم إخضاعها للاستعمار من حق ارتداء هذا الثوب الإنساني؟.

المهم في الأمر، هو أن الدول الاستعمارية تبنت النظرية السابقة، وتخلت عن مبدأ الاستثمار البسيط الذي اعتنقته في البدايات الأولى لظهور الاستعمار، وسارت عليه ردحاً طويلاً من الزمن. وأصبح لهذا الاستعمار أجهزته المتكاملة التي تمارس عملها تحت مظلة غطاء شرعي. غير أن هذه الشرعية في التغطية جاءت من طرف أوروبا الاستعمارية وحدها، التي اعتبرت أن قدرتها تسمح لها بفرض حضارتها حتى لو كانت الشعوب الإسلامية الخاضعة لها ذات حضارات تفوق حضاراتها أو تتعادل معها خلال فترة بداية الاستعمار. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن فرض هذه الحضارة بالقوة من جهة والاستمرار في إضعاف المسلمين الخاضعين للاستعمار من جهة ثانية قد أخل بالمبدأ الذي زعم الاستعمار الافرنسي- خاصة- أنه قادر على إقامته، وهو تحقيق التوازن في العلاقات المتبادلة، وأدت الممارسات الاستعمارية إلى زيادة الهوة بين الاستعمار الافرنسي والدول الخاضعة له، وظهر بوضوح أنه من المحال ردم الهوة الآخذة بالتباعد في العمق والاتساع. وإذ ذاك بات المخرج الوحيد هو في

فصم الروابط بين الدول الاستعمارية والدول الخاضعة لها (لا سيما وقد ظهر أن هذا الاستعمار يحمل في جوفه بذور مصرعه) غير أن الرجال الذين عايشوا، فترة ما بين الحربين العالميتين. لم يكونوا يتوقعون حدوث مثل هذه القطيعة بين ليلة وضحاها. وكان الكثيرون ينظرون إلى هذه القطيعة على أنها (أمل بعيد المنال). هذا على الرغم من أن الظروف الاقتصادية الناجمة عن النهب الاستعماري قد زادت من بؤس مواطني البلاد المستعمرة. وتفاقمت خطورة الوضع بإقتناع الدول الاستعمارية- والمقصود هنا فرنسا بصورة خاصة - عن تقديم أية مساعدة للمواطنين المسلمين في الجزائر - الانديجين - . الى جانب الاستمرار في تطبيق المادة (١٣) من القانون المالي لسنة (١٩٠٠) والتي تنص على ما يلي :

«**يجب على البلاد الخاضعة للاستعمار أن تتحمل أعباءها المالية عن طريق الضرائب والغنائم**» وعلى هذا، لم تكن الموازنة الإفرنسية تضم في بنودها إلا ما يخص الدفاع، وتغطية قسم من نفقات الأجهزة الإدارية. باعتبار أن هذه الأجهزة مخصصة للموظفين الافرنسيين ولا يجوز استخدام الموظفين المسلمين فيها نظراً لتخلفهم الثقافي- على حد زعم المستعمرين- وتجدر الإشارة إلى أن ما حققته هذه الأجهزة الادارية من نجاح في تحقيق المخططات الاستعمارية، قد أدى إلى خلق مناخ من اليأس في قلوب معظم سكان البلاد الخاضعة للاستعمار. **وقد برزت هذه الظاهرة بوضوح في المعرض الاستعماري الذي أقيم في سنة ١٩٣١، والذي عرضت فيه، عينات من مواطني البلاد الخاضعة للاستعماربالبستهم الوطنية التقليدية. وهم المواطنون الذين**

كانوا يتباينون بعروقهم- ألوان بشرتهم- ويختلفون في أنماط حياتهم وعاداتهم، غير أنهم يتساوون- على ما كانت تزعمه فرنسا الاستعمارية- بفخرهم إنهم يخدمون جميعا تحت راية- العلم الافرنسي- الذي يخفق فوقهم جميعاً.

* * *



٢ـ حرب الحضارة الصليبية ضد الإسلام

كان في مدينة الجزائر وحدها يوم وطئتها أقدام الغزاة الصليبيين ـ الافرنسيين ـ سنة ١٨٣٠ مائة وستة مساجد، وعندما حرر المسلمون الجزائريون بلادهم سنة ١٩٦١ لم يكن في عاصمة الجزائر أكثر من ثمانية مساجد فقط. وهكذا اختفى ٩٨ مسجداً كانت من أعظم منارات الدنيا.

وكانت الأوقاف الإسلامية في جزائر المسلمين تبلغ نحو (٦٦) في المائة من مجموع الأملاك العقارية والزراعية. ويعود السبب في ذلك إلى شغف الجزائريين بحبس أموالهم على المساجد وأضرحة الأولياء وأندية العلم عامة والحرمين الشريفين خاصة. وكان الجزائريون يديرون هذه الأموال بمهارة وكفاءة، بواسطة إدارة أهلية، ولم يكن أحد يشكو يومئذ فقراً لأن جميع الفقراء كانوا يأخذون حصتهم ونصيبهم من خيراتها. وهكذا استمرت الجزائر في بحبوحة من العيش أيام عزها ومجدها، حتى غزتها جحافل الصليبيين الافرنسيين. وعندئذ تطلعت فرنسا إلى تلك الخيرات فحاولت انتزاعها من أيدي أصحابها، ولكنها وجدت

شروط الواقفين حائلة بين الافرنسيين وبين ما يطمعون. فخلقوا مشكلة التدخل في أمورها بحجة التنظيم والاصلاح.

واشتهر القضاء الإسلامي، عبر التاريخ، بنزاهته واستقلاليته، ووجد الاستعمار الافرنسي في هذا القضاء عاملاً قوياً في المحافظة على شخصية الجزائر الإسلامية والإبقاء على أصالتها، فراح يخطط لفرض هيمنته على هذا القضاء، فأصدر قراراً يوم ١٠ نيسان- إبريل- ١٨٣٤ ينص على «استئناف الأحكام التي يصدرها القاضي المسلم أمام مجلس الاستئناف» وفي هذا ما يخالف الشريعة الإسلامية، إذ أنه ليس لحكم الله استئناف أو تمييز، أو مماطلة وتسويف. وزاد الأمر خطورة بإسناد حق الاستئناف إلى قضاة الاستئناف من النصارى أو اليهود. وزاد في العدوان الافرنسي الأثيم- أيضاً- إرغام القضاة المسلمين على إصدار أحكامهم (باسم الملك الافرنسي- إبان حكم الملكية، وباسم الامبراطور- في أيام نابليون الثالث، وباسم الدولة الإفرنسية- في عهد بيتان). وأضيفت إلى ذلك مجموعة من الصعوبات والعراقيل، جعلت اختصاص القضاة المسلمين بعد سنة ١٨٤١ محصوراً في دائرة ضيقة النطاق لا تتجاوز الدعاوى المتعلقة بالأحوال الشخصية والإرث. وكانوا قبلاً ينظرون في الدعاوى الجنائية والمدنية والتجارية وقضايا العروض والعقارات. ولم يتوقف نشاط الاستعمار الافرنسي المعادي للقضاء الإسلامي عند حد تضييق الخناق عليه والحد من صلاحياته، بل تجاوزها إلى أعمال حذف المحاكم الإسلامية وإبطالها. ففي ٢٨ آب- اغسطس- سنة ١٨٧٤، صدر أمر بحذف المحاكم الإسلامية

(بمنطقة القبائل) وإبدالها بجماعات أهلية أطلق عليها اسم (الجامعات القضائية). وخصصت صلاحياتها بالحكم حسب العرف والعادات الأهلية لا الدين.

فكيف تم هذا التحول؟ للإجابة على ذلك، قد يكون من الأفضل التوقف عند بعض المقولات التي طرحت في إطار الحرب الصليبية- الحضارية- ضد المسلمين.

لقد بدأت عملية احتلال المساجد، مع البدايات الأولى لغزو الجزائر، ففي سنة ١٨٣٢، صرح «روفيغو»[١]: «بأنه يلزمني أجمل مسجد في المدينة لنجعل منه معبد إله المسيحيين» وخاطب رجاله قائلاً: «عجلوا بذلك، فجامع كتشاوه- كيجاوه- هو اجمل مسجد في المدينة خاصة وأنه يتاخم القصر، ويقع وسط الدوائر الحكومية والحي الأوروبي[٢] وتملك الجزائريون الفزع، وتساءلوا جميعاً: إلى بيوت الله توصل المستعمرون الفجرة؟ وهرع المسلمون إلى المسجد يحمونه بقلوبهم. ودخل أربعة آلاف منهم رحاب المسجد، وأقفلوا الباب عليهم، وقد عقدوا

---

(١) روفيغو SAVARY- RENÉ DE ROVIGO واسمه سافوري، رونيه - دوق - (١٧٧٤ - ١٨٣٣) تولى منصب وزير الشرطة أيام نابليون بونابرت، ثم عين حاكماً للجزائر.

(٢) مسجد كتشاوة: يوجد حالياً في ساحة ابن باديس، وكان موجوداً منذ القرن الرابع عشر، وأعيد بناؤه أيام حسان باشا - بن خير الدين بربروس ١٢٠٩ هـ (١٧٩٤ - ١٧٩٥) ليكون من أعظم مساجد الجزائر. وتعرض المسجد لتشويه مرعب سنة ١٨٤٥ وتحول إلى كنيسة، ثم استعاده المسلمون سنة ١٩٦٢.

النية على الإستشهاد معه. وفي يوم ١٨ كانون الأول- ديسمبر- ١٨٣٢، حضرت قوات من المدفعية والمشاة الافرنسيين، وأحاطوا بالمسجد. واقتربت فرقة من حاملي الفؤوس، وأخذت تكسر الباب الموصد، وبينما كان صياح الأهالي واستغاثاتهم تعلو عنان السماء، كانت القوات الافرنسية تقتحم رحاب المسجد وتنطلق بوحشية وهي تطعن الأهالي بحد الحراب والسيوف. وقتل المسلمون عن آخرهم وطلي الجامع بدمائهم. وقام القساوسة يتلون أناشيد الغفران على أشلائهم الممزقة. وتم تحويل المسجد إلى كنيسة عرفت باسم (كنيسة سان فيليب).

واستمرت بعد ذلك عملية هدم المساجد، وتحويلها إلى كنائس للنصارى وبيع لليهود وثكنات للجيش والشرطة وإصطبلات للخيل والدواب. وتعرضت المدن الجزائرية الأخرى لما تعرضت له العاصمة (الجزائر) حيث ذكر أحد رؤساء الأديرة والنائب العام لمطران الجزائر، فقال ما يلي: «إن الحاكم الافرنسي- فالي- هو رجل عميق الإيمان، صاحب ذمة وضمير، يحكم الجزائر كالملك المنفرد بحكمه. هذا هو الرجل الصالح للمستعمرة. فهو يبغي تثبيت دعائم الدين، وفرض احترامه في كل مكان. ويريد أيضاً مضاعفة الصلبان والمعابد في الجزائر. كما أن صاحب السيادة بإمكانه تنفيذ إرادته مع أي رجل كان. وقد اختار أجمل مسجد في قسنطينة ليجعل منه أجمل كنيسة في المستعمرة- وهو مسجد صالح باي».

لم تكن عملية التدمير البربرية لأماكن المسلمين المقدسة إلا

واحدة في جملة وسائل التدمير المادي والمعنوي للقدرة الإسلامية، وكانت الوسائل الأكثر خطورة هي: ١ـ أعمال الإبادة الوحشية للمسلمين. ٢ـ نشر الأمراض والأوبئة وإهمال الشؤون الصحية. ٣ـ إفساح المجال بعد ذلك للإرساليات التبشيرية حتى تكمل عملها فيما أطلق عليه سياسة التنصير. ٤ـ توجيه التعليم بما يتوافق مع الأهداف الاستعمارية.

وقد تنضب الأقلام وتضيق الصحف عن جمع الشواهد الثابتة والبراهين الواضحة عما بذلته السلطات الاستعمارية الإفرنسية وهي تمضي لتنفيذ المخطط المتكامل الذي عرضت أبرز نقاطه السابقة، لإبادة الشعب الجزائري المسلم وتصفية وجوده المادي والمعنوي. ولقد رافقت عملية الغزو البربري للجزائر، واستمرت معه، فظائع رهيبة، وأعمال إبادة إجماعية لم يعرف لها مثيل، ومن شواهدها الشهيرة والمتناقلة، قيام جند الغزو بقتل الشيوخ والأطفال والنساء، ثم تقطيع آذان النسوة وأيديهن لنهب الأقراط والعقود «**حتى كانت الأقراط المعلقة في آذان الجزائريات، تشحن بالبراميل، وتكدس أكواماً في سوق باب عزون في العاصمة لبيعها بالمزاد**». وهكذا كانت تباع حلي الحرائر الطاهرات من النساء المسلمات وهي تقطر من دمائهن البريئة. واسثارت هذه الوحشية بعض الافرنسيين فمضوا في وصفها: «لقد قلت أن الاستعمار هو عملية اغتصاب. ولكن هذا أيضاً لا يكفي، يجب أن أقول عملية اغتصاب هائلة. عملية إبادة شعب بأسره» وقال كاتب فرنسي: «دعونا من الخداع والمواربة، فما نفع تمويه الحقيقة. إن الاستعمار لم يكن في البدء حركة حضارة وإرادة حضارية. كان

حركة قوة نفعية، إنها مرحلة صراع من أجل الحياة، صراع التزاحم الحيوي الكبير الذي انتقل من الأفراد إلى الجماعات، ومن الجماعات إلى الأمم. وراح ينشر ألويته فوق العالم الفسيح . . . إن من يقول حضارة، إنما يعني منفعة الغير- ورغبة كريمة في مساعدة هذا الغير. في حين أن الاستعمار في أساسه، ليس سوى عملية منفعة شخصية- أنانية- يفرضها القوي على الضعيف.».
ويعرف السفاح الاستعماري «بيجو» الاستعمار بقوله:

إن الاستعمار هو الفتح البربري الكبير، وهو أشبه شيء بمرور قوافل الرحالة الذين يهجمون على بلد ما، فيقتلون ويذبحون وينهبون كل شيء»[1] وسار المارشال «سانت آرنو» على نهج . . «بيجو» فكتب في وصف إحدى عمليات الإبادة ما يلي: «إن بلاد بني مناصر رائعة حقاً. وهي إحدى المناطق الغنية التي شاهدتها في أفريقيا. . . فالقرى والمساكن متقاربة جداً. . . لقد أحرقنا ودمرنا كل شيء. . . إنها الحرب، وكم من نساء وأولاد لاجئين إلى ثلوج الأطلس، قضوا نحبهم من البرد والبؤس» وفي «رسائل جندي» كتب ـ مونتانياك- يصف ما فعله بأحد الجزائريين: «قطعت رأسه، وقبضته اليسرى، وقدمت إلى المعسكر شاكاً رأسه على حربة، معلقاً يده على قضيب بندقية. ثم أرسلناهما إلى الجنرال ـ باراقاي ديلليار- الذي كان في المعسكر القريب منا. وكم كان الجنرال شديد السرور والفرح». أما كريستيان، صاحب كتاب «أفريقيا الافرنسية» فإنه بعد أن يصف كيفية إقدام القوات الافرنسية

---

(١) الثورة الجزائرية (أحمد الخطيب) ص ١٥٩ ـ ١٦٣.

بقيادة الجنرال «روفيغو» على ذبح جميع أفراد قبيلة «الوفية» وهم نيام (يوم ٦ نيسان- إبريل- سنة ١٩٣٢) يقول: «وهكذا أبيد من كان حياً دون تفريق بين الشاب والشيخ والذكر والأنثى» ويقول «بن» واصفاً إحدى المجازر: «لقد كانت المذبحة رهيبة، فالمساكن وخيام الأجانب منتصبة في الميادين والشوارع والساحات، مغطاة بالجثث، وتبين بعد الاستيلاء على القرية بأن عدد الضحايا بلغ ٢٣٠٠ قتيل بين إمرأة وطفل، أما الجرحى فكان عددهم معدوماً. . . وقام الجنود باكتساح البيوت ونهبها وإحراقها وإحراق الأشجار. . .

وفي اليوم التالي، نزلت الحملة إلى «البليدة» وأحرقت كل شيء في طريقها، وهدمت هذه القرية الجميلة. . . وكان خط النيران المشتعلة في الجبل هو المرشد إلى طريق سير الحملة» ويكتب الكولونيل «دومونتانياك» إلى «الجنرال لامورسيار» «طلبت مني في مقطع من رسالتك أن أخبرك عن مصيرالنساء اللواتي نسبيهن، إننا نحتفظ ببعضهن كرهائن، وبعضهن نستبدلهن بالجياد، ثم نبيع الباقيات بالمزاد العلني باعتبارهن حيوانات لنقل الأحمال. . . ولكي أطرد الأفكار السوداء التي تمتلكني بعض الأحيان، أقوم بقطع رؤوس. . . لا ليس رؤوس نبات «الأرضي شوكي» بل رؤوس رجال حقيقيين» ولا بد لهؤلاء المساكين الذين يصبحون بدون مأوى، حفاة، عراة، أن يلجؤوا إلى الكهوف التي هي آخر ملجأ طبيعي للإنسان، تقيه الحر والقر، وتحميه من غوائل الليل ووحوش القفار».

وفي هذه الكهوف، حدثت أشنع أعمال الإبادة، ضد قبيلة

«أولاد رباح» التي جاءها إنذار من الكولونيل «باليسي» (يوم ١١ حزيران- يونيو- عام ١٨٤٥) يأمرها فيه بالاستسلام خلال عشر ساعات. ولما كان الاستسلام يعني مد الرقبة للجزار فقد اشترطت القبيلة لخروجها انسحاب القوات الافرنسية. وبدون إنذار آخر، أوقد «باليسي» النار أمام الكهوف، وسلط الدخان على المحتمين فيها طوال الليل حتى قضوا خنقاً. وهذا وصف مريع للعملية- وقد اقتطف من كتاب «رسائل جندي» مؤلفه- مونتانياك: «أية ريشة تستطيع رسم هذا المنظر، عند منتصف الليل، وتحت ضوء القمر، لقد انشغل قسم من القوات الافرنسية في تحضير نار جهنمية... إننا نسمع الأنات المتقطعة المنبعثة من الرجال والنساء والأطفال والحيوان. وطقطقة الصخور المحترقة وهي تتساقط. وطلقات الأسلحة المستمرة... لقد حدث في هذا اليوم أعنف صراع بين الإنسان والحيوان، فعند الصباح، وبينما كنا نخلي مداخل الكهوف، فوجئنا بأفظع مشهد يقع عليه النظر. لقد وجدنا في داخل الكهوف جثث الثيران والأغنام والحمير المندفعة بغريزتها الطبيعية إلى استنشاق الهواء الطلق الذي حرمت منه في الداخل، وقد تكتلت بين هذه الحيوانات، وتحتها جثث الرجال والنساء والأطفال. ورأيت رجلاً ميتاً جاثياً على ركبتيه، يمينه تمسك بقرن ثور، بينما كانت بالقرب منه امرأة وعلى ذراعيها طفلها... من السهل التعرف على هذا المنظر، فالرجل قد اختنق مع المرأة والطفل والثور، في الوقت الذي كان يحمي فيه عائلته الصغيرة من ثورة هذا الحيوان... لقد كانت الكهوف واسعة، حتى إننا أحصينا فيها سبعمائة وستين جثة، ولم ينجح في الخروج

منهم سوى ستين ما لبث أن فقد أربعون منهم الحياة. ونقل رجال الإسعاف عشرة في حالة صحية خطيرة أما العشرة الباقون، فقد أطلقنا سراحهم ليعودوا إلى قبائلهم يبكون أطلالاً وخراباً».

لم تقف جهود فرنسا- الحضارية - عند حدود أعمال الإبادة المباشرة للجزائرين المسلمين، وإنما تجاوزتها إلى أعمال الإبادة غير المباشرة وفي طليعتها إهمال الناحية الصحية، ونقل الأمراض والأوبئة الحضارية إلى الجزائر- ومنها أمراض السل والسرطان والأمراض التناسلية. ومعروف أن الجزائر- وأفريقيا كلها عامة- لم تكن تعرف قبيل الاحتلال الاستعماري شيئاً عن مثل هذه الأوبئة، ولم يأت بهذه الأمراض الفتاكة غير جنود الحملة الإفرنسية المكونين من السجناء واللقطاء والمرتزقة. وهكذا فقد رافقت الحملة الاستعمارية، حملة أخرى من الأوبئة المخيفة التي صدرها المجتمع الافرنسي القذر. وجدير بالذكر التنويه إلى ما كتبه «البروفيسور ليفي فالنسي» في هذا المجال. وفيه ما يلي: «تضم الجزائر بسكانها التسعة ملايين نسبة من المسلولين تعادل ما تضمه فرنسا التي يبلغ عدد سكانها أربعين مليوناً. وبالرغم من كل ذلك لم تتخذ سلطات الاستعمار الاحتياطات الوقائية اللازمة، مثل بناء المستشفيات الصحية، وزيادة أعداد الأطباء الذين هم بمعدل ٤-٨ أطباء لكل مائة ألف نسمة، فلا عجب إذن بعد كل هذا أن نرى نسبة وفيات الأطفال بين العرب تبلغ خمسين بالمائة» كان ذلك في نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث بلغ عدد الأطباء الموجودين في الجزائر (١٨٥١) طبيباً. وهذا يعني توافر طبيب واحد لكل (٥٤٠٠) نسمة- نظرياً- أما من الناحية العلمية، فكان

معظم هؤلاء في العواصم الكبرى والمراكز الصحية الإفرنسية، وواجبهم الأول هو خدمة الافرنسيين. وقد يكون ذلك وحده كافياً لإبراز اهتمام السلطات الاستعمارية بالعرب المسلمين، وما نتج عن هذا الاهتمام من إسهام في أعمال الابادة غير المباشرة للعرب المسلمين في الجزائر.

لم تقف فرنسا عند هذا الحد، فأضافت إلى سجلها الحضاري جريمة دينية وإنسانية ما عرفها التاريخ، عبّرت فيها عن حقدها الدفين ضد الإسلام وتعصبها الأعمى والأحمق للمسيحية. وتمثلت هذه الجريمة بالمجاعة الكبرى التي اجتاحت الجزائر سنة ١٨٦٧ والتي ذهب ضحيتها حوالي نصف مليون نسمة.

لقد كانت فرنسا وراء المجاعة، لأن التاريخ لم يذكر أبداً حدوث مجاعات من هذا النوع في البلاد، فالجزائر غنية بمواردها الغذائية، وكانت تجارتها مزدهرة قبل الاحتلال الافرنسي للبلاد، ولكن الحروب التخريبية التي شنتها فرنسا على الحرث والنسل لتحطيم المقاومة الشعبية، كانت العامل الوحيد الذي أدى إلى المجاعة الرهيبة. فالسنوات التي سبقت عام ١٨٦٧ كانت سني حرب طاحنة، لم يعرف تاريخ البشرية إلا نادراً بمثل وحشيتها وبمثل ما رافقها من فظائع وآثام.

ولم تجد فرنسا سبيلاً للتغلب على الشعب إلا بحرمانه من وسائل الحياة- الغذاء والماء- ولذا تم تطبيق مخطط إجرامي لإحراق الغابات والمزارع والحقول والبساتين وتخريب القرى والمدن، وردم العيون والآبار. وكان من نتيجة ذلك ظهور مجاعة

سنة ١٨٦٧ التي انتظرتها فرنسا بفارغ الصبر، لتشرع في تنفيذ مهمتها الثانية المتعلقة بتنصير المسلمين. وصهرهم في البوتقة المسيحية. واغتنمت فرنسا هذه المجاعة فجلبت إلى الجزائر أكبر عدد ممكن من «الآباء البيض» و «الإرساليات التبشرية» الأخرى. وزودتهم بالأطعمة المختلفة، وحثتهم على استدعاء الأهالي الجياع لزيارة الكنائس، بعد إغرائهم بوجود ما يبتغون. ولم تكن بغية الأهالي آنذاك سوى لقمة العيش. ويقف الجز ئريون على أبواب الكنائس والمعابد المليئة بأشهى الطعام، ضمر الخصور، غور العيون. يتلهفون إلى لقمة العيش، فلا يجدونها إلا بشروط. ولم تكن هذه الشروط سوى الخروج على الدين الإسلامي والدخول في المسيحية، وبهذا فقط يتمكنون من مضغ لقمة الحياة، وإلا فالموت لهم بالمرصاد.

وذات يوم، وقف أحد الجزائرين الجياع أمام باب إحدى «الإرساليات التبشرية» في عمالة «وهران». وطلب إعطاءه لقمة عيش تحفظ له ما بقي من حياة. وكان الرجل في حالة تثير الرثاء في أقسى القلوب المتحجرة، بسبب ما وضح من أمره من الضعف والهزال. واستقبله «المبشر المحترم» ورحب به، وأدخله المعبد. وأخذ يعرض على بعد منه أنواع الطعام الشهية، واصفاً لذائذها وفوائدها. ولم يتمكن الرجل من إيقاف لعابه السائل، فهم بمد هيكل يده ليحظى بشيء من الطعام. ولكن المبشر حال دونه ودون مبتغاه، وقال له بصراحة: «لن يأكل هذا الطعام الشهي إلا من دخل الدين المسيحي». وانتابت الرجل رجفة، ولم يلبث أن أدار ظهره للطعام المشروط، وأخذ يسحب رجليه الضعيفتين

سحباً. حتى إذا ما ابتعد عن باب الكنيسة خر على الأرض فاقداً الحياة. ومضى أبناء وهران، الذين عاشوا المجاعة، يتناقلون هذه الحادثة فيما يتناقلون. ويسجلونها برهاناً ـ في جملة البراهين ـ على ما اتسم به «هؤلاء المبشرون» من قسوة القلب، والبعد عن كل القيم الحضارية والمفاهيم الإنسانية.

وقد توافرت شواهد كثيرة أجمعت كلها على أن المبشرين الذين سبقوا الحملة الاستعمارية، ورافقوها، مثلوا أشنع تمثيل عقلية الاستعمار البغيضة، والقائمة على التقتيل الجماعي ونشر الرعب وتعميم الفوضى في المغرب الإسلامي عامة وفي جزائر المسلمين خاصة. وإلا لما تركوا هذا الرجل ـ وأمثاله الكثيرون ـ يموتون جوعاً أمام عيونهم، بلا ذنب اقترفوه إلا لأنهم قالوا: ربنا الله، وما رضوا عن دينهم بديلاً، بينما كان بوسع هؤلاء المبشرين المحترمين تلافي جرائمهم الدنيئة، والتستر على أعمالهم القذرة. ولكنهم يدركون بأن مثل هذا الرجل، سيجعل من أطفاله أيتاماً لا معيل لهم. وبعد ذلك يسهل عليهم إلتقاطهم وزجهم في «دور الأيتام» التبشرية حيث ينشؤون نشأة مسيحية محضة. وأشهر هذه الدور «دار بن عكنون وبوزريعة» في مدينة الجزائر، ودار بطيوه بالقرب من مدينة «أرزيو». ومثل هؤلاء الأيتام الذين قضى آباؤهم جوعاً، وهم الذين جاء بهم الجنرال بيجو إلى الأب «بريمو» وسلمه أياهم قائلاً: **«حاول يا أبت أن تجعلهم مسيحيين، وإذا فعلت، فلن يعودوا إلى دينهم ليطلقوا علينا النار».**

لقد عبر بيجو في جملته هذه تعبيراً صريحاً عن نوايا حكومته في

القضاء على الدين الإسلامي. وسانده في تعبيره كاتبه الخاص حين قال: **«إن أيام الإسلام الأخيرة قد حانت، ولن يكون في الجزائر كلها بعد عشرين عاماً من إله يعبد غير المسيح... وإذا ما ارتبنا في أن هذه الأرض ستبقى لفرنسا، فمن الجلي- على الأقل- أن الإسلام قد فقدها... إن العرب لن يكونوا لفرنسا إلا حينما يصبحون مسيحيين»**.

أصبحت العلاقة الجدلية القائمة بين الاستعمار وبين التبشير الكنسي، من العلاقات المسلم بها تاريخياً، والمعترف بها دولياً. ولم تعد بحاجة لدليل أو برهان. وقصة احتكاك المغرب العربي- الإسلامي بالصليبية العمياء- وهي نقيض المسيحية السمحاء- لم تبدأ باحتلال الجزائر، ولكنها أعرق في القدم. فالاحتلال نتيجة من نتائجها. وما كان التبشير إلا مقدمة صادقة للاستعمار. ورائداً وفياً لطلائع الزحف التوسعي. ولولا تسلل المبشرين إلى أفريقيا، ونفاذ هواجسهم إلى أدغالها، وتسرب تعاليمهم إلى حنايا سكانها، لما رسخ للاستعمار قدم في هذه القارة. وكانت هذه الارساليات أمينة لرسالتها المزدوجة، التي تسربها حسواً في ارتقاء... فقد لا تكتفي الارسالية بتمهيد الأرض لأقدام الغزاة، وإخضاع الرقاب لسيوفهم، بل ربما عاد القسيس من جولته إلى باريس. وفي طيات أثوابه خريطة يسهل بها مؤامرة الغزو. وها هو الأب (شارل دوفوكو) إمام أئمة الكاثوليكية، وأحد رحالة الصحراء، رحل الى المغرب الأقصى، ورجع منه بوثائق وبخريطة قيل عنها: «أنه لولا خريطة الأب فوكو ووثائقه عن المغرب التي قدمها للحكومة الإفرنسية، لكان احتلال فرنسا للمغرب من الصعوبة بمكان».

وكان على فرنسا أن تعترف له بالجميل، اعترافها بقوادها الفاتحين، فأقامت له تمثالاً في حديقة- ليوتي- بالدار البيضاء- أزيح عنه الستار سنة ١٩٢٢. وكانت الوثنية والبربرية في أفريقيا نقطة الضعف التي ركز التبشير هجومه عليها، والكوة التي نفذ منها إلى القارة.

وكان المبشرون يتطلعون باستمرار في نهم مسعور إلى استغلال الوثنية وتسخير البربرية لخدمة الاستعمار. وهو ما أبرزه بحث ظهر في مجلة - المغرب الكاثوليكي- بعنوان «روح الإنجيل غذاء لروح البربر» جاء فيه: «إن البرابرة قريبون من الإنجيل، وأساطير الإنجيل التي تفيض بحياة الرجل، تصف حياة شبيهة بحياتهم. وأمثال الإنجيل تشبه كثيراً من أمثالهم. وإن حياتنا الخلقية الإفرنسية قد كيفتها وصبغتها المسيحية، فلم لا يكون الإنجيل إذاً مركز الاتصال الذي تلتقي فيه الروح البربرية والروح الإفرنسية اللتان تنشد إحداهما الأخرى». ولم يكن العرب في أفريقيا في مأمن من هذا النهم المسعور، بل هم آخر المطاف للجولة المبيتة، والهدف البعيد لها. ولم يكن الإسلام في معزل عن هذه المساومات الرخيصة. بل كان الغنيمة التي يتحلب لها ريق الصليبية البغيضة، وإنما اتخذت البربرية ذريعة للوصول إلى الإسلام المستعصي. وركز الهجوم على البربرية لاستدراج العرب والتمكن من تلابيبهم، وهو الأمر الذي أكده «الأب فوكو» الذي اشتهرت عنه مقولته التالية: «إن أبناء البرابرة هم فتيان جنس لطيف، وهم مستعدون لقبول الروح اللاتينية التي انتموا إليها في العصور الحالية. إن البرابرة ليسوا متعصبين ولا جاحدين، وإن

دخولهم في المسيحية هو الذي يعيد العرب ويدخلهم إليها كارهين»[1] والأمر الواضح هو أن الصليبيين قد جنحوا إلى كوة الوثنية، حين استعصى عليهم الولوج من باب الإسلام. فاستنجدوا بالعصبية المفرقة حين أعياهم الدين الموحد. الدين الذي وقف بالبربر والعرب على صعيد واحد في وجه الاحتلال، هو الذي دفعهم إلى نبش الماضي، والالتفات إلى لاتينية البرابرة حتى يجدوا ما يفتتون به أوصال الحاضر ويمزقونه.

إنها الصليبية تعيد نفسها، ومجاف للحقيقة وللواقع التاريخي من يزعم أن التبشير في الجزائر كان في خدمة المسيحية، ولو كان القائل مبشراً مسيحياً. لأن أقوال سلفه تغلق في وجهه باب مثل هذا الزعم. فقد كان غزو الجزائر منذ بدايته غزواً صليبياً أعلن عن أهدافه بوضوح تام، فأعاد إلى الأذهان ملاحم الحروب الصليبية في المشرق وأيامها في أندلس المسلمين.

والكنيسة هي التي باركت الغزو الصليبي في المشرق واحتضنته، والقسيس هو الذي كان يغمس السيف في الماء المقدس، ويقلده عنق الفارس، ويشيعه بالدعوات وهو في طريقه إلى بلاد الشام. أما بالنسبة لاحتلال الجزائر، فإن الكنيسة لم تقتنع بالدعوات الضارعة، بل سارت في ركاب الاحتلال، وتلاحمت معه جسماً وروحاً. وأذعنت في طواعية للوحشية البربرية التي جاء

---

(١) جريدة (الشريعة) الجزائرية. (٣١ كانون الثاني - يناير - ١٩٣٣، نقلاً عن مجلة (المغرب الكاثوليكي) دار الكتب الوطنية بتونس العاصمة - (صفحات من الجزائر - الدكتور صالح خرفي - ص ٣١١ - ٣٢٩).

بها الغزاة المستعمرون، الذين لم يشبع حقدهم بدخول البلاد، فمضوا إلى إشباعه بقلب أوضاع هذه البلاد رأساً على عقب، وهذا ما يفسر تركيز هجومهم على الإسلام ومقدساته. لا غرابة في ذلك، فالمعروف من القوانين الدينية للفروسية الغربية التي زحفت إلى المشرق في الحروب الصليبية القديمة هذه القوانين:

أولاً: أن تصدق كل تعاليم الكنيسة وتمتثل لأوامرها، فإن فعلت ذلك ، ولو أدى بك إلى الاستشهاد دخلت الجنة.

ثانياً: أن تحمي الكنيسة، وتبذل كل ما تستطيع من مال ونفس ونفيس في سبيل نصرتها ودعمها.

ثالثاً: أن تشن على الكافرين(أي المسلمين) حرباً لا هوادة فيها.

ومن هذا البند الثالث، نشطت الوحشية الصليبية، وانطلقت من عقالها لتقتل وتحرق وتدمر وتبيد، في حرب لا هوادة فيها، وبقلب لا يعرف الرحمة، وكأن المسيحية لن تقومَ لها قائمة إلا على أنقاض الإسلام، وبني الإسلام. ولا تستطيع الكنيسة تبرئة ساحتها من فظائع الاحتلال والتي سهر على تنفيذها سفاحون عسكريون، لأنهم زحفوا في حمى الكنيسة، ووسموا صدورهم بالصليب ، فالهدف واحد عند الطرفين الديني والعسكري، الهدف إبادة الإسلام في هذه الربوع. وكان رجال الكنيسة هم الدماغ المفكر والمخطط، وكان رجال العسكر، هم الذراع المنفذ والمدمر. ولقد سبق عرض بعض الشواهد التي تؤكد هذه الحقيقة، وهذه طائفة أخرى منها:

قال الكردينال- لافيجوري-: «علينا أن نخلص هذا الشعب ونحرره من قرآنه، وعلينا أن نعنى على الأقل بالأطفال، لتنشئتهم على مبادىء غير التي نشأ عليها أجدادهم، فإن واجب فرنسا تعليمهم الإنجيل أو طردهم إلى أقاصي الصحراء بعيدين عن العالم المتحضر» واستجابة لهذه التوصية وأمثالها يصدر أحد القادة الإفرنسيين- مونتانياك- تعليماته إلى مرؤوسيه: «لايمكن تصور الرعب الذي يستولي على العرب حين يرون قطع رأس بيد مسيحية، فإني أدركت ذلك منذ زمن بعيد، وأقسم بأنه لا يفلت أحد من أظافري حتى يناله من قطع رأسه ما ينال. وقد أنذرت بنفسي جميع الجنود الذين أتشرف بقيادتهم، أنهم لو أتوا بعربي وهو على قيد الحياة، فسأنهال عليهم ضرباً بعرض نصل سيفي. وأما قطع الرؤوس، فيجب أن يتم على مرأى ومسمع جميع الناس... هكذا تكون معاملة العرب: قتل جميع الذكور الذين تجاوزوا الخامسة عشر من أعمارهم، وسبي جميع النساء، وخطف جميع الأطفال. وشحن الجميع في السفن، ثم اقصاؤهم إلى «جزر مركيز» أو إلى الثلث الخالي من الأرض. وخلاصة القول: يجب إبادة كل من لا يتمرغ تحت أرجلنا كالكلاب».

ويعود القائد الإفرنسي «سانت آرنو» ليؤكد مجدداً ما تميزت به مواقفه البطولية التي تتوافق مع ما سبق ذكره: «لا تسأل عن أشجار الزيتون الباسقة التي ستكون فريسة وحشيتي، واليوم، في برنامجي إحراق جميع ضيع قبيلة بني سالم وابن القاسم وقاسي وقراهم. لقد أحرقت أكثر من عشر قرى كانت كلها بهجة وغنى. وهو القائل: تركت ورائي حريقاً حافلاً تندلع لظاه فيما يقرب من

مائتي قرية أصبحت طعمة للهب والحريق، لقد لعبت يد الدمار بالبساتين. بقدر ما لعبت يد المناشير بأشجار الزيتون». ولقد دافع «سانت آرنو» هذا عن فعلته الهمجية بقوله: «على الرغم مما يقوله أصحاب البر والإحسان، فإني أعتقد بأن الغاية تبرر الوسيلة، فالجيش الذي تكون مهمته إبادة شعب، لا يكترث بقوانين الحرب، فما الحريق إلا حريق، لا يضرم الإنسان النار، ويطلب منه أن تكون برداً أو سلاماً، وما طبيعة النار إلا الإحراق والتدمير» وكان بالمستطاع موافقة هذا المجرم على حججه الذرائعية لو وقعت جرائمه في ظروف الاقتتال. غير أن جريمة سد الكهف لخنق ١٥٠٠ إنسان بين شيخ وامرأة وطفل- وأمثالها هي من الجرائم التي تعجز الذرائع عن تغطية بشاعتها. وهنا تعود الصليبية- وليست المسيحية- لتحمل مسؤوليتها الكاملة. لقد كان باستطاعة الكنيسة على الأقل الإعلان عن استنكارها لما يتم ارتكابه من جرائم لا إنسانية، وأن تعتصم بجدران الكنائس وهي توجه دعوات المغفرة لمن خرجوا على تعليمات السيد المسيح وتنكروا لها- وقد كان مثل هذا الموقف هو أضعف الإيمان-.

٣ـ الأهداف التربوية للتعليم الاستعماري

«ليس الهدف من فتح المدارس الافرنسية- في شمال أفريقيا هو أن نكون عقولاً مثل عقل (فولتير) أو (مونتسكيو) أو (جان جاك روسو). إن الهدف ـ ببساطة ـ هو أن نبدل لغة بلغة، ودينًا بدين، وعادات بعادات». وقد تكون هذه الجملة التي أعلنها أحد القسس ـ المبشرين ـ بصراحة كافية لتحديد مبادىء أهداف التربية الاستعمارية وأسس التعليم في ظل الاستعمار. ويكمل الكاردينال ـ لا فيجري ـ هدف التعليم بمقولته الشهيرة: **«علينا أن نجعل من الأرض الجزائرية مهداً لدولة مسيحية تضاء أرجاؤها بنور مدنية منبع وحيها الإنجيل. تلك هي رسالتنا الإلهية»**. وليس المجال هنا مجال مناقشة «الكاردينال المحترم» بصحة هذه الرسالة التي زعم أنها إلهية، إذ أن قراءة الإنجيل تنفي كل احتمال لوجوب التنصير بالقوة وعن طريق الإبادة، لا سيما عند استخدام هذه القوة ضد قوم يدينون بالله، ولديهم كتاب أنزل من لدن عزيز رحيم، كما أنزل على الذين من قبلهم. غير أن الاستعمار لم يجد خيراً من الدين حجاباً يستر خلفه أعماله الاجرامية. تلك الأعمال التي لا

تترك مجالاً للشك في براءة الدين المسيحي والأديان الأخرى من الاستعمار البغيض.

لقد سبقت الإشارة إلى ما كانت تتمتع به الجزائر، وبقية أقطار العالم الإسلامي في المغرب، من ارتفاع رائع في المستوى التعليمي ـ الثقافي، قبل أن تمتد إليها يد الاستعمار الآثمة التي أخمدت نور هذه الثقافة، وعملت على نشر الجهل والأمية في الجزائر حتى تتسلل إلى أغراضها العدوانية. ومع أن الاستعمار الإفرنسي هو الذي جلب الجهل والفاقة إلى الجزائر فقد ادعى مناقضاً لأعماله، بأنه جاء رسول حضارة ومدنية. ووصف الجزائريين المتمدنين بأنهم شعب «همجي جاهل». وقد يكون من الأفضل هنا الإشارة إلى ما أثاره أحد أعضاء مجلس الشيوخ ـ أوجين كومب ـ حين أثار مجلس الشيوخ بقوله: **«مما لا شك فيه هو أن التعليم في الجزائر كان قبل الاحتلال الافرنسي ـ سنة ١٨٣٠ ـ أكثر انتشاراً وأحسن حالاً مما وصل إليه الآن ـ بعد قرن وربع من الاستعمار ـ الأمر الذي لم يكن يرضي السلطات الافرنسية في الجزائر. فقد كان هناك أكثر من ألفي مدرسة للتعليم الابتدائي والثانوي والعالي، وكان يتولى التدريس فيها نخبة من الأساتذة الأكفاء. كما أن الطلاب كانوا من الشباب الناهض المتعطش إلى العلم، هذا فضلاً عن مئات المساجد التي كانت تعنى بتلقين اللغة العربية لطالبيها**[1].

لم يشأ الاستعمار الافرنسي. سيراً مع خطته لتدمير العروبة

---

(١) الثورة الجزائرية (أحمد الخطيب) ص ١٢٨ ـ ١٣٦.

في الجزائر، أن يترك اللغة العربية حرة طليقة تؤدي واجبها الديني، وتبلغ حضارتها الإنسانية. فشن عليها حرباً وحشية، بهدف إعاقة انتشارها وازدهارها. وراح يغلق المدارس العربية بالقوة، بدون أي سبب، ويعتقل أساتذتها وشيوخها، وذنبهم الوحيد أنهم يعلمون اللغة العربية، وفي هذا قال أحد الإفرنسيين ـ بولار: «**لقد أحدث وجود الافرنسيين اضطراباً بالغاً بين هؤلاء المفكرين الأدباء. وأضطر معظم العلماء والفقهاء إلى ترك وظائفهم التي كانوا يشغلونها. كما تشتت شمل التلاميذ الذين اضطروا إلى السعي وراء العلم في السر بعد أن كانوا يتلقونه علانية وفي حرية تامة**».

ولقد زاد في تمكين فرنسا من اضطهادها للغة العربية، سيطرتها المطلقة على عقارات الدولة الجزائرية والأوقاف الإسلامية. وهذا ما حدا بفرنسا إلى تعيين أناس من أعوانها للاشراف على قضايا التعليم في المساجد والمدارس. ووضعت لهم خطة تهدف إلى إهمال اللغة العربية ـ لغة القرآن الكريم ـ وقد كتب ـ بولار ـ بهذا الصدد: «**أسندت إدارة التصرف في المساجد والمكاتب إلى أفراد** بارعين في الكيد والدس. **استخدموا القسط الأوفر من الأموال في مصلحتهم** الشخصية. **ومن هنا أهملت أهلية المدارس وتركت وشأنها**». ويعلق الضابط الاستعماري ـ رين ـ على أسلوب فرنسا تجاه التعليم في الجزائر، فيقول: «كان للغزو الإفرنسي أثر سيء إذ بسط يده على عقارات الدولة، دون أن يخصص ولو محلاً واحداً للتعليم».

أدرك الاستعمار الافرنسي أن انتشار اللغة العربية يشكل خطراً

على الوجود الإفرنسي في الجزائر الإسلامية، ويقضي على مخططاته الهادفة إلى «فرنسة الجزائريين» والقضاء على أصالتهم. ولذا عملت على محاربة اللغة العربية بشتى الوسائل ومختلف الأساليب للحد من تعلمها وانتشارها. وكان في جملة إجراءاتها إصدار القانون المعروف (بقانون ٢٤ كانون الأول- ديسمبر - ١٩٠٤) والذي ينص على: «عدم السماح لأي معلم مسلم أن يتولى إدارة مكتب لتعليم اللغة العربية بدون رخصة يمنحه إياها عامل الولاية - العمالة - أو قائد الفيلق العسكري. ويعد فتح مكتب بدون رخصة اعتداء على حدود القوانين الخاصة بالأهالي - المسلمين -».

وضعت السلطات الإفرنسية في الجزائر - بعد ذلك - العراقيل أمام منح «رخصة التعليم» فكان على المعلم - الشيخ - التعرض لمواقف صعبة والرضوخ لشروط مهينة، يلتزم بتنفيذها نصاً وروحاً في مدرسته، حتى يحصل على «رخصة التعليم القانونية» وكانت تلك الشروط تنص على ما يلي:

١ - اقتصار التعليم على تحفيظ القرآن لا أكثر.

٢ - عدم التعرض بأي وجه كان إلى تفسير الآيات القرآنية، وخاصة تلك التي تحض على الجهاد في سبيل الله، وتدعو إلى محاربة الظلم والاستبداد.

٣ - استبعاد تدريس تاريخ الجزائر، وتاريخ العرب المسلمين، وجغرافية الجزائر والبلاد العربية.

٤ ـ استبعاد الأدب العربي، بجميع علومه، والامتناع عن تعليم المواد العلمية والرياضية.

وفرضت السلطات الافرنسية على حامل «رخصة التعليم القانونية» أن يبث روح السخط والاشمئزاز بين الناشئة من الثقافة العربية والإسلامية، وأن يخلص للسلطة الاستعمارية، وأن يتبع تعليماتها وينفذ توجيهاتها المتعلقة بالثقافة العربية، وإلا تعرض لما جاء في القانون ذاته: **«يجوز لنفس السلطة أن تسحب رخصة التعليم لأجل معين، أو نهائياً، من المعلمين الذين يرتكبون أي عمل من شأنه أن يمس بحسن السلوك أو الأخلاق. كما يجوز لها أن تأمر بإغلاق أبواب هذه المكاتب بصورة تأديبية»**. وهكذا اعتبرت السلطة الافرنسية أن كل عمل خارج عن شروطها المذلة مساً بحسن السلوك والأخلاق، يستوجب سحب رخصة التعليم أو حتى إغلاق أبواب المكاتب ـ بصورة تأديبية ـ. ويستطرد القانون قائلاً: **«وأخيراً فإنه لا يجوز لمكاتب التعليم العربية أن تفتح أبوابها للأولاد الذين هم في سن التعليم أثناء ساعات التعليم في المكتب الافرنسي. وذلك في القرى التي تبعد ثلاثة كيلومترات عن المدرسة الافرنسية»**. وإذن، فقد عرف الاستعمار الإفرنسي بأن تعليم القرآن الكريم في مكاتب الشيوخ، ينافس الثقافة، الافرنسية المفروضة فضمن قانونه ـ الفقرة الأخيرة ـ في محاولة للحد من نشاط التعليم في المسجد والمكتب وحتى يرغم التلاميذ على التوجه إلى مدارسه التي أظهر الأولاد وأهاليهم عزوفاً عن تعليمها الافرنسي وقد رأوا فيه خطراً يهدد دينهم ويضر بأصالتهم.

خطت فرنسا بعد ذلك خطوة أكثر خطورة، وقد اعتقدت أن

الأمور باتت ملك يمينها، فأصدر وزير الداخلية ـ شوتان ـ قراراً رسمياً في ٨ آذار ـ مارس ـ ١٩٣٨ ، يمنع تعليم اللغة العربية في الجزائر، وجاء في هذا القرار: «أن اللغة العربية تعتبر لغة أجنبية».

لقد كان صدور هذا القانون أمراً شديد الغرابة، فهو يعبر بوضوح عن أهداف فرنسا الاستعمارية ضد العرب المسلمين، وصحيح أن هذا الأمر لم يعد مجهولاً أو بحاجة للبرهان والتأكيد، غير أن الأمر الغريب هو اعتبار اللغة العربية أجنبية في الجزائر، مع أن سكان هذه البلاد البالغ تعدادهم في تلك الفترة زهاء عشرة ملايين ـ على أقل تقدير ـ كلهم من العرب، ولغتهم الوحيدة هي اللغة العربية. ولعل فرنسا كانت تعتقد بأن قرار المنع هذا سيحد من نشاط الهيئات الدينية والتنظيمات الإسلامية، غير أن رد الفعل المباشر كان أقوى من قرار المنع، فما كاد يصدر القرار حتى هبت الأحزاب والهيئات الوطنية والتنظيمات الدّينية مطالبة بإلغائه. وتوالت الاحتجاجات الشعبية على الحكومة الافرنسية من داخل البلاد وخارجها. وظلت فرنسا مصرة على تنفيذ قرار المنع، حتى إذا ما اندلعت نار الحرب العالمية الثانية، اضطرت فرنسا مرغمة إلى مسايرة الشعب الجزائري ـ ريثما تنتهي الحرب ـ وتساهلت بعض الشيء في هذا القرار. وعندما وضعت الحرب أوزارها، استأنفت فرنسا وصل ما انقطع من سياستها ، فأصدرت في ٢٢ تموز ـ يوليو ـ ١٩٤٥، قراراً: «يفرض على معلمي المكاتب العربية معرفة اللغة الافرنسية».

من المعروف أن معظم معلمي المدارس الإسلامية هم من

خريجي جامع الزيتونة في تونس وجامعة القيروان في فاس، بالإضافة إلى من يتخرجون من الأزهر، وهذه الجامعات لا تدرس لغة غير لغة القرآن العربية. والأمر الواضح هو أن فرنسا قد أرادت من قرارها هذا إقامة عائق جديد أمام علماء المسلمين وشيوخهم للحد من نشاطاتهم التعليمية. وتجدر الإشارة أيضاً، إلى أن عدد ما أنشأته السلطات الافرنسية من نوع المدارس التي تعلم العربية والافرنسية[1] لم يتجاوز الثلاثة مدارس في الجزائر وتلمسان وقسنطينة، وأن طلبة هذه المدارس يخضعون لشروط استعمارية قاسية، ولا يكادون يكفون لسد حاجة السلك القضائي والترجمة. وعلى الرغم من ذلك، فقد اعتبرت السلطات الاستعمارية في الجزائر، بأن اللغة الافرنسية هي اللغة الرسمية في البلاد. وأخذت في فرضها بالقوة على الشعب الجزائري الذي رأى فيها لغة الظلم والقهر والاضطهاد، ولسان الجور والطغيان. وعلى كل حال، فإن الاستعمار الافرنسي الذي حاول فرض لغته، لم يكن راغباً من وراء ذلك إلى تعليم الشعب الجزائري، ورفع مستواه الثقافي. بل كان هدفه الوحيد هو صهر الجزائريين في البوتقة الافرنسية ، وتبديل أحوالهم الشخصية.

وهذا ما ظهر واضحاً في المقولة التي طرحها المسؤول عن التعليم في الجزائر منذ سنة ١٩٠٨ حين قال: «ليس من الكرم والجود في شيء أن ترغب الجامعة في نشر العلم في القبائل. بل دعونا نقولها كلمة صريحة ونطلقها داوية: إن ذلك في صالح فرنسا

(١) أطلق على هذه المدارس إسم (ECOLES FRANCO-MUSULMANE)

وحدها، وهو ما نضعه دائماً نصب أعيننا، وقد أضفى على تعليمنا طابعاً خاصاً، كما ساعد مدرسينا على اتباع طرقهم ووسائلهم الخاصة. كما أضفى في الوقت نفسه على برامجنا طابعها الراهن. وإنه لمن الأهمية بمكان أن نبث في أذهان الأهالي فكرة رفيعة ونقية عن وطننا، وذلك بتلقين تلاميذنا دروساً عن عظمة فرنسا، وجيشها وثروتها تتناسب وأعمارهم كما تتفق ودرجة ثقافتهم». ويستطرد الكاتب قائلاً: «إن المدرسة الأهلية في شكلها الراهن، وبعملها المزدوج، ليست أداة تجديد فحسب، بل هي على وجه الخصوص أداة سلطة وسلطان. . وسيلة نفوذ وسطوة، وستخلق من رعايانا عضواً مفيداً جداً، وساعداً مخلصاً لفرنسا» وكان هذا المسؤول ـ المسيو برنار ـ يرد بذلك على المنادين بسياسة التجهيل في الجزائر القائلين بهذا الرأي: «**لما كان تعليم الوطنيين يؤدي بالجزائر إلى خطر محقق سواء من الناحية الاقتصادية، أم من ناحية التعمير الافرنسي، فإن الرغبة تميل إلى إلغاء التعليم الإبتدائي**».

وهكذا انقسم المستعمرون إلى قسمين: قسم يرغب في عدم تثقيف الجزائريين حتى لا ينافسوهم في الوظائف والأعمال الحرة، وحتى يظل الأوروبيون هم المسيطرون سيطرة تامة على مرافق البلاد الحيوية. ومن هؤلاء ـ بيير مورلان ـ الذي قال في الأطروحة التي حصل بها على درجة الدكتوراه ما يلي: «**يجب ألا ننظر إلى المواطن الجزائري وكأنه ذو عقل شبيه بعقلنا، وإذا فكرنا في أن التعليم يستطيع أن يغيره تغييراً كاملاً، فاننا نخالف بذلك بل نتجاهل قانون التطور الثابت**».

ولعل «بيير مورلان» وأمثاله ممن يحملون مثل هذا الرأي، من دهاقنة الاستعمار ومفكريه هم جميعاً من الذين يتعارضون مع «قانون التطور الثابت» على الرغم من الشهادات العلمية التي منحت لهم لتغطية فقرهم العقلي. ذلك بدلالة أن هذه التغطية لم تتمكن من إخفاء حرمانهم من العاطفة الإنسانية والفكر المتحرر. ولذا قد يكون من الصعب اعتبار أي استعماري «وكأنه ذو عقل شبيه بعقل الإنسان الجزائري المسلم».

أما القسم الثاني فإنه لا يرى مانعاً من تعليم الجزائريين، شريطة ألا يكون هذا التعليم خاضعاً لنظام خاص يؤدي في النهاية إلى تغيير الأحوال الشخصية. غير أن السلطات الافرنسية طبقت الحلول المناسبة التي تضمن عدم تشجيع التعليم بين الجزائريين تشجيعاً كاملاً. بينما تمسكت بأهداف القسم الثاني وعملت على ضوئه. وأصبحت الثقافة الافرنسية نتيجة لسياسة الحكومة تكاد تكون معدومة بين الأهالي الجزائريين، في حين أنها تزداد ازدهاراً وانتشاراً بين الأوروبيين المستوطنين. ومن المعروف أن هنالك مليونين من الأولاد في سن الدراسة قد أوصدت في وجوههم أبواب العلم والمعرفة وشردتهم فرنسا في الشوارع. ولم يتجاوز عدد الطلاب الذين ضمتهم المدارس- في الفترة التي سبقت قيام الثورة سنة ١٩٥٤ ـ مائتي الف تلميذ فقط. وقد يكون ذلك وحده كافياً للتأكيد على نجاح فرنسا في تحقيق أهداف (تربيتها الحضارية).

٤ ـ الفَرْنَسَة والتنصير ونتائجهما

ما إن أحكمت فرنسا قبضتها على الجزائر، وفرضت وجودها الاستعماري بالحديد والنار، حتى أخذت في دعم هذا الوجود ـ بحسب ظنها ـ عن طريق تطبيق مجموعة من الأنظمة والقوانين لفرنسة الجزائر وتنصير سكانها، وكانت المقولة التي تعبر عن هذا التفكير السقيم هي: «أن جبال الأطلس هي جبال الألب، وأن (نهر الشلق)[1] هو نهر السين. وأن الصحراء هي المروج، وأن اللغة العربية هي الافرنسية، وأن الاسلام هو المسيحية، وأفريقيا هي أوروبا».

من المعروف أن بريطانيا قد استعمرت بلاداً عديدة، من بينها الولايات المتحدة الأمريكية والهند، كما عملت إسبانيا على استعمار دول أمريكا اللاتينية ـ أمريكا الجنوبية ـ وعلى الرغم من الروابط الروحية واللغوية وروابط الدم التي كانت تربط بريطانيا

(١) نهر الشلق: أكبر أنهار الجزائر، يبلغ طوله سبعمائة كيلومتر، ينبع من جبال عمور في الأطلس الصحراوي، ويصب شمالاً في البحر المتوسط.

وأمريكا بعراها الوثيقة، فإن بريطانيا لم تزعم أبداً بأن الولايات المتحدة هي بريطانيا، كما لم تزعم اسبانيا بأن الأرجنتين أو المكسيك أو الشيلي هي أقطار اسبانية. غير أن الحماقة الإفرنسية صورت لرجال إدارتها ودهاقنة ساستها بأن احتلالها للجزائر، وما أعدته من مخططات في حملتها الصليبية ضد الإسلام والمسلمين، سيتيح لها فرصة إزالة الوجود العربي - الإسلامي من جزائر المسلمين وضمها الى (الوطن الأم) فرنسا. وهكذا أصدرت منذ ٢٢ تموز - يوليو - سنة ١٨٣٤، أمراً بتحويل الجزائر من أرض محتلة الى (ملكية فرنسية) ناقضة بذلك كل القوانين والأعراف الدولية، ومتجاهلة لكل الحقائق التاريخية، ومتنكرة لكل حقوق الأفراد والجماعات.

مضت فرنسا قدماً في تنفيذ سياستها، فأصدرت مرسوماً في ٤ آذار - مارس - ١٨٤٨ يقضي بتشكيل (مجلس الأعيان)[١] باعتبار أن «الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا».

وبعد ذلك وفي سنة ١٨٧٠، أعلنت فرنسا بأن الجزائر تتألف من ثلاث مقاطعات إفرنسية. (ولايات أو عمالات قسنطينة والجزائر ووهران) وأتبعت ذلك غداة الحرب العالمية الثانية بإصدار أمر في ٧ آذار - مارس - ١٩٤٤، يعلن: (أن المسلمين الجزائريين أصبحوا فرنسيين. وأعلن قانون ٧ أيار - مايو - ١٩٤٦ أيضاً: (بأن جميع الجزائريين هم مواطنون فرنسيون).

---

(١) ديوان الأعيان: (Senatus- Consulte)

وعندما وضع الدستور الافرنسي في ٢٧ تشرين الأول ـ أكتوبر ـ ١٩٤٦، أعلن: «أن الجمعية الوطنية لها وحدها حق إصدار القوانين، ولا يمكن لها منح هذا الحق لغيرها. . . وأن النظام التشريعي لمقاطعات ما وراء البحار ـ هو ذاته نظام الوطن الإفرنسي، إلا ما استثناه القانون» وفي ٢٠ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩٤٧ صدر قانون باسم (النظام الأساسي للجزائر) وهو بمثابة دستور خاص بها يحتوي على ستين مادة، وقد جاء في أهم مواد اللائحة الأولى:

أولا: تتكون الجزائر من مجموعة من المقاطعات لها ذاتيتها المدنية وذاتيتها المالية ونظامها الخاص المنصوص عليها في مواد هذا القانون.

ثانيا: تكفل القوانين المساواة التامة بين جميع المواطنين الافرنسيين في المقاطعات الجزائرية الثلاثة، دون تمييز في الأصل والجنس واللغة والدين.

خامسا: يمثل الحاكم العام حكومة الجمهورية الافرنسية في الجزائر.

سادسا: يتم إنشاء مجلس جزائري يخول إدارة المصالح الجزائرية بالاتفاق مع الحاكم العام، وقد حددت صلاحيات هذا المجلس، ببحث النظام التشريعي والاقتصادي في الجزائر وتنظيم أعمال الادارة.

إن إصدار هذا المرسوم هو في حد ذاته برهان حاسم على

التناقض القائم بين مقولة «الجزائر الافرنسية ـ نظرياً» و «الجزائر المستقلة ـ إدارياً ومالياً واقتصادياً من الناحية العملية». ويدحض بما لا يدع مجالاً للشك ما كانت تطرحه فرنسا طوال قرن وربع القرن، من أن «الجزائر جزء مكمل لفرنسا ومتمم لها». ويعود سبب هذا التناقض الفاضح لعاملين أساسيين أولهما: رفض مسلمي الجزائر رفضاً قاطعاً لكل سياسة تدمجهم بفرنسا وتقضي على شخصيتهم الأصيلة. وثانيهما: رفض المستوطنين ـ الكولون ـ لكل سياسة تساوي بينهم وبين مسلمي الجزائر في الحقوق والواجبات.

لقد زعمت فرنسا بأن الجزائر هي مقاطعة، مثلها كمثل مقاطعتي «بريتانيا» و «نورماندي» بالنسبة لفرنسا، غير أن الواقع يدحض مثل هذا الزعم. فبريتانيا ونورماندي وسواهما من المقاطعات الافرنسية تحكم وتدار بموجب دستور فرنسا وقوانينها. في حين وضع للجزائر دستورها الخاص بها، والذي ينص على إدارة الحكم في الجزائر من قبل «حاكم عام» و «جمعية جزائرية». في حين يوجد على رأس كل مقاطعة فرنسية «محافظاً» ـ بريفيه ـ ويعود هذا المحافظ في شؤونه الى وزارة الداخلية الافرنسية، أما الحكام في ولايات الجزائر الثلاثة (العمالات) فإنهم يعودون في شؤونهم الى الحاكم العام، الذي يتبع بدوره لوزارة الداخلية الافرنسية ـ قسم الشؤون الخارجية ـ . وينص الدستور الجزائري الخاص على إيجاد مجمعين انتخابيين في الجزائر:

المجمع الأول: وهو المفضل والحاكم بأمره في الجزائر

ويشمل الأوروبيين واليهود.

المجمع الثاني: وهو الخدم - في نظر المستعمرين - ويشمل شعب الجزائر المسلم.

ولا وجود لمثل هذا النظام في المقاطعات الافرنسية (بريتانيا ونورماندي وسواهما) إذ أن الدستور الافرنسي قد نص على مساواة جميع المواطنين في الحقوق والواجبات. وحتى المادة الثانية من دستور الجزائر الخاص تمنح مثل هذه المساواة. غير أن المادة (٣١) منه تناقضها تماماً، حيث تنص صراحة على التمييز بين الأوروبيين الاستعماريين - الكولون - وجماهير الشعب المسلمين - أنديجين - . وعلى الرغم من نص المادة الخمسين من «الدستور الجزائري الخاص» القاضي بإزالة نظام الحدود الجنوبية المعروفة «بالتراب العسكري» فإن نظام هذا التراب استمر قائماً على الحكم العسكري الفردي - دكتاتوري - للضابط فيه حق فرض الطاعة بالقوة. وذلك طوال الفترة من بداية الاحتلال حتى قيام ثورة التحرير سنة١٩٥٤.

نصت المادة ٥٣ من «دستور الجزائر الخاص» على أن «المجموعات المحلية هي البلديات والمقاطعات، وبناء عليه فإن البلديات المشتركة قد ألغيت. . . وسيتم تطبيق هذا النص على مراحل بموجب قرارات تتخذها الجمعية الجزائرية» ومعروف أنه لا توجد في فرنسا أنظمة عسكرية أو «بلديات مشتركة»[1] فلماذا

---

(١) بلديات مشتركة - ترجمة: (Commune- Mixte)

فرضت هذه الأنظمة على الجزائر وحدها إن كانت مساوية للأقاليم الإفرنسية؟ . . . ثم كيف تتحقق مثل هذه المساواة بين المستوطنين الأوروبيين (الكولون)[1] وبين ابناء البلاد من مسلمي الجزائر في نظام المجالس والمجموعات الجزائرية، وقد انتقص ممثلي المسلمين إلى الخمسين من مجموع العدد الصحيح لهم، في حين كان عددهم الحقيقي يزيد عشر مرات على عدد اللاجئين الأوروبيين (الكولون).

ولقد أقيمت على الحدود في كل من الجزائر وفرنسا هيئات جمركية، وتولى مصرف جزائري إصدار عملة جزائرية غير متداولة في فرنسا ـ بالرغم من ارتباطها بالفرنك الإفرنسي ـ ووضع في الجزائر نظام خاص بالمرتبات والأمن الجماعي يخالف تماماً النظام السائد في فرنسا. فإذا كانت الجزائر هي بريتانيا والنورماندي فلماذا يتم وضع نظام جمركي خاص بالجزائر، وهل بين بريتانيا وباريس جمارك؟ وهل النقود المتداولة في النورماندي مغايرة للنقود المتداولة في مقاطعة البيرينة؟ وطالما أن الأمر كذلك، فلماذا تصر السياسة الافرنسية، وهي تمعن في ضلالها وتضليلها، على أن الجزائر فرنسية؟.

لقد وضعت فرنسا نفسها أمام مأزق حقيقي بمزاعمها أن (الجزائر فرنسية) إذ بات أمامها واحد من مخرجين لا ثالث لهما: فإما أن تبقي على نظام الإدارة الاستعمارية الذي استمر قائماً حتى

---

(١) الكولون (Colon) اصطلاح قصد به مجموع الأوروبيين الاستعماريين وتنظيماتهم وأجهزتهم.

قيام الثورة التحريرية، وتكون بذلك قد اعترفت ضمناً بوجود وضع مميز وشخصية مستقلة للجزائر. وإما أن تعمل على دمج الجزائر عملياً بفرنسا، فتقتلع النظام الاستعماري من جذوره وتساوي بين فرنسي (المتروبول) وبين الجزائريين المسلمين. بحيث يكون القانون المطبق في فرنسا هو ذاته المعمول به في الجزائر، وبهذا أيضاً يتقلص ظل الاستعمار عن الجزائر، ويمسك الجزائريون البالغ عددهم عشرة ملايين نسمة بزمام الحكم في بلادهم.

ولم يكن باستطاعة فرنسا الاستعمارية اللجوء الى أحد من المخرجين لأنها ستخسر ما اعتبرت أنه من حقها ـ بحكم التقادم الاستعماري ـ. هذا بالإضافة إلى أن «فرنسة الجزائر فرنسة حقيقية وعملية» كان لا بد وأن تصطدم برغبات المستوطنين ـ الكولون ـ الذين كانوا يستأثرون بملكية الأراضي الخصبة والمغتصبة، والذين كانوا يعملون باستمرار حتى يبقى الجزائريون خدماً لديهم وعمالاً في مزارعهم، يتقاضون أجوراً زهيدة لا تكاد تكفي لتأمين أبسط المتطلبات الحياتية. ويصرون على عدم مساواة الجزائري بالأوروبي حتى لا يطالب بحقه الإنساني المشروع.

وقاوم الأوروبيون المستوطنون في الجزائر ـ الكولون ـ دمج الجزائر دمجاً عملياً بفرنسا، لأن الجزائريين يشكلون الغالبية العظمى والأكثرية الساحقة في الجزائر، بينما لم يتجاوز عدد الأوروبيين المستوطنين في الجزائر حتى قيام ثورتها في الخمسينات مليون نسمة. فإذا ما طبق قانون المساواة تطبيقاً صحيحاً يصبح للجزائريين تسعة أعشار الحكم في بلادهم وخمس

الحكم في فرنسا. وكانت فرنسا تخاف من إطلاق يد الجزائريين في إدارة المصالح والمؤسسات الجزائرية حتى لا يؤدي ذلك إلى ظهور احتمال قيام الجزائريين بحركة مباغتة تعلن فيها انفصالها عن «الوطن الأم» وتستقل بأمورها، مستندة في ذلك إلى كل الحجج القانونية والوطنية والدينية.

وبعد ذلك، ومع افتراض قبول فرنسا مكرهة على هذا الحل، فإن الجزائريين لم يكونوا على استعداد لقبوله. وقد تجمعت كل الشواهد لتؤكد حقيقة واحدة وهي رفض كل حل يؤدي الى إجراء تبديل في اصالتهم القومية وعقيدتهم الدينية. وهكذا بقي النظام السائد في الجزائر ـ حتى قيام ثورتها ـ هو النظام المعروف (بنظام التوسع الاستعماري والامتيازات الاستعمارية). وهو النظام الذي لم يعرف فيه أبناء الجزائر المسلمون إلا السلب لممتلكاتهم والنهب لاموالهم والانتهاك لحرماتهم والنيل من مقدساتهم. وقد وصف النظام الاستعماري في الجزائر، حتى قيام ثورتها، : «بأنه نظام استعماري فوضوي قائم على التمييز العنصري والتفرقة الدينية وقوة القهر التي أغرقت المسلمين في حمامات الدم» كما حدد مفهوم حكم الافرنسيين للجزائر بالمقولة، التي طرحها الإفرنسيون ذاتهم وتضمنت ما يلي:

«نحن الافرنسيين مقيمون في ديارنا بالجزائر، لقد أصبحنا سادة هذه البلاد بالقوة، لأن الغزو لا يتحقق إلا بالقوة التي تفرض وجود طرفين غالب ومغلوب. وقد أمكن تنظيم البلاد عندما تم قهر المغلوبين. وهذا التنظيم يفرض مرة أخرى فكرة تفوق الغالب على المغلوب، وتفوق الانسان المتحضر على الانسان

المتخلف، فنحن إذن أصحاب البلاد الشرعيين»[1] وطالما أن منطق الحكم هو منطق القوة فقد ظهر بوضوح أنه ليس هناك خيار حتمي غير خيار واحد هو الاحتكام إلى السلاح، وقد بات هذا الخيار ينضج على نار هادئة حتى تفجر في النهاية ليغرق البلاد ومستعمريـهافي حمامات الدم ومستنقع الوحل. وعند هذه النقطة يمكن العودة الى تلك النار الهادئة التي ألهبت الحريق، والتي أوقد فتيلها الافرنسيون ذاتهم من خلال سياسة التنصير.

ومن المعروف، أن في جملة الدوافع الظاهرة التي حدت بفرنسا «ابنة الكنيسة الكاثوليكية المفضلة» إلى احتلال الجزائر، رغبتها الملحة في القضاء على الدين الإسلامي الذي ادخرت له كل حقد دفين منذ هزائمها المنكرة أيام الحروب الصليبية القديمة في المشرق (حملة لويس التاسع ـ أو القديس لويس على مصر).

وعلى الرغم من أن معاهدة تسليم العاصمة التي أبرمها القائد الافرنسي ـ دوبومون ـ مع «الداي حسين» تقضي بحرية الشريعة الاسلامية واحترامها، وضمان حرية الأهالي واملاكهم وتجارتهم، إلا ان «دو بومون» نفسه لم يلبث أن نكث العهد بعد مضي شهرين فقط على إبرام الاتفاقية، وأصدر أمراً يوم ٨ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٨٣٠ يقضي بالاستيلاء على الأوقاف الاسلامية. والاستيلاء على الأوقاف إنما يعني الاستيلاء على الدين، لأن المساجد والشؤون الدينية الأخرى وما يترتب لها من خدمات تمول كلها من الأوقاف.

---

(١) مجلة (أفريقيا اللاتينية) أيار ـ مايو ـ سنة ١٩٢٢.

والحكمة في الأوقاف هي عدم رضوخ الدين لأية سلطة مدنية أو عسكرية، وتعني الأوقاف أيضا استقلالية الدين وحرية عمله بعيدا عن كل نفوذ دنيوي. وقد أحدث صدور هذا الأمر رد فعل عنيف لدى المسلمين، استوعبه قائد الغزو بالقوة وأصدر أمرا ثانيا في ٧ كانون الأول ـ ديسمبر ١٨٣٠، كفل لنفسه: «حق التصرف في الأملاك الدينية بالتأجير أو الكراء».

وبهذا تم وضع يد الاستعمار الإفرنسي على الدين الإسلامي في الجزائر. وأصبحت فرنسا المسيحية تتصرف على هواها في شؤون مساجد المسلمين وقضائهم وتعليمهم، فلا تعين مفتياً أو إماماً أو مؤذناً أو حتى خادماً إلا إذا أظهر استعداده للتجسس على إخوانه المسلمين. وإلا إذا كان أطوع من بنان الاستعمار في تلبية مشيئته، حتى ولو أدت هذه المشيئة الى الكفر بالدين الإسلامي. ولقد وصف مدير إفرنسي لمكتب الشؤون الإسلامية في الجزائر ما فعله الاستعمار الإفرنسي بالدين الاسلامي، فقال: «لقد أذللنا الدين الاسلامي. وبلغ الأمر أن لا يعين إمام أو فقيه إلا إذا شارك في أعمال الجاسوسية الافرنسية. ثم عليه كي يرتقي في الدرجة أن يثبت قدرا كبيرا من الحماسة والاخلاص للادارة الافرنسية».

وعلى الرغم من أن قانون سنة ١٩٠٥ قد نص على (فصل الدين عن الدولة)، وطلب العمل به في الجزائر بموجب مرسوم ٢٧ ايلول ـ سبتمبر ـ ١٩٠٧، فإن هذا القانون طبق على جميع الأديان، ما عدا الدين الإسلامي الذي ظل (مؤمماً) طوال ليل الاستعمار.

لقد زعموا أنهم بذلك يستطيعون إذلال الإسلام من خلال إذلال المسلمين، وجهلوا بأن الإسلام لا يذل لأنه شريعة الله، وجهلوا أيضاً أن إذلالهم للمسلمين هو محنة أو بلاء في عقيدة المسلم لا بد له من تجاوزه، وقد تجاوزه فعلاً وانتصر على أعداء الإسلام والمسلمين.

٥ ـ الانهيار الكبير

استمرت فرنسا في محاولاتها الرامية إلى «تنصير المغرب العربي ـ الإسلامي ـ عامة» والجزائر منه بصورة خاصة. ولم تلبث حين احتلت الصحراء، أن وجهت إليها إرساليات عديدة من (الآباء البيض) معتقدة أن هذه المناطق ستكون تربة خصبة لبذورهم. وبثت «الإرساليات التبشيرية» الأخرى في كل مدينة وقرية.

غير أن هذه الجهود المكثفة اصطدمت بالعوائق المستمرة والعقبات المتتالية. وبرز احتمال فشل كل الجهود المبذولة مما أفزع المسؤولين عن «سياسة التنصير» والداعين لها. فبادرت السلطات الافرنسية إلى إغلاق ما تبقى من المدارس ـ المكاتب ـ الدينية، وألقت بشيوخها في غياهب السجون والمعتقلات بحجة أنهم لا يحملون إجازات ـ تراخيص ـ رسمية من الدولة، تتيح لهم حق ممارسة التعليم. وراحت تحشو خطب أئمة المساجد ـ التابعين لها ـ بعبارات تنتقص من قيمة الدين الإسلامي وتنفر المسلمين منه.

وأدرك المسلمون في الجزائر خطورة هذه الهجمة، فقاطعوا المساجد ـ الافرنسية ـ التي ارتضى خطباؤها لأنفسهم ذل الخضوع لسلطان القوة. وراح كل فقيه وشيخ يجمع الطلبة في بيته، ويلقنهم مبادىء دينهم. وذعرت السلطة الاستعمارية لهذا الصمود، فراحت تزيد من اضطهادها للفقهاء والعلماء، ومضى هؤلاء لإظهار المزيد من الصمود، وعادت مساجد الأرياف خاصة لممارسة دورها وقد تحولت إلى ملاذ يلجأ إليه العلماء والطلبة المضطهدون، فراراً من قبضة السلطة القوية في المدن.

احتفظت هذه الجوامع بنظامها الذي يشبه إلى حد بعيد أنظمة المدارس الداخلية. فالطالب يتعلم ويأكل وينام فيها، على نفقة الأبرار الأخيار، أو أهل القرية التي يقع فيها هذا المسجد ـ الجامع ـ. أما طلبة المكاتب القرآنية الغرباء، الموجودون في المدن، فإنهم يعتمدون في أمر معيشتهم على الصدقة والاستجداء، بعد أن منعت الإدارة الافرنسية عنهم موارد الأوقاف، وبعد أن مضت لمحاربتهم بكل الوسائل. ولم يجد الطلبة في اللجوء إلى الاستجداء غضاضة طالما أن هدفهم النبيل، وهو تعلم العلم وتعليمه قد فرض عليهم أقسى أنواع الحرمان. وبات من الأمور العادية أن يطرق أسماع أبناء المدن الجزائرية ـ عند الظهيرة وفي المساء ـ صوت يأتيهم من الخارج وهو ينادي، «الموجود لله» فيعرفون أنه صوت الطالب القرآني الذي يعاني الفقر والعوز، ويقاوم البرد والجوع، في سبيل المحافظة على وجوده الإسلامي.

وقد لا يكون بعض أبناء المدن ـ أو معظمهم في تلك الحقبة،

أحسن حالاً من طالب القرآن، غير أنهم لا يترددون في الإسراع إليه ومشاركته جهده وجهاده. وتجدر الإشارة هنا إلى ما عرف عن الجزائريين عموماً من رغبة كبرى في تعلم القرآن وحفظه حفظاً غيابياً ـ عن ظهر قلب ـ حتى أن نسبة حفظة القرآن في الجزائر ترتفع بين الذكور الى نسبة ٤٠ بالمائة. ويرجع الفضل في الإبقاء على جذوة الإسلام متقدة في الجزائر بالرغم من كل أساليب القمع والقهر إلى حملة الكتاب والمدافعين عن الإسلام من الفقهاء والعلماء الذين تصدوا بإيمان لا يتزعزع لصراع الاستعمار ومبشريه. فحافظوا بذلك على أصالتهم الإسلامية وحضارتهم العربية ودينهم الحنيف، في وقت حجز فيه الاستعمار جميع المصاحف، وأخلى البلاد والمكاتب منها، وأغلق المدارس والجوامع. وقذف بمبشريه الى معركة التنصير.

وأسفرت هذه المعركة عن هزيمة الاستعمار ومبشريه ودعاته، وخرج حفاظ كتاب الله وهم أعزة بنصرهم، لقد نصروا الله فنصرهم وصدق الله وعده ونصر جنده. غير أن فشل الاستعمار في تطبيق سياسة التنصير لم يدفعه الى اليأس، فمضى دهاقنته ومفكروه لاستخدام وسائل تبادلية: فإذا ما فشلت أساليب الهجوم المباشر، فلماذا لا يتم استخدام أساليب الهجوم غير المباشر؟ وإذا لم ينجح دعاة التبشير في إقناع المسلمين بتبديل دينهم، فلا أقل من صرفهم عن إسلامهم، والعمل على تشويه الإسلام ذاته بالخرافات والبدع.

وهكذا جندت فرنسا أجهزتها لبث التعاليم الدينية ـ المبتكرة ـ بواسطة أعوان لها ضعاف الأنفس والإيمان من الائمة ورجال

الإفتاء والقضاة، وأصحاب الطرق الدينية خاصة ممن استحوذت عليهم شهوة الدنيا، واشترى الاستعمار عقولهم بالمال والألقاب، هادفاً من وراء ذلك إلى النيل من سمعة الشريعة الإسلامية، وكان أول عمل قام به الاستعمار هو إرغام القضاة على عقد جلسات المحاكم الإسلامية في الأسواق العامة وعلى رصيف الشارع وفي المقاهي القذرة. وأخذت تختلق الخرافات والأساطير وتنسبها إلى العلماء والأولياء الصالحين. وشجعت على إقامة الولائم العامة وحفلات الزار (الوعادي) التي أصبحت فيما بعد مراكز خطيرة لنشر دعاية الإستعمار الإلحادية، المتسترة بستار العلمانية ـ وبلغت إهانة فرنسا للدين الإسلامي حدها حين أنشأت الإدارة الاستعمارية «لجاناً استشارية للشعائر الدينية في كل مقاطعة، يرأسها دائماً أوروبي، ويكون أحدأعضائها ممثلاً للشرطة».

* * *

وفي إطار الهجوم غير المباشر، تبنت الكنيسة ـ طوعاً أو كرهاً ـ أساليب العمل لتشويه الإسلام، يدعمها في ذلك حكم عسكري صارم. ومن القصص الشهيرة في هذا المجال ما تم اكتشافه أثناء الثورة الجزائرية التحريرية ـ سنة ١٩٥٤ ـ في بعض المناطق الشرقية، حيث ظهر أن بعض الأضرحة التي يؤمها الشعب ويتبرك بأعتابها لم تكن إلا قبوراً لرهبان مسيحيين. ولم يصدق الشعب للوهلة الأولى ما يراه حتى وقعت أنظاره على (الصليب في القبر). وبذلك قطع اليقين حبال الشك[١].

---

(١) عن صفحات من الجزائر ـ الدكتور صالح خرفي ـ ص ٣٢٤.

وفي إطار الهجوم غير المباشر على فضائل المسلمين، اتبعت فرنسا كل الأساليب التي توافرت (في حضارتها) من إشاعة للمحرمات، وتعميم للفواحش، وتشجيع على المنكرات، ويدخل في ذلك تشجيع السرقة والإجرام من أجل قتل الروح المعنوية لدى الشباب المسلم، ونشر الفساد والفوضى في أوساط الجزائريين حتى تضمحل القيم الفاضلة، وينصرفوا عن قضاياهم الأساسية إلى الأمور التافهة المهينة. وكان القضاء الإفرنسي يمارس دوره في دعم هذا الهجوم استناداً إلى قوانين تفرضها مصلحة السياسة الاستعمارية، ولهذا فإنها لم تكن لتمتنع عن إصدار حكم جائر ضد مواطن جزائري يجاهر بأرائه الوطنية، وحكمه بالسجن من خمس سنوات إلى السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة، في حين تحكم هذه المحاكم على مجرم قاتل (شريطة أن يكون القاتل والمقتول جزائريين) بالسجن من ستة أشهر إلى خمس سنوات. هذا إذا لم يكن رجال الشرطة قد أطلقوا سراحه قبل تقديمه للمحاكمة حتى يمعن في إرتكاب المزيد من الجرائم. وما يقال في الجرائم والسرقات يقال عن الفجور والرذيلة، وسجل مثل هذه الأعمال حافل يندى له «جبين الحضارة».

* * *

وبعد، قد يكون من تجاوز الحقيقة القول: «بأن مخططات الاستعمار قد فشلت تماماً، وأنها لم تحقق بعضاً من اهدافها». فلقد استطاعت هذه المخططات إفساد فئة على الأقل، وجعلت منها أداة في قبضة الاستعمار. كما استطاعت الوصول بفئة ثانية

إلى مرحلة اليأس القاتل. وقد أبرز شيخ من شيوخ المجاهدين، بعض ملامح المجتمع الجزائري في سنة ١٨٣٠ ـ وبعد مضي قرن من الزمن على استعمار الجزائر ـ كما عرض بعض ما وصل اليه حال المجاهدين وقد بذلوا كل ما يستطيعون ـ وأكثر مما يستطيعون ـ في مجابهتهم للقهر الاستعماري، حتى انتهى أمرهم إلى اليأس والقنوط. ويقول هذا الشيخ وهو يصف انطباعه عن الجزائر يوم وصلها (سنة ١٩٢٥)[١] ما يلي:

أ ـ «**تلك كانت حياة الجزائر سنة ١٩٢٥**: الخير والرزق والكسب والحكم والسلطان للأوروبي مهما كان جنسه، ومهما كان عمله. والبؤس والشقاء والحرمان والمرض والجهل والجوع والمهانة والعدم للجزائري المسلم الذي سلب منه كل شيء، حتى القدر الأدنى من الكرامة ـ واغتصب منه كل شيء حتى الشبر الأخير من أرضه المنتجة. وحرم من كل شيء، حتى مقعد المدرسة للصبي، ولقمة الخبز للجائع، وزجاجة الدواء للمحتضر. وأكاد أقول: والقبر لمن أنجاه الله بالموت من محن الحياة.. وكنا نجلس ـ أحياناً ـ حول مائدة مقهى، ويلتف حولنا جمع من شبان الوسط المترف، أما شرابهم فكان كحول ـ الأنيزيت ـ وكانوا يتغالون في كمية ما يشربون من كحول إلى حد الإسراف، يصلون به إلى درجة الإسفاف. ولا حديث لهم إلا عن أنواع السيارات وما ظهر منها، وما فقد صيته وسمعته. فهذا يريد أن يستبدل الستروان بالفورد، وذلك يبيع البيجو ويشتري مكانها

---

(١) حياة كفاح ـ مذكرات ـ أحمد توفيق المدني ٢ / ٣٠ و ٣١ و ٤٨ ـ ٥٧.

الفيات، حتى إذا لم تبق في كنانة الحديث أية حثالة من ذكر السيارات لووا العنان إلى حديث الغانيات، هذا يقص نبأ ليلة قضاها مع «هيلينا» وذلك يذكر قطيعته مع «جوليات» الخ. . .

ولم يكن رجال هذه الطبقة من المترفين بأسعد حالاً من شبابها. . كانوا يجتمعون حلقة كبيرة يتجاوز عددها أحياناً العشرين رجلاً في مقهى أوروبي يسمى «الفروبير» يقع بين حديقة السكوار وساحة الحكومة (حديقة بور سعيد وساحة الشهداء اليوم) ثم تنهال عليهم كؤوس الكحول الخالصة من شراب ـ الأنيزيت ـ يتلو عامرها ما فرغ منها، بين أحاديث بسيطة سامجة، عن سفرة فلان، ومائدة فلان، وزواج فلان، وخصومة فلان مع فلان، حتى إذا امتلأ الرأس كحولاً، وارتخت الأعصاب، وتهاوت الأهداب، قام كل واحد منهم إلى سيارته الفاخرة، يمتطيها ولا يكاد يقوى على تسييرها. وأم بيته، حيث تنتظره السيدة الفاضلة التقية النقية بطعام العشاء. ويا لعظيم الفرق بين سيدات تلك الطبقة ورجالها. أما الرجال والشبان، فكما رأيت، وأكثر مما رأيت، وأما السيدات، ولم يختلطن بمستعمر، ولم يعرفن أجنبياً، ولم يترددن على مدرسة فرنسية، ولم يدخل العبث والرجس بيوتهن، فكن من أطهر وأجل ما يستطيع الإنسان ذكره عن سيدة كاملة، مسلمة عربية تقية طاهرة ورعة. حفظت من جزائر الأجداد دينها وإيمانها وعروبتها وعزتها وشرفها. وورثت عنها ابنتها تلك التقاليد وتلك الأخلاق. أما الرجال والشبان فقد جرفهم التيار الأوروبي الجامح، وتلقوا في المدارس شر ما يتلقاه شاب في مدرسة: لا دين ولا شرف ولا أخلاق ولا وطنية، قشور

من العلم ضمن منهاج استعماري خبيث: أجدادنا هم الغول ـ أو الغال ـ (سكان فرنسا الأقدمون). الرومان هذبونا ومدنونا، أكبر رجالنا نابليون بونابرت، قديستنا القومية جان دارك الخ. . . أبمثل هذا الشاب ـ وحاشا ثلة قليلة منه ـ هو الذي يرجى منه للجزائر خير؟ أهذا هو الذي يمكن أن يعمل من أجل نفض غبار الموت عن أمته وقومه وينفخ فيهم روح الحياة اليقظة، والاستعداد ليوم عظيم؟ . . .

لقد كانت الجزائر في مجموعها ساخطة على فرنسا، ناقمة على أعمالها، ذاكرة فظائعها وآثامها، سواء في ذلك الخاصة المثرية أو الدهماء المملقة، ولا ترضى الجزائر ـ والله ـ إلا بأمر واحد هو استقلالها بأمور نفسها وتخلصها من ربقة الاستعمار القتال. . . ولكن من هو الذي يتقدم لهذا العمل؟ ومن هو الذي يستطيع في الحالة الحاضرة أن يصرخ هذه الصرخة؟ ومن هو الذي يستجيب لها بعد كل ما حدث؟ . . .».

* * *

ب ـ أحمد بن عليوة والرحمانية

كانت الطريقة «الرحمانية» على ما هو معروف من أكبر الحركات الدينية في الجزائر، وقد تصدى «الإخوان الرحمانيون» لمقاومة الاستعمار الافرنسي بضراوة، وقدموا تضحيات جسيمة في الثورات المتتالية والتي كان من أبرزها ثورة سنة ١٨٧١ برئاسة المقراني والشيخ الحداد. غير أن فرنسا استطاعت تدمير هذه الحركة الدينية من الداخل، وصرفها عن أهدافها، وتنصيب من يضطلع بتشويه الدين عن طريق ضعاف النفوس من أمثال «الشيخ

أحمد بن عليوه»الذي تحدث عنه وعن طريقته الشيخ المجاهد «أحمد توفيق المدني» بما يلي:

قال لي الأخ محمد رضا الأكحل ـ وكنا في أواخر شهر تموز ـ يوليو ـ سنة ١٩٢٥ ـ : لنا اليوم سهرة حافلة بمقبرة سيدي محمد بن عبد الرحمن، فلنستعد لها مبكرين حتى نكون في الصفوف الأولى. لم أفهم إطلاقاً. سيدي محمد مقبرة كبيرة وشهيرة بعاصمة الجزائر تعادل في أهميتها وفي قيمتها وفي علو كعب من دفن بها مقبرة الزلاج التونسية، وهي ذات أقسام ثلاثة: المسجد والضريح، وساحة الضريح الفسيحة، وقبورها مسواة مع الأرض، ثم القسم الخلفي وقبوره عاليه بارزة، فكيف تكون حفلة ساهرة فوق الأجداث؟ قال لي مؤكداً أنها حفلة سنوية يقوم بها رجال الطريقة الرحمانية الذين يأتون في ركب عظيم من مدينة قسنطينة لزيارة شيخهم صاحب الطريقة. تقززت أولاً، هذه من أعظم البدع... ويجب أن أرى ذلك رأي العين...

وجاء الليل وذهبنا جماعة إلى المقبرة، فإذا بالساحة الفسيحة الموجودة أمام الضريح وقد أصبحت أشبه شيء ببهو فخم لقصر ثري، وقد فرشت أرضها بالبسط الثمينة، والزرابي المبثوثة، والمنابذ الصوفية الفارهة. وجلسنا، واستمر توارد القوم من حي «بلكور» ومن العاصمة وما يحيط بها، حتى لم يبق من مكان تطأه رجل إنسان.

وبعد صلاة العشاء، التأمت حلقة الذكر، وأخذ «الفقراء» يترنمون بأصوات هي إلى البشاعة أقرب منها إلى الرخامة. وطال

ذلك نحو الساعة. فبعض تلك الأناشيد والاذكار كان مستقيم المعنى صحيح المبنى، فيه الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وفيه الموعظة والذكرى، **أما بعضها الآخر ففيه إشارات واضحة الى مذهب «وحدة الوجود» يترنم بها القوم ولا يفهمون لها معنى، وخرجت من هناك آسفاً حزيناً وأنا أتساءل: كيف تمكن أحمد بن عليوه المستغانمي من إنشاء طريقة صوفية وهو شبه أمّي؟...**

زارني ـ أحمد بن عليوه ـ يوماً، وسألته: ما هي الأسس التي بنيت عليها هذه الطريقة الجديدة؟ قال: سأبعث اليك بكتاب ألفته وطبعته... وما هي إلا ساعة حتى جاءني أحد «الفقراء» يحمل إلي كتاباً، اسمه: «**المنح القدوسية في شرح متن ابن عاشر على الطريقة الصوفية**». وأخذت في الحين أقرأ الكتاب، ويا لهول ما قرأت: كلام أهوج، وخرافات لا تنطلي حتى على الأبله، وأباطيل وضلالات ما أنزل الله بها من سلطان. ودعوة سافرة غير حكيمة، لمذهب «وحدة الوجود» المنافي لعقيدتنا الإسلامية القرآنية الطاهرة على خط مستقيم. فاستعذت بالله من رجل اتخذ في ذهني صورة الشيطان في جسم إنسان... هذا ما جاء به أحمد بن عليوه الذي كان يعمل حزازاً بمستغانم قبل أن ينتحل مذهبه (الذي نادى به محيي الدين بن عربي الأندلسي في كتابه ـ شجرة الكون ـ وعالجه اليهودي الهولاندي اسبينوزا ـ وتعرض له عمر بن الفارض) وهو مذهب «وحدة الوجود» الذي اشتهر به أيضاً شيخ الصوفية جلال الدين الرومي. والذي يتنافى تماماً مع تعاليم الدين الإسلامي، ويصل بصاحبه إلى الكفر والإلحاد.

* * *

ج - ضحية من ضحايا الاستعمار (الشيخ عبد الحليم بن سماية).

ومرة أخرى، قد يكون من الأفضل العودة إلى ما كتبه الشيخ المجاهد أحمد توفيق المدني في مذكراته: «أذكر حادثاً وقع لي، عرفني بعالم جليل، ومنه عرفت ما آل إليه حال الذين رفضوا التعامل مع الاستعمار. ولم يركنوا إليه. والذين اختنقت أنفاسهم بما لاقوه من مرارة ظلم وإرهاق... كنت على موعد معه في مزرعة السيد محمد بن الأكحل، غير بعيد عن بلدة الأربعاء. ودخلت المكان مع صاحب الدعوة. وكان الشيخ يتوسط القاعة، وكأنه بجلاله وهيبته يحتل كامل الغرفة... كان حقاً شيخاً جليلاً، قام للسلام علي، ولم تتغير ملامحه، ولم تبد على وجهه أدنى بشاشة... قال لي: مرحباً بك. ثم سكت طويلاً، ولا يتحرك، ولا يبدي إشارة - ليشارك في الحديث - حتى كأنه صورة مجسمة من الشمع الملون. قلت للسيد محمد بن الأكحل هامساً: أهذا هو الشيخ عبد الحليم بن سماية، العالم الشهير، الذي طبق صيته آفاق العالم الإسلامي؟ قال لي: نعم. وهذه هي حاله منذ أن أصبح ملازماً للوحدة والعزلة، وستكون محظوظاً إن أنت ظفرت منه بكلمة. قلت: ومنذ متى وهو يلازم هذه الحالة؟ قال لي: منذ بدأت الأحاديث تتردد عن احتفال فرنسا بصفة صاخبة بمرور مائة عام على احتلالها الجزائر.

فهمت. وعلمت أن الرجل البائس يكاد يقتله الهم والحزن، وأن سكوته هذا هو نوع من الفرار من الدنيا. ولكنني اتجهت إليه



ضحية من ضحايا القهر الاستعماري (الشيخ عبد الحليم بن سمايه) وهو يظهر في الصورة اعلاه، والى جانبه الامام الشيخ محمد عبده أثناء زيارته للجزائر سنة ١٩٠٣.

بكليتي، وأخذت أستفز منه الشعور والاحساس، وأثير في قلبه الآلام والأحزان حتى أسمع حديثه، وأطلع على ما يخفيه في فؤاده الجريح من هم وألم. فقلت له: بالله يا أستاذنا العظيم، وأنت رجل العلم، ومربي الجيل، وحامل لواء القرآن. إن قلبي يذوب ويلتهب وأنا أرى حال هذا البلد الذي كان أميناً، فأصبح مهاناً ذليلاً، حتى أن الخنازير ورعاة الخنازير يريدون الاحتفال باحتلاله. فازداد وجهه احمراراً، وازدادت نظراته حدة، وازدادت ملامح وجهه قسوة، حتى لقد خيل الي أنه يثور ثورة عنيفة مرعبة. غير أنه سيطر على نفسه، وقال في حدة: «بل قل أنه أصبح مثل المومس الداعرة يتناولها من يشاء من الأشقياء دون أن تنال منهم شيئاً. لكن هذا هو قضاء الله. ولاراد لقضائه» ثم هدأت ملامحه. وعاد إلى صمته. فقلت له فوراً: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فلتغيروا ما بأنفسكم من ذلة واستكانة ورضوخ وتشتت شمل وقلة الناصح، وخوف العالم، وانهيار الإيمان، يغير الله حالكم إلى أحسن حال. فتململ قليلاً، وقال في ألم يحز القلب ويهد القوى: «لقد قال الله ذلك لقوم يعقلون، وما نزلت آية من القرآن هي أهدى للأمم وأدل على طريق الحرية والسعادة كهذه الآية، لكن أين من يفهم، وأين من يسمع وأين من يعي؟». قلت: يا أستاذي العظيم، لقد ربيت في المدرسة الثمالبية جيلاً، بل أجيالاً من الرجال. بثثت في صدورهم العلم، وألهمتهم الحكمة والصواب، أليس فيهم من يقول اليوم كلمة الحق أو يدعو إلى الخير؟» وأجاب مضعضعاً: ليس فيهم والله رجل رشيد. ما فيهم الا المخنث والخصي، فهالني أن أسمع من ذلك العلامة العظيم،

مثل هذه الكلمات السوقية، وظهر علي الإمتعاض والاعتراض، وقلت: يقولون إن الناس على دين ملوكهم والطلبة على دين أساتذتهم و . . فقاطعني قائلاً: أما الناس فهنا على دين ملوكهم الملاعين حقاً؛ السفه والزيف والفساد والنفاق، والتكالب على الدنيا ونكران الآخرة، أما أن الطلبة على دين أساتذتهم، فلا. لا. لا. وأطال في لفظ (لا) الأخيرة طولاً انتهى بنفسه، قلت له: ما حكم الله في . . . فقاطعني بحدة قائلاً: «هنا لا يوجد حكم الله. هذه دار حرب. سقطت فيها الأحكام الشرعية. وانتهى فيها أمر الإسلام» قلت: يا ويلاه! أنت تقول هذا؟ إن هذا القول هو غاية ما يريده المستعمر كي يتم له ابتلاع الأرض الجزائرية وما فوقها وما تحتها من خيرات. قال: «وهل بقي فيها شيء لم يبتلعه ولم يهضمه؟» قلت: نعم: بقي فيها الإسلام، بقي فيها الإيمان، بقيت فيها الروح التي لا تغلب، بقيت فيها النفوس المتألمة الظمأى، بقي فيها حب الانتقام من الظالمين. إنك تعيش يا أستاذي الكبير في معزل عن الشعب، بعيداً عن الطبقات العامة، لا تعرف نفسيتهم ولا تفكيرهم. . . إنهم والحمد لله لا يسمعون كلامك، ولا يختلطون بك. ولو أنهم استمعوا إليك أو اختلطوا بك لتقولوا عليك الأقاويل، ولكفروا بك بعد إيمان. فتنهد، ونزلت دمعة من عينيه، وقال: (لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع) ثم عاد إلى صمته وسكوته كأنما هو أبو هول القرن العشرين.

قال لي الأخ محمد بن الأكحل: منذ أمد طويل، لم نر الشيخ تكلم كما تكلم اليوم. . . هذا رجل أصابه اليأس في الصميم، واصطلى من الاستعمار الافرنسي بنار الجحيم. وأصبح يحيا في

نفسية لا تنتظر معها سلامة: إما موت وإما جنون. وقد كانت الثانية لسوء الحظ، فلم يمض أمد طويل على لقائنا حتى علمت بأن الشيخ عبد الحليم بن سماية قد فقد عقله، وأخذ يهذي ولا يعرف ما يقول.

غير أن الشيخ لم يفقد حتى وهو في حالته الأخيرة، مهابته أو سلامة محاكمته، ومما يحكى عنه في هذه الفترة: إنه دخل مرة حديقة «بور سعيد» وكانت تدعى «السكوار» وهو يمتطي جواده، وأخذ يتجول بين مساربها، وأفواج العامة تسير في ركابه. ففاجأه شرطي الحراسة بقوله: هنا ممنوع ركوب - أو مرور - الخيل، أخرج. فأجابه الشيخ محتداً: أنا لا يمنعني أحد! فأخذه إلى محافظ الشرطة، والعامة تتبعه، وكان المحافظ يعرف عنه الكثير، فقال له: يا سيدي الشيخ، ممنوع منعاً باتاً مرور الخيل بالمنتزهات العامة، خوفاً على الضعفاء والأطفال. فرد عليه الشيخ: عجباً! صبرنا على حصانكم موضوعاً بساحتنا العمومية مائة سنة (يقصد بذلك تمثال الدوق دومال - فاتح الجزائر) ولا تصبرون على حصاننا ربع ساعة. قال محافظ الشرطة وقد ترجموا له ذلك: هذا كلام عدو عاقل لا كلام صديق مجنون. وأذن له بالانصراف.

هذه الحادثة، وأمثالها، أكدت أن ما أصاب الشيخ لم يؤثر ابداً على ملكته العلمية، وإنما أثرت على سلوكه ووجوده في المجتمع بين الناس. أو قل بأنها «عقدة الاضطهاد» التي أفقدته القدرة على التكيف مع محيطه، وهي الظاهرة التي تحمل طبياً اسم «المونوماني» والتي لازمته حتى انتقل إلى جوار ربه، مأسوفاً عليه

من الخاصة والعامة. وتلك هي الصفحة الأخيرة في حياة هذا العالم الجليل الذي أعجب به أيما إعجاب الشيخ محمد عبده (المصلح الإجتماعي الذي طالما تألق نجمه في سماء مصر والعالم الإسلامي) وذلك أيام حل بالجزائر سنة ١٩٠٣.

* * *

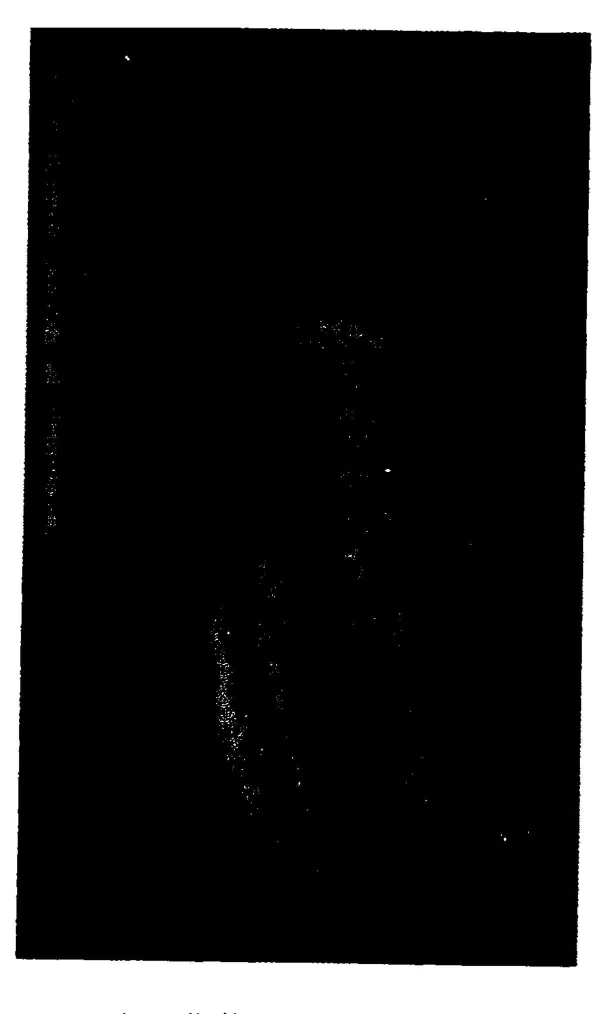
د ـ ضحية أيضاً من ضحايا القهر الإستعماري ـ عمر راسم ـ

عمر راسم ـ ابن المنصور الصنهاجي كما كان يلقب نفسه في مقالاته الجريئة ـ وهو من رجال الرعيل الأول في الإصلاح والجهاد، وممن نكبوا على يد الاستعمار الافرنسي نكبة سوداء أثرت على البقية الباقية من حياته، فجعلته يوقع على رسائله بما يلي: (البائس اليائس الثائر على العصر وأهله، عمير راسم).

خلق ليكون فناناً عالمياً، وله لوحات رائعة تحاكي الفن الفارسي الأصيل، خلد في لوحاته حياة الجزائر في عصره. وأبدع في محاولاته لإظهار عظمة الإسلام في مقارعة الصليبية[1] واستخدم قلمه بقدر ماستخدم ريشته للدفاع عن قضايا مواطنيه وطرح هموم أمته والتصدي لأعداء دينه، فكانت صحيفته «ذو الفقار» التي صدرت سنة ١٩٠٨ منبراً حراً تعبر عن أصالة صاحب المنبر وما يمثله في شعبه. وكانت له مواقف رائعة، منها موقفه في سنة ١٩١٤ عندما تعرض للمسألة الصهيونية بقوله: «إن اتفاق زعماء

---

(١) جمعت وزارة الثقافة الجزائرية أروع لوحاته في كتاب أنيق للغاية حمل اسمه (عمر راسم) وذلك تقديراً من الثورة لما قدمه هذا الإنسان المبدع من جهد وتضحية في سبيل وطنه.



عميد الصحافة الجزائرية الأستاذ عمر راسم
ضحية أخرى من ضحايا القهر الاستعماري .
انصفته الثورة وقدرت له جهوده وتضحياته .

العرب الفاتحين، وأهل البلاد، مع زعماء اليهود، هو أمر من المحال بلوغه. لأنه اعتراف بزعامة البلاد ـ في فلسطين ـ فلا يحق لغير العرب، وهم أبناء ابراهيم الأصفياء الموعودون بتلك البقعة المطهرة أن يمتلكوا تلك الارض، ولا لـغير راية الاسلام أن تخفق عليها، ما دام في عرق العرب دم. وفي أجسام المسلمين روح»[1]

هذه الروح الأصيلة، وهذه الارادة القوية، لم تلبث أن أصيبت بالضعف واليأس نتيجة المعاناة الطويلة والشاقة مع الاستعمار وأجهزته. وقد وصف «المجاهد أحمد توفيق المدني» في مذكراته عن هذا الإنسان المجاهد ما يستحق التسجيل، ذلك أنه ما من إنسان أقدر من الفنان على تصوير محيطه والظروف التي يعيشها. وقد كان عمر راسم فناناً مبدعاً تميزت روحه بالرقـة والشفافية وهذا ما يعطي لمقولاته أهميتها البالغة في تصوير حالة الجزائر خلال تلك الفترة بأكثر مما تصور الحالة الشخصية للفنان ذاته.

قال الشيخ المدني في مذكراته: «جاءني ـ عمر راسم ـ يحمل شبه ابتسامة وقال لي: أنا مطلع على جهادك، إنما أنا متأسف على شبابك، فلماذا تضيع وقتك سدى؟ وقد فوجئت بذلك الحديث ممن كنت أعتقده قبساً من نار الثورة، وشعلة من نور اليقين. وقلت له: هل أنت الأستاذ عمر راسم صاحب جريدة الجزائر الشهيرة ـ ذو الفقار ـ والجزائري الوحيد الذي حوكم بتهمة الاتصال بالعدو، وصدر عليه حكم الاشغال الشاقة. قال حزيناً كئيباً: أي نعم أنا

---

(١) ذو الفقار ـ ٢٨ حزيران ـ جوان ـ ١٩١٤ عن الجزائر والأصالة الثورية ـ الدكتور صالح خرفي ـ ص ١٣٥.

هو. فماذا انكرت مني؟ قلت: أنكرت منك لهجة لم أكن انتظرها، وحديثاً عجباً لم أكن أتوقعه.

واستمر الحديث، وفهمت أن الرجل كان في بادىء أمره مؤمناً عصامياً طموحاً، فلما أصابته نائبة السجن، ضاقت عليه الدنيا بما رحبت، ودارت عليه دائرتها بالسوء. وخرج من سجنه غريباً، مبتئساً بالحياة. لا يرى الناس ولا يرى الأشياء، ولا يرى الحوادث، إلا من وراء منظار أسود فاحم اللون. وها هو عمر راسم يصف سبب ما هو فيه: **«أنا فقير مدقع، وضيع بين الناس مصاب بسرطان في حنجرتي، أعزب إلى أن أموت، استعمار فرنسا يزداد طغياناً وظلماً شنيعاً يوماً بعد يوم. الدولة العثمانية ماتت وورثها الكافر مصطفى كمال، ولم يأت على المسلمين يوم تفرقت فيه كلمتهم، وتشتّت فيه آراؤهم مثل اليوم».**

وفي رسالة من عمر راسم إلى صديقه المجاهد أحمد توفيق المدني، جاء ما يلي:

«هذا يا أستاذ، إن ما اقترحتم به على هذا العبد الذي يعيش على هامش الدنيا والحياة، هو غير مقبول... لأني كما صرحت لكم به مشافهة، لا أريد أن أكون مع أناس أعتقد أنهم أعداء الحق والإنسانية والوطن، ولا أرضى أن أكون في كتاب أو صفحة أو صورة أو مرآة. ولو مع عبد القادر او المقراني أو غيرهما... ويا أيها المؤلف النشيط، اسمحوا لي أن أقول لكم إنكم لا تعرفون الجزائر كما عرفتها، وشاهدت ما كان لها من مزايا ورجال، وأقطاب علم ووطنية صادقة وأعمال نبيلة وثقافة نادرة ومدنية رفيعة

وإسلام نزيه، ومحسنين من دون فائدة. ولكن لما انقرضوا وظهرت شرذمة الفساد ضاع الشرف، وخاب الوطن ولا طمع في المستقبل»

تلك هي سطور قليلة في حياة إنسان، دمره الاستعمار الافرنسي بوحشيته - الحضارية - وقد أمكن معرفة بعض ملامح مأساته. ولكن كم هي الجرائم، وكم هي المآسي، التي ماتت مع أصحابها ولم يعرف بأمرها أحد.

تـلك هي الصورة القاتمة للجزائر المجاهدة بعد مرور قرن من الاستعمار. وبينما كان شعب الجزائر يعيش مع همومه ويأسه وقنوطه، أبت فرنسا إلا أن تمعن في إذلاله، فقررت إقامة احتفالات ومهرجانات بهذه المناسبة، ودعت إلى حضورها وفوداً من أمم الدنيا كلها. وانفقت عليها الأموال الطائلة بسخاء - أموال شعب الجزائر - فيما كان هذا الشعب يعيش في شر مسغبة. وقد يكون من المناسب هنا، إكمالاً لصورة الموقف، التعرض لبعض ملامح هذه الاحتفالات وفقاً لما ذكرها أحد معاصريها[١].

* * *

هـ - احتـفال فرنسا بمرور مائة عام على احتلال الجزائر

جمعت فرنسا لجنة يمكن وصفها بلجنة الأذناب، مهمتها البحث عما تستطيع فرنسا تقديمه «للأهالي» بمناسبة الاحتفال المئوي. فكان أحدهم ينادي بوجوب إعطاء بعض الحقوق

---

(١) حياة كفاح - أحمد توفيق المدني ٢ / ١٦٧ - ١٧١.

السياسية. وكان آخر ينادي بوجوب تخصيص ثكنة عسكرية لتكون مستوصفاً طبياً للمسلمين. وكان غيرهما ينادي بمطالب تافهة، لا فائدة منها. وما كان ذلك من الحكومة إلا جرعة دواء مهدىء ـ مسكن ـ خالتها تخدر الجسم الإسلامي طويلاً. فإذا بها تحولت إلى جرعة منشطة بعثت بالجسم بعيداً نحو الآفاق السامية والآمال البعيدة. واكتفت فرنسا ببناء دار بسيطة في «حي القصبة» أسمتها «دار الصناعات الأهلية» ولدت ميتة، ودفنت إلى الأبد مع الأموات.

وعملت فرنسا على إحياء عادة وثنية قديمة، إذ أقامت جداراً فوق كهف طبيعي صغير، بضاحية «سيدي فرج» وعينت له وكيلاً من قدماء جنودها، بزعم أن ذلك هو: «ضريح سيدي فرج» وما هو في حقيقة أمره إلا مغارة مهملة أحيت بها وثنية مرت عليها الدهور. أما ضريح سيدي فرج فقد كان أول ما دمره الافرنسيون، وأزالوا كل أثر له، أثر نزول جحافل غزوهم بالساحل الجزائري.

كما عملت فرنسا على ارتكاب حماقة أخرى تزيد في بشاعتها ووقاحتها على ما سبقها، حيث أقامت حفلاً دينياً «بالمسجد الأعظم الجزائري» حضره الوالي العام ـ بورد ـ وكامل رجال الإدارة الافرنسية دونما استثناء، وخطب فوق ذلك المنبر الشهير الذي توالت عليه أقدام كبار العلماء منذ القرون العديدة، خطب الشيخ محمود كحول، الموظف بإدارة الجريدة الرسمية في الولاية العامة وإمام المسجد، الذي كان يدعى تجاوزاً «المفتي» ليقول: إن المسلمين يوالون فرنسا لا قالباً، بل قلباً وإيماناً. وأنهم

يطيعونها إطاعة مخلصة. ثم قام رجال الإدارة الافرنسية بالمسير، ومعهم رجال الدين من أئمة وحزابين ووكلاء القبور وقراء القرآن على الأموات، إلى «مغارة سيدي فرج» التي أرادوا أن يدشنوها معبداً يوم ٥ تموز ـ يوليو ـ ١٩٣٠ (يوم الاحتلال البغيض) فقرؤ وا هنالك ما أمروا بقراءته من كتاب الله. وهيؤ وا لهم خرفاناً مشوية، أكلوها سحتاً، وكأنهم يأكلون لحم أمتهم، ويمتصون دماء شعبهم، وينهشون عظام شهدائهم.

وقال أحد المسلمين، وهو يغادر الحفل: أقسم بالله ثلاثاً، إننا كنا نأكل وكأننا نلتهم النار، وكنا نشرب وكأننا نبتلع السم. وكنا نقرأ القرآن ونشعر اننا كنا «نسب الدين». كانت وجوهنا مصفرة، وكانت سحناتنا مكفهرة، وكان شعورنا جميعاً دون استثناء، شعور من احتقر احتقاراً لم ينل مثله أي شعب من شعوب الأرض.

وكان الوالي، وكان شيخ بلدية الجزائر الاستعماري الصميم، وكان والي الولاية، يتقبلون الوافدين عمداً في مرسى الجزائر العتيق، تحت حنايا دار الاميرالية الجزائرية الأثرية، ويقولون كلهم، العبارة التقليدية الجارحة التي اعتادوا تكرارها في كل المناسبات:

«في هذا المكان، حيث كانت اللصوصية تضرب أطنابها، وحيث كان الظلم والطغيان، وحيث كانت اوروبا تخضع لهول القرصنة وفظاعتها، نستقبلكم أيها السادة، وقد ساد الأمن، وعاد الرخاء، ونشر العدل بساطه، وزالت اللصوصية، وانمحت القرصنة إلى الأبد. تحت لواء فرنسا العظيم المنتصر».

واحتفلوا بعد ذلك احتفالاً صارخاً، وأكلوا وشربوا وسكروا وعربدوا واختلط حابلهم بنابلهم. ثم أحيوا ليلهم حتى الصباح وسط انوار كأنها من قلب القمر. كانت عندهم ليلة. وكانت لدى الجزائريين الذين لم يشارك أحد منهم في الاحتفال ليلة نحس مستمر.

ثم زادوا على كل ذلك، أكثر من ذلك، زادوا عليه إقامة مؤتمر كاثوليكي ديني متعصب، جمعوا له القسس والرهبان من كل مكان، وارتفعت أصوات وأصوات ضد الدين الإسلامي، وضد العروبة وضد المدنية الساطعة التي لولاها ما كانوا هم ولا كان أجدادهم الأولون. ضربوا الدين في الصميم. لم يتورعوا عن مس الذات المطهرة المحمدية، ووصفها بالشنيع من الأوصاف. لم يمنعهم خجل أو حياء عن إيذاء شعب كامل في دينه وفي دياره، في ساعة هائلة رهيبة. لم يبق فيها لذلك الشعب من معقل يلتجىء إليه إلا الدين.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدونَكُم مِنْ بَعْدِ إيمانِكُمْ كُفَاراً، حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُ. فَٱعْفُوا وَٱصْفَحُوا حتى يَأْتِيَ ٱللهُ بِأَمْرِهِ، إنَّ اللهَ عَلَى كُلِ شَيْءٍ قَديرٍ﴾

الفصل الثاني

١ ـ عبد الحميد بن باديس
٢ ـ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
٣ ـ مدافع الله ونهاية رحلة العمر.
٤ ـ إخوان عبد الحميد في الجهاد:
آ ـ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي
ب ـ الشيخ مبارك بن محمد الميلي
ج ـ الشيخ أحمد توفيق المدني
د ـ الشيخ الطيب العقبي
هـ ـ الشيخ التبسي
٥ ـ تيار الأصالة الثورية في الجزائر
آ ـ الشاعر محمد العيد
ب ـ أحمد رضا حوحو
ج ـ الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض وتجربته التربوية الرائدة في ميزاب

١ـ عبد الحميد بن باديس

ما أظلمت دنيا المسلمين يوماً إلا وارتفع في سمائها نجم يتألق ليهدي التائهين سواء السبيل. وما اشتدت الخطوب في عالم العرب المسلمين يوماً إلا وظهر رائد يصدق قومه الهداية، ويسير بهم نحو الدرب القويم. وقد ظهر في الفصل الأول، ما وصلت إليه الجزائر المجاهدة الصابرة في حكم الاستعمار والمستعمرين. حيث بلغ اليأس منتهاه، وحيث بلغ القنوط غايته.

وفي وسط الظلمة الحالكة، ظهر ذلك الإنسان المسلم المؤمن، فأشرقت له دنيا الجزائر، والتفت حوله فئة من المجاهدين الصابرين، كأنهم كانوا على موعد مع قدر أمتهم. وكان عليه، وعليهم، شق الطريق، وسط صعوبات لا نهاية لها. ذلك هو عبد الحميد بن باديس. وقد وصفه أحد أقرب الناس إليه بقوله: «كنا هنالك جمعاً صالحاً لست أنساه، كانوا نحواً من عشرين رجلاً، منهم الشيخ، ومنهم الكهل، ومنهم الشاب. إنما نور الإيمان والعزيمة الراسخة كان قد ارتسم فوق كل محيا،

كالفجر الصادق. . . وإننا لكذلك، فإذا بطلعة مهابة مشرقة أطلت علينا، فقام لها الجميع احتراماً وتقديراً. ذلك هو الشيخ المجاهد المقدام- عبد الحميد بن باديس- وقد أخذ نجمه يتألق في سماء الكفاح، وأخذ اسمه يكتسح ميادين النضال، وأخذت بواكير أعماله الإصلاحية تبدد حجب الظلام الحالك. . . وكأن عبد الحميد بن باديس، كان الحادي عشر من ذلك الرعيل الأول الذي بعث به عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي،لهذا المغرب العربي، يعلم الناس دينهم ويجدد إيمانهم ويمتن أخلاقهم ويهديهم سبيل الرشاد. وقد لا يستطيع أحد وصف هذا الرجل العملاق. . . كان الرجل حذراً، إنه يشفق على مشاريعه العظيمة أن تخفق أو تصاب بنكسة، نتيجة لكلمة عابرة، ينقلها جاسوس، أو لتعبير يساء فهمه ويسوء نقله.

ولكن ها هو الآن- وبعد سنوات من الجهاد- وقد أصبح رجلاً مكتملاً هادفاً، لقد أخذ يشق طريقه قدماً نحو غايات بعيدة لم يكن يفصح عنها، إنما كانت تفصح عن نفسها من خلال كلماته. هذا رجل طلق الدنيا الرخيصة، بما فيها من شرور وأثام، وبما تحتويه من مباهج ومغريات، وأقبل على الدنيا الصالحة، دنيا العمل والجهاد، والتضحية والفداء. وبذل النفس في سبيل نفع المجموعة الجزائرية خاصة والأسرة الإسلامية عامة.

ولد عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس في مدينة القسنطينة- المدينة التي طالما أتعبت قوات الغزو الاستعماري منذ أيام واليها أحمد باي. واحتفظت بكل أصالتها

لاكثر من سبب، أولها انفتاحها على الأقاليم والأرياف المجاورة لها. وثانيها بعدها عن العاصمة التي بقيت مركز ثقل الوجود الاستعماري. ولهذا فقد وقع على قسنطينة عبء الاحتفاظ بأصالة الجزائر كلها. فلا غرابة أن تكون مهداً لحركات المقاومة، وأن تحتضن كل الحركات الإصلاحية، ثم أن تدفع للثورة ضد الاستعمار بأكبر عدد من رجالها وأبنائها.

وهكذا ففي هذا المحيط الفاضل ولد ابن باديس سنة ١٣٠٥ هـ = ١٨٨٩ م. وبدأ خطواته الأولى في التعلم بمدارسها حتى إذا أكمل تعليمه، تاقت نفسه لانتهال المزيد من العلم. ووجد في والده «محمد المصطفى» خير مشجع للمضي على درب العلم والمعرفة، ولا ريب أن الوالد قد وجد في ابنه من الفضائل ما بعث فيه الأمل «ببعث أمجاد البيت الباديسي الشهير في التاريخ بتأسيس الدولة الحمادية».

فقال له منذ أول عهده بتلقي العلم: «**يا عبد الحميد ـ أنا أكفيك أمر الدنيا، أنفق عليك، وأقوم بكل أمورك، ما طلبت شيئاً إلا لبيت طلبك كلمح البصر، فاكفني أمر الآخرة. كن الولد الصالح العالم الذي ألقى به وجه الله**».

وترددت دعوة الأب بأصدائها القوية في أعماق نفس عبد الحميد، فمضى في سنة ١٩٠٨ إلى تونس الخضراء ـ حيث منارة العلم الإسلامي في جامعة الزيتونة ـ وانصرف ينهل من ينابيع العلم الصافية، حتى إذا ما مضت عليه أربعة أعوام من الجهد المتصل والعناء المستمر، أدرك أنه بلغ المرتبة التي تؤهله للانتقال من

عالمه النظري إلى العالم العملي، أو من الجمع والتحصيل إلى العطاء والإفاضة، للإفادة مما علم وتعلم، وكان لا بد له قبل هذا التحول من إكمال فرائضه الدينية، فمضى في سنة ١٩١٢ إلى الديار المقدسة في الحجاز، حيث أدى فريضة الحج، وزار خلال رحلته بلاد مصر والشام، ليعود بعدها إلى قاعدته الصلبة في قسنطينة، مستقراً في مسجدها الشهير «الجامع الأخضر». وأخذ في ممارسة عمله بكل ما في الشباب من إيمان وحماسة وبكل ما في الشيوخ من حكمة وسداد رأي، ولم يلبث طويلاً حتى تكشف عن شخصية عملاقة، تفيض علماً ونوراً يضيئان العقول الضالة والنفوس التائهة.

وأخذت دروسه تجتذب إليها الفدائيين الصالحين، لا من مدينة قسنطينة وحدها، بل من كل جهات المشرق الجزائري، علاوة على أولئك الوافدين إليه من وسط البلاد وغربها. وأصبحت دروسه المختلفة، تجاوز العشر ساعات كل يوم، عامرة بمختلف علوم الدين- من فقه وعبادات ومعاملات- علاوة على ما كان يتخلل تلك الدروس من توجيه وإرشاد يتناسب مع الواقع العملي الذي كانت تعيشه الجزائر الصابرة المجاهدة في تلك الظلمة القاتمة.

وكانت روح الشيخ المؤمنة تفيض بالثقة والأمل، فتجاوبت لها النفوس وأطمأنت اليها القلوب. والشيخ بعد ذلك يتابع دوره باندفاع وحماسة شديدين، لا يتعبه الجهد ولا يناله النصب. ويزيد من حماسته وأندفاعه ما كان يلمسه من تجاوب عميق في نقوس تلاميذه وأتباعه. وها هو يعبر عن هذه الحقيقة بقوله:

«إنني أرى حالة البلاد قبل دروس الجامع الأخضر وبعدها:

كان الجهل سائداً، والبدعة قائمة، والضلال مخيماً، فإذا بهذه الثلة الصالحة من الطلبة الذين يرتادون دروسنا، تبث الفضيلة، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وتبين أمام الناس سبيل الخير والصلاح. والشباب في الجزائر كافة، وخاصة الذي لم تدنسه تعاليم فرنسا، ومباهج مدنيتها الفاجرة، لا يزال مادة أولية ـ خاماً ـ إذا ما نحن تناولناه بالدعوة الإصلاحية السلفية، جعلنا منه دعاة صالحين. يحثون على الخير، ويقضون على الخرافات والأباطيل، ويفتحون أمام الشعب أبواب الحياة السعيدة الحقة، التي توصدها فرنسا بكل ما ملكت من حول وطول».

ويدرك الشيخ عبد الحميد طبيعة المعركة التي يخوضها، وما هي عليه من الشمول والاتساع، مما يتطلب استنفار كل القوى المتوافرة، وزجها جميعها في معركة المصير، ويظهر ذلك في مقولته وهو يوجه حديثه إلى الشيخ أحمد توفيق المدني: «سواء أطال مقامك بالجزائر أو قصر، وسواء إن اهتديت إلى كفاح سياسي أو أخفقت، فهذا واجب عيني قد وضعه القدر فوق عاتقك. فابدأ كفاحك بهذا ريثما ييسر لك أسباب كفاح آخر. وكفاحنا هنا شاق، مرير، متعدد النواحي، مختلف الاتجاه. فأينما ضربت بسهم صائب في أي ميدان، كان نضالك مشرفاً، وكان جهادك محموداً»[1].

والشيخ عبد الحميد، يخوض معركته معتمداً على أرضية صلبة

---

(١) حياة كفاح ـ أحمد توفيق المدني ـ ٢ / ١١ ـ ١٢ و ١٨.

من الإيمان بالله والثقة بشعبه الجزائري المسلم، وقد أمده ذلك الإيمان وتلك الثقة بالقدرة على مجابهة التحديات مهما عظمت، وهو يقول في ذلك: «سجون واتهامات ونكبات: ثلاث لا تبنى الحياة إلا عليها، ولا تشاد الصروح السامقة للعلم والفضيلة والمدنية الحقة إلا على أسسها. وأمة أخذت تقدم الضحايا في سبيل سعادتها، حقيقة بأن تنال السعادة وبأن تهنأ بها... ومن رام أن يحول بيننا وبين فكرتنا التي نؤمن بها، ويؤمن بها المؤمنون الصادقون، فقد حاول عبثاً قلب الحقائق. ونحن لذلك لا نتزحزح عن تلك الفكرة قيد شعرة، مهما طال سيل الكوارث على أمة لها ما للشعب الجزائري من الصفات المرغوب فيها، الكامنة كمون النور في الكهربـاء»[1].

غير أن ثقة عبد الحميد بن باديس غير المحدودة بشعبه الجزائري، لا تمنعه من إدراك واقعه المرير، وما آل إليه هذا الشعب من ضعف وتمزق بنتيجة الضربات الاستعمارية الشاملة. وها هو يقول: «برغم ما في الأمة الجزائرية من أصول الحيوية القوية، فقد عركتها البلايا والمحن، حتى استخذت وذلت، وسكنت على الضيم ورئمت للهوان، وبرغم ما بينها من روابط الوحدة المتينة، فقد عملت فيها يد الطرقية المحركة تفريقاً وتشتيتاً، حتى تركتها أشلاء لا شعور لها ببعضها، ولا نفع، تتخطفها وحوش البشرية من هنا وهناك، بسلطان القوة على الأبدان أو سلطان الدجل على العقول والقلوب».

---

(١) جريدة المقاومة - الجزائرية - ٢٢ نيسان - ابريل - ١٩٥٧.

ويدرك الشيخ أهمية الكلمة، فيعمل على إصدار «الشهاب» ثم «المنتقد» ويحدد لهما هدفهما «لسان الشباب الناهض بالقطر الجزائري» و «الوطن قبل كل شيء» ويقف بعد ذلك وقفة المتأمل- أو بحسب اللغة العسكرية «إعادة تقويم الموقف»- ليرى حصالة جهده، فيقول: **«أعلن- الشهاب- من أول يوم، و- المنتقد- الشهيد قبله، سنة ١٩٢٤ أنه- لسان الشباب الناهض بالقطر الجزائري- ولم يكن يوم ذلك من شباب إلا شباب أنساه التعليم الاستعماري لغته وتاريخه ومجده، وقبح له دينه وقومه. وقطع له من كل شيء- إلا منه- أمله. وحقره في نفسه تحقيراً» و «أعلن- الشهاب- من أول يومه، و- المنتقد- الشهيد قبله- أن- الوطن قبل كل شيء- وما كانت هذه اللفظة يومئذ تجري على لسان أحد بمعناها الطبيعي والاجتماعي العام. لجهل أكثر الأمة بمعناها هذا، ولخوف أقلها من التصريح به»**[1]

وشعر يهود قسنطينة بخطورة ذلك النور الذي يشع من «الجامع الأخضر» فأخذوا- كعادتهم- في الكيد له، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره- ويشتد بهم الغيظ والحقد، حتى إذا جاء صيف سنة ١٩٣٤، أقدم يهودي على استفزاز المسلمين عندما مر «بالجامع الأخضر» فشتم من به من المسلمين، وتطاول على شخصية الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم. وحدث الانفجار الدموي الرهيب بين المسلمين واليهود.

---

(١) صفحات من الجزائر - الدكتور صالح خرفي. ص ٨٠ - ٩١ (عبد الحميد بن باديس والعروبة).

وظل الصراع أسبوعاً كاملاً قتل فيه (٢٢) يهودياً. وعجزت السلطة الإفرنسية عن إيقاف- أو إحتجاز- الحماسة الدينية الملتهبة، والشعور القومي المتفجر، فاضطرت للتوسل إلى الشيخ عبد الحميد بن باديس والنائب الدكتور بن جلول، من أجل التدخل لتهدئة الموقف المتفجر الذي بات يتهدد الوجود اليهودي كله في القسنطينة.

هنا، لا بد من التوقف قليلاً عند ظاهرة ما أطلق عليها اسم «مجزرة قسنطينة» والتي تجاوزت في مضمونها وأصدائها حدود الجزائر لتأخذ أبعاداً عالمية. وقد يكون من غير الطبيعي، تفسير ما حدث في قسنطينة على أساس أنه مجرد رد فعل لاستفزاز «يهودي عابر» كما أنه من غيرالطبيعي الأخذ بهذا الاستفزاز ذاته على أنه مبادرة فردية «ليهودي حاقد». ولعل هذه الحادثة تبرز أهمية الدور الذي كان يضطلع به «مسجد الجامع الأخضر» وإمامه «الشيخ عبد الحميد بن باديس» في نشر الوعي ضد الأخطار التي تتهدد العالم الإسلامي على أيدي الاستعمار والصهيونية، وأدى ذلك إلى تعاظم نقمة اليهود، فكان استفزاز اليهودي تعبيراً عن هذه النقمة، واختباراً لمعرفة ما وصل إليه التنظيم الإسلامي من القدرة في مدينة قسنطينة، وعندما أدركت السلطات الاستعمارية تعاظم قدرة «عبد الحميد بن باديس» فضلت تجنب مجابهته في ظروف غير مناسبة لها، ولجأت إلى أسلوب «التهدئة» عن طريق عبد الحميد ذاته[١].

---

(١) تجدر الإشارة هنا إلى ما كتبه «ايليا أبو ماضي - الشاعر اللبناني المهجري - في جريدة «السمير» ص ١٥ - آب - أغسطس - ١٩٣٤. وتضمن ما يلي: «لا نخطىء =

المهم في الأمر، هو أن الشيخ عبد الحميد بن باديس، لم تصرفه قسوة الظروف التي كانت تعيشها الجزائر عن رؤية أبعاد الصراع، وشمولية المعركة، فالحرب ضد المسلمين هي حرب واحدة، سواء كان مسرحها الجزائر، أو كان مسرحها فلسطين، أو ابتعدت حتى أقاصي المشرق الآسيوي. وها هو الشيخ يعود في سنة ١٩٣٨، ليقرع الأجراس محذراً من خطورة «الزواج غير الشرعي بين الاستعمار البريطاني والصهيونية العالمية، فيقول: «**تزاوج الاستعمار الانكليزي الغاشم بالصهيونية الشرهة، فأنجبا لقسم كبير من اليهود الطمع الأعمى. وقذف بهم على فلسطين الآمنة والرحاب المقدسة. فأحالوها جحيماً لا يطاق، وجرحوا قلب الإسلام والعرب جرحاً لا يندمل... جاء الزوجان المشؤومان الصهيونية والاستعمار الانكليزي، فكانا بلاء على فلسطين ويهودها. فليست الخصومة بين كل عرب فلسطين**

= التقدير إذا قلنا أن الصهيونية من أهم العوامل التي أثارت نقمة العالم الإسلامي على اليهود، فقد كان هؤلاء منظوراً إليهم في كل بلد إسلامي كعنصر وطني. فلما حملوا لواء الوطن الصهيوني، وتسلحوا بوعد بلفور، تبدل موقفهم في العيون، وصاروا منظوراً إليهم كقوم فاتحين غاضبين، يحاولون أن يطردوا العرب من فلسطين ليحلوا مكانهم ويؤسسوا دولة يهودية. فالصهيونية، وهي فكرة دينية، هي التي جعلت المسلمين ينهضون لمصارعتها باسم الدين، ولكل شيء آفة من جنسه... وخلاصة ما نراه، أن ثورة المسلمين على اليهود في قسنطينة هي ثورة المقهور، المجروح في كبريائه. ولكن بعض الجرائد الأمريكية في نيويورك، لا تستلهم فيما تكتب عن هذه القضية غير مصالحها الخاصة، شأنها في كل قضية تتعلق باليهود». وقد أعادت صحيفة الشيخ ابن باديس- الشهاب- نشر هذا المقال- ج ١٠- م ١٠- ١٩٣٤ (الجزائر والأصالة الثورية- خرفي- ص ٣٨)

ويهودها، ولكن الخصومة بين الصهيونية والاستعمار الانكليزي من جهة، والإسلام والعرب من جهة، والضحية فلسطين، والشهداء حماة القدس الشريف، والميدان رحاب المسجد الأقصى، وكل مسلم مسؤول أعظم المسؤولية عند الله تعالى على كل ما يجري هناك، من أرواح تزهق، وصغار تيتم، ونساء ترمل، وأموال تهلك، وديار تخرب، وحرمات تنتهك، كما لو كان ذلك كله واقعاً بمكة أو المدينة. إن لم يعمل لرفع الظلم الفظيع بما استطاع».

ومن المنطلق ذاته، منطلق الدفاع عن الإسلام ضد كل من ينال منه أو يتعرض له، وقف الشيخ عبد الحميد بن باديس ضد المستوطن الافرنسي في الجزائر «المعمر آشيل» الذي هاجم الإسلام، متبعاً في ذلك خطوات المستشرق الافرنسي «هانوتو»[1] فجابه بذلك «الإمام محمد عبده» ونشأت عن ذلك مقارنة ممتعة تعرض لها الكاتب الجزائري «الدكتور صالح خرفي»[2] بما يلي:

«كانت خطة الهجوم على الإسلام مبيتة مدروسة، متألبة ضد مبادئه التي تقض مضاجع الطامعين، وإن كانت خطة الدفاع بالعكس من ذلك، تبدو مدروسة، منسقة الأسلوب، ولكنها في

---

(١) هانوتو: Hanotaux- Gabrielx مؤرخ ورجل سياسي فرنسي، من مواليد «بورفوار» مقاطعة الايسن- (١٨٥٣- ١٩٤٤). تولى منصب وزير الخارجية في الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر، وانصرف بعد ذلك للكتابة، فألف كتاب «حياة أو تاريخ الكاردينال ريشليو» كما ألف بعد ذلك كتابه «تاريخ الأمة الافرنسية»

(٢) صفحات من الجزائر - الدكتور صالح خرفي - ص ٦٥ - ٧٥.

الواقع دفاع تمليه عواطف كل مسلم، أنى شرق أو غرب، ويفرضها العدو المشترك. فهانوتو- فرنسي ومسؤول. وآشيل معمر فرنسي عاش في الجزائر. وقد عاش الاثنان في فترتين زمنيتين مختلفتين من هذا القرن.

وفرنسا في الفترتين كانت تتطلع بجناحيها إلى كل من آسيا وأفريقيا، ولا تخطو خطوة فيهما إلا وجدت الإسلام يقف لها بالمرصاد. فانكب أصحاب الفكر في عاصمة النور- باريس- على دراسة الأساليب التي يزيحون بها الإسلام عن طريق أطماعهم. أو على الأقل يضمنون تحييده- مسالمته- في زحفهم إلى معاقله. فتولدت فكرة التهجم على الإسلام واستنقاصه، والنيل من تعاليمه، ومن النفوس التي تتسلح به، في وجه الامبراطورية الإفرنسية الزاحفة. فكانت الفكرة تنبعث من باريس لتمتد إلى المستعمرات الإسلامية في القارتين، ترود خطى الأفاقين الزاحفين، وتمهد الطريق بطلائع تبشيرية تحارب في الجبهتين: جبهة تركيز المسيحية، وجبهة تقويض الإسلام، وعلام الذهاب بعيداً، **«فهانوتو» نفسه يقرر بأنه ودولته أصبحا مع الإسلام وجهاً لوجه، ويجب التفكير في أن تكون هذه المواجهة في صالح الاستعمار الافرنسي على حساب الإسلام، وتطرفت النزعة الاستعمارية من جراء الإسلام المتربص لها في يقظة. ومن العجيب أن ينتشر هذا الجنون في وسط «النخبة الافرنسية المثقفة» فيدعو البعض منها إلى نبش قبر الرسول- صلى الله عليه وسلم- في مكة، ونقل جثمانه إلى متحف اللوفر في باريس.**

وتباينت آراء المستشرقين المتعصبين ضد الإسلام، سلباً وإيجاباً، ليناً وشدة، واختلفت في معاملته كوسيلة، وإن كانت غاية الجميع واحدة، فالمهم: إما أن يستسلم هذا الإسلام للحضارة الأوروبية، ويخلي الميدان لإشعاعها، وإما أن يوطن أكنافه قنطرة من الوثنية الأفريقية إلى المسيحية حتى قال أحد مؤرخي الكنيسة الافرنسية:

«إن الإسلام قنطرة للأمم الأفريقية، ينتقلون بها من ضفة الوثنية إلى ضفة المسيحية، فليس الواجب والحالة هذه قاصراً على معاملة الإسلام بالتساهل، بل لا بد من رعايته وتعضيده بأن نسعى في توسيع نطاقه، وترتيب الأرزاق على المساجد والمدارس، وجعله رائداً لمدنية فرنسا، وآلة نستعين به في فتح البلاد»

وتعبر المقولة السابقة عن «سياسة الهجوم غير المباشر» ضد الإسلام والمسلمين وذلك عن طريق استخدامه مرحلياً لخدمة الأهداف الاستعمارية- الصليبية. ولكن «هانوتو» ومن بعده «آشيل» اختارا أسلوب الهجوم المباشر، وتسلحا بالعداء الصريح، وتصديا في مواجهة سافرة لحرب المسلمين. وإذا كان «هانوتو» قد اغتر ببصيص من الاستشراق ظنه الاشعاع الكافي الذي ينفذ به إلى أسرار الإسلام وغاياته البعيدة، يبعثرها يمنة ويسرة، في عشوائية أبعد ما تكون عن بصيرة العلم الراسخ. فإن «آشيل» قد اغتر بدوره أيضاً بتلك المعرفة السطحية التي اكتسبها من خلال احتكاكه القليل بالمسلمين، ومن خلال بصره الأعشى إلى عقيدتهم

الإسلامية في الجزائر، فاعتقد في نفسه الخبرة الواسعة المخولة للتهجم عليه. وتلك وصمة الاستشراق ولا تزال، يزن المستشرق ثقافته في العربية، بميزان لغته الأصلية فتتجلى له القطرة بحراً ويزكو المأخوذ رغم ضآلته، وتبرر الوسيلة المفضوحة غايات وأطماعاً استعمارية دنيئة، وينتج عن ذلك غرور بالنفس يقود إلى المنعرجات الملتوية.

وإذا كان «هانوتو» و«آشيل» يحملان من الحماسة للحضارة الأوروبية الصليبية ما دفعهما للنيل من الإسلام في عقر داره، وفي مستعمرات دخلوها ظلماً وعدواناً، فإن أبناء الإسلام لن يكونوا أقل منهم حماسة واستماتة في سبيل عقيدة كانت- وستبقى أبداً- الحصن الحصين لهم ضد كل تهجم دخيل. لذلك، لم يعدم «هانوتو» من يجابهه بنفس الصراحة التي هاجم بها، فكان له- الإمام محمد عبده- بالمرصاد، وكال له الصاع صاعين، في بحر ليلة واحدة كتب فيها رده. ولم يعدم «آشيل» من يرد كيده في نحره، فكان له- عبد الحميد بن باديس-. وبين الردين- رغم الفترة الزمنية الفاصلة بينهما- تجاوب أصيل ، فهما ينزعان إلى نبع واحد هو الإسلام، نزوع التهجم إلى حمأة استعمارية واحدة، ويمثلان حركة إصلاحية متكاملة، إحداهما صدى للأخرى- صدى عفوي كما سبقت الإشارة إليه- تعززها لحمة توجيهية تصلها بواسطة الكتاب أو المجلة أو الزيارة الخاطفة، توزن بما تحمل من أسرار، لا بما يتسع لها الوقت من الدقائق المعدودة، كتلك الزيارة التي قام بها الإمام محمد عبده للجزائر في سنة ١٩٠٣.

غير أن الأمر الواضح ـ وفي هذا الموقف بالذات ـ أن ابن باديس كان إلى الجرأة أقرب وهو ينازل خصمه. هذا بالرغم من الحرية الفكرية التي توافرت للإمام محمد عبده، وحرم منها ابن باديس. فقد واجه الأخير «آشيل» بوجه سافر، ونشر مقالاته بإمضائه الشخصي الصريح ، واضعاً نفسه أمام المسؤولية مباشرة، غير متخذ من اسم «جمعية العلماء» جنة تحميه، ولا من مجلة «الشهاب» درعاً يتستر وراءه. ولم يلجأ إلى انتحال أسماء مستعارة ؛ في حين نشر الإمام محمد عبده مقالاته ضد «هانوتو» بإمضاء «إمام من أئمة الإسلام» ولم يأذن لصاحب جريدة «المؤيد» التي نشرت له بالتصريح باسمه. وهكذا بالنسبة لكل مقالات محمد عبده في الرد على «هانوتو» التي جمعت في كتاب على حدة سنة ١٩٠٠ ونسبت إلى «عظيم من عظماء الإسلام وإمام من أئمته» وهذا ما أثار رجال الفكر في مصر.

«فقد جزم أكثر أهل العلم والأدب في مصر، أن كاتب المقالات هو الإمام محمد عبده وذكروا له ذلك في مجلسٍ خاص، وتوقعوا أن يتهلل وجهه، ولكنه فاجأهم بقوله ممتعضاً: أنه لا يسوءه ويحزنه شيء كما يسوءه هذا القول، المتضمن لمنتهى ذم قومه وأهل بلده، بالجهل والعجز عن مثل هذا الرد الذي يجب أن يضطلع به أكثر أهل التعليم. ثم قال: ومن المصائب على المرء أن لا يستطيع الاستخفاء في هذا البلد الكبير، إذا ما أراد أن يظهر رأيه وأفكاره دون شخصه، إذا رأى مصلحة في ذلك». وكانت المصلحة من وجهة نظر الإمام ـ على ما يظهر هي الابقاء على حركته الاصلاحية بعيدة عن سطوة القصر، وجبروت الحكم

العثماني، الذي لم يغفله بدوره، فتعرض له بنقد جارح في معرض رده على «هانوتو».

أما ابن باديس، فقد عاش التجربة في الجزائر، بأقسى مما عاشها محمد عبده في مصر. فقد نازل ابن باديس عدواً مجاوراً له، وملاحقاً منه، يملك من السطوة والسلطة والتأييد الرسمي ما يستطيع أن يمد به يد الإساءة اليه. فلم يستنكف الشيخ عن الصراحة السافرة. ولا تقاعس عن المجابهة المباشرة. بينما كانت يد «هانوتو» في باريس تقصر عن أن تمتد إلى الشيخ محمد عبده في مصر بسوء، ولو عن طريق غير مباشر، طريق الخديوي أو المعتمد البريطاني.

* * *

برزت بعد ذلك ظاهرة أكثر إثارة في الموضوع، فقد أقبل الشاعر أحمد شوقي على دعم الإمام محمد عبده وامتداح رده على «هانوتو». غير أن شوقي فعل كما فعل الشيخ محمد عبده، فلم يصدر قصيدته في مدح إجراء محمد عبده باسمه- وبصورة صريحة، وصدرت بعد ذلك في ديوان «الشوقيات المجهولة». وبالإضافة إلى ذلك، فقد تميزت قصيدة أحمد شوقي هذه ببرودة العاطفة، وضعف الروح الشاعرية التي اشتهر بها أمير الشعراء. وقد يكون السبب في ذلك- والذي دفعه إلى التنكر في نشر القصيدة باسمه- هو معاناته من الصراع بين الرغبة في إرضاء القصر الذي كان ينظر إلى الإمام محمد عبده بكثير من الحذر، وبين الشعور بالواجب لإنصاف الإمام والدفاع عنه ودعمه.

وعلى النقيض من ذلك فقد وقف شاعر الجزائر محمد العيد، خلف الشيخ عبد الحميد بن باديس، واشترك معه في الهجوم على آشيل بقصيدة مميزة بصدق العاطفة والإحساس النابض بالحياة. ولعل مجرد قراءة أولية للقصيدتين[1] كافية لتقويم موقف الرجلين من الحدث الواحد.

هنا لا بد من القول: بأن طبيعة المعركة التي خاضتها الجزائر قد اكسبتها من القسوة ما انعكس على موقف بـن باديس ومحمد العيد، لقد كانت معركة حياة أو موت، معركة حاضر ومستقبل، عاشتها الجزائر المجاهدة بكل آلامها ونوائبها ومعاناتها، فكان الموقف الرائع لابن باديس والشاعر محمد العيد.

---

(١) انظر قراءات في آخر هذا الكتاب.

٢ـ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

ومضت الأيام والشهور والسنين، بعضها آخذ برقاب بعض، والشيخ عبد الحميد بن باديس يخوض معركة المصير على كافة الجبهات، وفي كل الميادين، من صراع ضد السلطات الاستعمارية وأعوانها إلى صراع ضد الانحرافات المذهبية، ومن معركة للرد على أعداء الدين في الخارج إلى معركة أخرى ضد ظواهر الضعف والتمزق في المجتمع الجزائري المسلم، كل ذلك والحرب مستمرة على أشدها بين الطرقية التي انتقلت من مواقع الهجوم إلى مواقع الدفاع في محاولة للدفاع عن وجودها ومصالحها، غير مدركة في الحقيقة أين تكمن مصلحتها الحقيقية بعد أن أفسدها الاستعمار. وكان هذا التحول برهاناً أكيداً على انتصار حركة الاصلاح الإسلامي التي كان يقودها بعزم رائع وإرادة صلبة،وإيمان عميق وحجة دامغة وعلم غزير، الشيخ المجاهد عبد الحميد بن باديس، ومن وقف إلى جانبه في ساعة العسرة من المؤمنين الصادقين أمثال: العالم الجليل مبارك الميلي والشيخ الطيب العقبي والشيخ البشير الإبراهيمي والشيخ العربي التبسي

والشيخ أحمد توفيق المدني وسواهم. **وكانت هذه الحركة تدعو في مجموعها إلى أفكار المصلح الإسلامي الأكبر، شيخ الإسلام «ابن تيمية». واتخذت «مجلة الشهاب» شعاراً لها قول الإمام مالك بن أنس ـ رضي الله عنه ـ: «لايصلح أمر آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها».**

إكتسبت الحركة الاصلاحية الإسلامية قدرتها وقوتها من خلال الصراع المستمر، ومن خلال تجاوزها للتحديات المتتالية، وعبر تحركها اليقظ والحذر على طريق التقدم والتطور. وهكذا فما أن مضت فترة عشرين سنة تقريباً حتى أصبحت جذور الحركة عميقة، وأصبح لها قاعدتها الصلبة وبات بالمستطاع الانتقال من التحرك الفردي إلى التحرك الجماعي المتكامل، ومن العمل السري ـ إذا صح التعبير ـ إلى العمل العلني، ومن الجهد غير المنظم الى الجهد المنظم. وكان من نتيجة ذلك أن تداعى المخلصون المؤمنون لتدارس الموقف، فتقرر توجيه دعوة للعلماء من أجل الاجتماع في نادي «الترقي» لتحقيق هدف محدد وواضح تضمنته بطاقة الدعوة وفيها: «جمع العلماء من كل الطوائف ومن كل المذاهب الموجودة بالجزائر حتى تمثل وحدة وطنية صميمة. ومعالجة ما تجابهه البلاد من تصادم بين الفكرتين الأساسيتين وهما: الاصلاح والطرقية. فكما أن رجال الاصلاح الإسلامي يكونون ولا ريب في طليعة هؤلاء العلماء، إلا أنه يجب أن يكون ضمن العلماء ايضاً رجال من الطرقية. فداخل هذه البوتقة الصالحة يجب أن ينصهر الجميع، ويخرج منها الشعب الجزائري الأصيل، شاباً، صالحاً، عملاقاً... إن الواجب يقضي بإقامة

من أعضاء المجلس الاول
لجمعية العلماء المسلمين
الجزائريين الشيوخ: - 1 -
عبد الحميد بن باديس - 2- محمد
البشير الابراهيمي - 3 - مبارك
الميلي - 4- العربي التبسي - 5 -
ابراهيم أبو اليقظان - 6- الأمين
العمودي - 7- يحي حودي - 8-
محمد خير الدين - 9 - الطيب
العقبي 10- السعيد الزاهري.

جمعية للعلماء المسلمين الجزائريين واجبها معالجة حالة المجتمع الإسلامي المهلهل في الجزائر، والذي لا تقوم قائمة البلاد إلا بإصلاحه على أسس مطهرة، مع احترام كل المذاهب وصيانة كل المبادىء التي تعارض الإسلام».

لقيت الدعوة استجابة قوية وعميقة من قبل العلماء وجماهير المسلمين على السواء، كان ذلك في منتصف عام ١٩٣١، «وكانت أيام حياة جديدة، مشرقة، باسمة، تنتظر حادثاً هو أسعد حوادث الجزائر وأكثرها نوراً وإشراقاً وسط الأعاصير والأهوال. وكان الأمر الرائع حقاً هو أنه لم يدخل أي واحد من العلماء أو المدعوين أي اعتبار لرد فعل الحكومة. لقد تجاهلت فرنسا الجزائريين لمدة مائة عام- ولم تتذكرهم إلا بالسوء- فماذا لو تجاهلوها بدورهم، ولتفعل بعد ذلك ما تشاء»[1].

اتخذ العلماء المجاهدون كافة الترتيبات لنجاح انطلاقة الجمعية في مراحلها الأولى: «فالطريق وعرة المسالك مزلقة، فإذا ما أصاب المشروع عطب في الطريق، تكون الأمة قد أصيبت بنكسة شديدة، ربما فقدت معها أملها» وعلى هذا الأساس وجهت الدعوة الى (١٢٠) عالماً من علماء الجزائر الذين اشتهروا باستقامتهم وإخلاصهم لعقيدتهم، ونقاء سيرتهم. ووافق (١٠٩) منهم على المشروع. وحدد موعد الاجتماع، ومكانه «نادي الترقي»، وانصرف ابن باديس والإبراهيمي والميلي والمدني لإعداد قائمة أعضاء المجلس الإداري.

---

(١) حياة كفاح أحمد توفيق المدني - ٢ / ١٧٥ و ١٧٨ - ١٨٢ و ١٨٦ - ١٨٨

وعندما عرضت رئاسة المجلس على الشيخ ابن باديس، امتنع عن قبولها لأسباب خاصة- منها وجود والده وإخوته كموظفين في الإدارة الإفرنسية- غير أن إلحاح العلماء وإصرارهم على مبايعته حمله على قبول هذه الرئاسة. وجاء يوم الاجتماع، وكان يوم عيد لم تشهد الجزائر قبله عيداً لها منذ قرن من الزمن. كانت الأرواح طاهرة، والنفوس مطمئنة مؤمنة، والقلوب مفعمة بحب الخير والإصلاح. وكان الجو جو ثورة عارمة: تقوم اليوم على الإصلاح، وتقوم غداً لا محالة على السلاح.

«ووقف- عبد الحميد بن باديس- عظيماً، هائلاً، شامخاً كالطود الأشم، وقد هيمن بشخصيته الفذة وبساطته المثالية وتواضعه الجم، على ذلك الاجتماع، وقد أعجب به خصمه كما أعجب به أصحابه ومريدوه. وما هي إلا جولة من الأحاديث البسيطة والخطب الهادفة والمركزة، حتى جاء دور انتخاب الهيئة الإدارية التي صادق عليها كبار العلماء. ففازت بإجماع الحاضرين. وتمت المصادقة على القانون الأساسي بإجماع مماثل. وأصبح ابن باديس رئيسا لجمعية العلماء المسلمين الجزائرين».

هكذا نشأت «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين». ولم تعرف الحكومة الافرنسية كيف تجابه هذا الموقف الجديد، واكتفت في البداية بالاشارة إلى الحدث؛ فكتب «جون وكشان» في مجلة «فرنتيار» الباريسية يقول تعليقاً على جمعية العلماء ومساعيها، بعد أن تكلم عن شخصيات ابن باديس والعقبي والإبراهيمي، ما يلي: «إن هؤلاء الثلاثة قد تعلموا بالشرق، فابن

باديس بتونس، والعقبي بالقاهرة ومكة، والإبراهيمي بتونس ودمشق، وتشبعوا جميعاً بفلسفة الوحدة الإسلامية فكانوا من أقطابها. إنما علينا أن نضيف إليهم الشيخ أحمد توفيق المدني- أحد قدماء الزعماء الدستوريين المليين والذي هو على علاقة متينة جداً مع الأمير الشهير شكيب أرسلان زعيم جماعة السوريين والفلسطينيين، وعدو فرنسا الألد».

وكتب «شارل روبير»[1]: «تأسست جمعية للعلماء المصلحين منذ سنة ١٩٣١، وضمت ثلاثة عشر عالماً، من بينهم مبارك الميلي وتوفيق المدني، وهما أول من ألف في التاريخ الوطني الجزائري باللغة العربية. وهكذا ولدت الملية الجزائرية. فكتاب التاريخ الوطني الذي ألفه الشيخ المدني ،وهو كتاب«الجزائر- ١٩٣١ - » الذي طبع على نفقة الأمة الجزائرية. كان كتاباً يحمل على غلافه شعار جمعية العلماء، الإسلام ديننا، الجزائر وطننا، العربية لغتنا. وخلقت في الجزائر كلمات تحمل معاني جديدة في اللغة العربية، مثل كلمة وطن وكلمة الشعب وكلمة الأمة الجزائرية. وهذه الملية الجزائرية الجديدة مثلها كمثل كل الحركات الملية في بلاد الشرق الأدنى، متصلة اتصالاً وثيقاً بالحركة العربية الإسلامية التي انطلقت من مؤتمر القدس الأول الذي عقد سنة ١٩٣١».

لم تقف الإدارة الافرنسية في الجزائر مكتوفة اليدين أمام هذا

---

(1) histoire de l'algérie contemporaine(CH, Robert ageron) que sais je ? no 400 p. 88

التحول، فأخذت ـ على عادتها ـ في الدس لجمعية العلماء المسلمين والكيد لها. وجاءتها فرصة مؤاتية عندما تصدى الشيخ الطيب العقبي ـ في درس من دروسه الاسبوعية ـ للهجوم على الطرق والطرقيين. وكان القاسمي والشيخ بن عليوه وهما من كبار مشايخ الطرق حاضرين، فانسحبا. وانفصل شيوخ الطرق عن الجمعية وأخذوا في العمل لتأليف جمعية (علماء السنة). واغتنمت الإدارة الاستعمارية تلك الفرصة، فعملت على مساعدة الجماعة على تنظيم جمعيتهم، وأعانتهم بواسطة رجالها على بث دعاياتهم، وما فتئت الحرب القلمية أن أعلنت شديدة قاسية بين الطرفين. تمثل جماعة العلماء فيها جريدة «المرصاد» التي كان يحررها محمد عبابسة. وتمثل جماعة المرابطين ورجال الطرق جريدتهم المعروفة «البلاغ الجزائري». وارتاحت الإدارة الافرنسية إلى أنها تمكنت بهذه الوسيلة من خلق انشقاق خطير سيأتي على جمعية العلماء. غير أن الطبقة الواعية في «جماعة العلماء» تمكنت من «رأب الصدع» وإيقاف المهاترات و«الحرب الكلامية» ومضت على طريق العمل والبناء.

جاء تأسيس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» ليضع حداً فاصلاً وحاسماً بين ماضي الجزائر، وهي تحت النير الاستعماري، وبين حاضرها الذي أشرق زاهياً في ميدان النهضة الإسلامية ـ العربية. ولقد كان ذلك الحاضر الجديد هو الأساس الراسخ المتين الذي بني عليه المستقبل، مستقبل الجزائر تحت راية الحرية والاستقلال، وبسيل من دماء المجاهدين الأبرار وقوافل الشهداء الأخيار.

كان تأسيس جمعية العلماء حدثاً تاريخياً لأنه عمل على تنظيم تيار جارف أمكن له تغيير أوضاع الجزائر دينياً وعلمياً وأخلاقياً واجتماعياً. وكانت تبث في كل وسط وفي كل مكان، روح الإيمان الخالص والوطنية الحقة وأخلاق الفضيلة والرجولة الكاملة. فتبعث في نفس المسلم الجزائري كل ما حفل به الإسلام من فضائل معنوية تدفع إلى العزة بالله والقوة بالاعتصام بدينه الحق. وانتهت، بتأثير جمعية العلماء، كل نظريات الاستعمار بشأن التجنس ونبذ الدين وأحكامه مقابل الحصول على حقوق وهمية. وانقاد النواب السياسيون- طوعاً أو كرهاً- إلى ما أصبح يطلق عليه شعار «الحصول على الحقوق الافرنسية، دون التنازل عن الحالة الشخصية الإسلامية».

وتحول هؤلاء النواب السياسيون، فبعد أن كانوا حتى الأمس من دعاة التجنس بالجنسية الإفرنسية- التفرنس- باتوا اليوم وهم يرفعون مطالبهم الفردية والجماعية باستقلال الدين الإسلامي عن الحكومة. وبإدخال اللغة العربية بصفة إلزامية- إجبارية- ضمن المناهج الدراسية. وتعاظم الوعي الديني في أوساط الجماهير. وأحبطت أساليب الطرقية وبدعها وأساطيرها. واتجه التيار الإسلامي نحو فهم الدين فهماً حقيقياً بالعودة إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وظهرت في الجزائر من جديد الاخوة الحقيقية التي تربط المسلم بأخيه المسلم. وتوثقت عرى أخوة الإصلاح الإسلامي الذي شاركت فيه كل العناصر، واعتنقته كل الطبقات في كل الحواضر والبوادي.

* * *

جانب من قاعة النادي أثناء اجتماع العلماء المسلمين في الجلسة الاولى: 1 ـ مبارك الميلي ـ 2ـ عبد القادر بن زيان ـ 3 ـ العربي التبسي ـ 4 ـ الأمين العمودي ـ 5 ـ عبد الحميد بن باديس ـ 6ـ الطيب العقبي ـ 7ـ محمد سعيد ايت جر ـ 8ـ محمد خير الدين ـ 9 ـ السعيد الزاهري ـ 10ـ يحي حمودي ـ 11ـ عبد اللطيف سلطاني ـ 12 ـ الجيلالي الفارسي.

بات من المحال فصل الدين عن السياسة. فالمطالب السياسية تعبير عن تطلعات الجماهير. والجماهير تعتمد في قاعدتها على العقيدة الإسلامية وعلى العروبة، والسلطة الافرنسية تلقي بكل ثقلها لمحاربة الإسلام والعروبة. وكان لا بد في النهاية من حدوث الصدام الذي تم التعبير عنه باستقالة (٩٥٠) نائباً جزائرياً مسلماً بصورة إجماعية من كل المجالس البلدية والمالية والنيابية التي يشغلونها، ووقف الاستعماريون الافرنسيون لمواجهة التيار وشعارهم: «إن كل ما يناله المسلم الجزائري ينتقص من حقنا. فالجزائري محكوم. وعليه أن يطيع النظام».

وعلى أثر ذلك، جاء وزير الداخلية الإفرنسي- رينيه- لزيارة الجزائر[١]: وضرب المستوطنون والإدارة الافرنسية نطاقاً حوله، فلم يسمحوا له الاتصال بممثلي الجزائر، وأوهموه أن الجزائر تسير على طريق الثورة. فطرح مقولته: (الأمن قبل كل شيء). وعاد إلى فرنسا بعد أن أصدر قانوناً زاجراً يستطيع أن يلهب جلد كل مجاهد جزائري، مهما كان لونه، بسوط من حديد. وأخذت وطأة الإرهاب تتزايد ثقلاً وشدة، وأخذ العنف يزداد غلواً كلما أمعن المسلمون في الشكاية. وجاءت سنة ١٩٣٦، ونجح في الانتخابات الافرنسية تكتل الشمال الذي ضم الراديكاليين والشيوعيين والاشتراكيين. وتشكلت (حكومة الجبهة الشعبية) برئاسة (ليون بلوم).

قابل المسلمون ذلك بحركة شعبية واسعة، وعقدوا مجموعة من

---

(١) جرت هذه الزيارة في صيف سنة ١٩٣٥.

اللقاءات والاجتماعات انتهت باتخاذ قرار لعقد مؤتمر عام لأول مرة في تاريخ الجزائر، يضم النواب كافة والشيوعيين ومناضليهم والمسلمين ومجاهديهم وجماعة من العلماء باسمهم الخاص، لا بصفتهم أعضاء بجمعية العلماء. وتبنى النواب أمام هذا الإجماع الرائع مطالب «جمعية العلماء». واجتمع المؤتمر يوم ٧ حزيران ـ يونيو ـ ١٩٣٦. وتقرر بالإجماع إسناد الرئاسة للشيخ ـ عبد الحميد ابن باديس ـ احتماء بمركزه الديني وقيمته العلمية وسمعته العالمية. ثم طرحت المشاريع، واتفق الجميع على أن تكون المطالب كالتالي:

١ ـ إلغاء كل القوانين والقرارات الاستثنائية بالجزائر.

٢ ـ إلغاء الولاية العامة للجزائر، وأن تكون الجزائر تابعة لفرنسا مباشرة.

٣ ـ أن تكون الهيئة الانتخابية بالجزائر واحدة، يشترك فيها المسلمون والأوروبيون، (وبذلك تكون النسبة الكبرى للمسلمين وفقاً لعددهم).

٤ ـ أن يكون للمسلمين الجزائريين نوابهم الذين يمثلونهم بالبرلمان الإفرنسي ـ بباريس.

٥ ـ أن يكون الجزائريون فرنسيين بصفة تامة، مع بقائهم متمتعين بالحقوق الشخصية الإسلامية.

٦ ـ الإستقلال التام للدين الإسلامي، كاستقلال الأديان الأخرى، والإنفاق عليه من أموال الأوقاف المسترجعة التي

اغتصبتها فرنسا منذ أوائل عهد الاحتلال.

٧ ـ اعتبار اللغة العربية لغة دراسة بالمدارس الجزائرية. كما تقرر إرسال وفد كبير لباريس. يتدارس مع حكومتها هذه المطالب، وفي الوفد رجال الشعب من علماء ونواب ومفكرين، برئاسة عبد الحميد بن باديس.



٣ـ مدافع الله ونهاية رحلة العمر

سافر الوفد الوطني الجزائري برئاسة عبد الحميد بن باديس إلى فرنسا، ليطلب من حكومة «دلادييه» تنفيذ مرسوم ٢٧ أيلول - سبتمبر ـ ١٩٠٧، القاضي بفصل الدين عن الدولة، بالإضافة إلى بقية المطالب التي سبق عرضها. وجرت مناقشات في هذا الصدد أظهر فيها الشيخ عبد الحميد تمسكه بما تم الاتفاق عليه من مطالب ـ تمثل الحد الأدنى لتطلعات الجزائريين المسلمين. **وعندئذ حاول «دلادييه» إرهاب الشيخ عبد الحميد، فقال له: «لدى فرنسا مدافع طويلة» فرد عليه الشيخ عبد الحميد: «يوجد لدينا مدافع أطول». وعندما تساءل «دلادييه» عن نوع المدافع التي يملكها الجزائريون، أجابه ابن باديس بكل حزم ورباطة جأش: «إنها مدافع الله».**

وبعد ذلك، تدخل «ليون بلوم» فاقترح مقابل مطالب المسلمين المرفوضة، توسيع دائرة الناخبين الجزائريين ضمن الهيئة الانتخابية الافرنسية بالجزائر، وذلك بإدخال (٢١) ألفاً من النخبة

ضمن الافرنسيين الذين كان عددهم (٢٠٢,٧٥٠) ناخباً. لكن النواب الافرنسيين احتجوا وأعلنوا أنهم يستقيلون جميعاً إذا ما تم هذا الإجراء. وتبعهم عمداء المدن (محافظوها) فأعلنوا مثل ذلك. وتمخض جبل الحكومة الافرنسية عن ولادة فأر هزيل: رفع عدد نواب المسلمين بمجلس النيابات المالية من ٢١ نائباً مسلماً، الى ٢٤ نائباً مسلماً مقابل (٤٨) نائباً فرنسياً. وقال «مسيو سارو» وزير الداخلية الافرنسي، تعليقاً على تهديد المستعمرين: «أشهد أنه ليس لهؤلاء السادة لا وطنية ولا ضمير ولا فكر».

عاد الوفد الجزائري إلى الجزائر وهو يحمل خيبة أمل مريرة، وأنشد عبد الحميد قصيدته الرائعة:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

ومضى الشيخ عبد الحميد في توجيه قادة الجزائر وشبابها نحو المخرج الحقيقي: «لا تتغير السياسة الاستعمارية بالجزائر، عن طريق وفود تذهب إلى فرنسا، ولا بلجان تبعثها الحكومة العليا - حكومة باريس- إلى الجزائر. ذلك أن حكومة الجزائر الاستعمارية أقوى من حكومة فرنسا ذاتها هنا... فلا تغيير لوضع تريد بقاءه في الجزائر. فالوفود إذن لا تستطيع أن تغير شيئاً، ولكن الشعب الجزائري هو الذي يستطيع أن يغير كل شيء، **ومتى نفض الشعب عن نفسه غبار الجهل والغفلة، وأدرك وجوب تسيير شؤونه بنفسه، وأخذ يضع كل شيء موضعه، لم يجد أين يضع الاستعمار إلا حيث توضع الأطمار البالية**».

واستمر عبد الحميد في نفخ رماد الحرية، مردّداً مقولته المعبرة عن استيائه من أن يرى الاستعماريين وهم يحتفلون كل عام بعيد حريتهم (عيد الثورة الافرنسية ١٤ تموز- يوليو- ١٧٨٩) لا في فرنسا وحدها، وإنما في كل وطن تستعمره فرنسا. في حين كان وطنه ومواطنوه محرومين من هذه الحرية ، فكانت مقولته الرائعة: «**أيتها الحرية المحبوبة! يا من تحتفل بأعيادك الأمم، وتنصب لتمجيدك التماثيل، ويتشادق بأمجادك الخطباء، ويتغنى بمحاسنك الشعراء، ويتفنّن في مجاليك الكتّاب، ويتهالك من أجلك الأبطال، وتسفك في سبيلك الدماء، وتدكّ لسراحك القلاع والمعاقل، ولكن أين أنت في هذا الوجود؟ كم من أمم تحتفل بعيدك وقد وضعت نير العبودية على أمم وأمم... وكم من قوم نصبوا لك التماثيل في الأرض وقد هدّموك في القلوب والعقول والنفوس، فأين أنت أيتها الحرية المحبوبة في هذا الورى؟ أنت أنت الحقيقة الخفية، خفاء حقيقة الكهرباء. أنت أنت الروح السارية في عالم الأحياء . ولئن خفيت بذاتك ، فقد تجلّيت على منصة الطبيعة في بسائط الأرض وأجزاء السماء . فأبصرتك عيون اكتحلت بأثمد الحقيقة. واقتبست منك عقول صقلت بالعرفان. واحتضنتك صدور أنيرت بالإيمان، وتذوقتك نفوس ما عبدت إلا الله، وخدمك قوم آمنوا بالله وصدقوا المرسلين.. آه.. آه.. أيتها الحرية المحبوبة. واشوقاه إليك، بل واشوقي إليهم ـ حملة الحرية ـ المحيا محياهم، والممات مماتهم، أنقذ الله بهم بلادك واحيا عبادك. إننا أعداء أعداء الحرية، وأحباب أحبابها، سواء كانوا من أهل البرانيط، أو من**

كانوا من أهل البرانيط، أو من أهل البـرانيس»[١].

إنها دعوة إلى الثورة، ونداء إلى حمل السلاح والاحتكام إليه. غير أن الدعوة مفتوحة، والنداء مؤجل. فلا زالت أرضية الثورة غضة، ولا زالت ظروفها الدولية والمحلية غير مؤاتية. وإذن فليستمر العمل لإنضاج الثورة على نار هادئة. وهذه النار الهادئة هي تطوير الفكر الثوري بالعلم والمعرفة، حتى لا تضيع التضحيات سدى، وحتى لا تسيل الدماء هدراً. وعلى هذا يمضي ابن باديس، محدداً للمفاهيم الصحيحة، مقوماً للأفكار الخاطئة، مهاجماً للآراء المستوردة أو المدسوسة والتي يمكن لها تشويه البناء الثوري.

ويتحدث ابن باديس عن «العروبة» فيلمس فيها المقومات التي تهبها الخلود، مهما تلبدت الظروف السياسية من حولها، واختلف العرق بالمنضوين تحت لوائها. العروبة جوهر خالد، قابل للانبعاث، باعث للأمل. العروبة حقيقة تطفو فوق الملابسات المضللة أو تزييف المستعمر. العروبة نهاية المطاف، مهما طال الشوط، وغاية الغايات مهما تصارعت الوسائل. إن الظروف العصيبة التي عاشتها الجزائر، فكادت تطمس فيها معالم الإسلام والعروبة، لم تزد المصلح الكبيرـ وهو يعيشهاـ إلا تعلقاً بالمرامي البعيدة التي تعامى عنها الدخيل. وإيماناً بالغد العربي الأكبر الذي كفر به المستعمر، وكاد يكفر به المواطن.

---

(١) جريدة «المقاومة الجزائرية» نيسان ـ ابريل ـ ١٩٥٧.

(العرقية) التي يذكيها المستعمر في كل شبر عربي ليمزق بها العروبة والإسلام.

(الطائفية) التي يغذيها ليغذي بصراعها وجوده وتسلطه، هي ذاتها التي ينطلق منها- ابن باديس- حجة على المستعمر وفلسفته، ومنها ذاتها يصبغ العروبة بصبغتها الأصيلة التي تتنزه عن العرقية وتتعالى على الطائفية- وها هو يقول:

«تكاد لا تخلص أمة من الأمم لعرق واحد، وتكاد لا تكون أمة من الأمم لا تتكلم بلسان واحد. فليس الذي يكون الأمة، ويربط أجزاءها، ويوحّد شعورها، ويوجهها إلى غايتها، هو هبوطها من سلالة واحدة. وإنما الذي يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد. ولو وضعت أخوين شقيقين يتكلم كل واحد منهما بلسان. وشاهدت ما بينهما من اختلاف نظر، وتباعد تفكير، ثم وضعت شامياً وجزائرياً- مثلاً- ينطقان باللسان العربي، ورأيت ما بينهما من اتحاد وتقارب في ذلك كله، لو فعلت هذا لأدركت بالمشاهدة الفرق العظيم بين الدم واللغة في توحيد الأمم- قالها سنة ١٩٣٦».

ولا يذهب- ابن باديس- بعيداً في التماس الحجة وإثبات الدليل، فواقع المستعمر حجة عليه: «وإذا نظرت إلى كثير من الأمم الأوروبية اليوم، وفي مقدمتها فرنسا، فإنك تجدها خليطاً من دماء كثيرة، ولم يمنعها ذلك من أن تكون أمة واحدة لاتحادها فيما تتكوّن به الأمم- سنة ١٩٣٨». والمصلح العربي الجزائري، يستمد تأييده للعروبة من منابعها الأصيلة، ويستلهم فيها رسولها محمد صلى الله عليه وسلم، ويلتزم بذلك في الحديث النبوي

الذي ربط العروبة بالدين واللغة: «**أيها الناس، الرب واحد، والأب واحد، والدين واحد، وليست العروبة بأحدكم من أب ولا أم، ولكنها اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي**».

وما كانت هذه الصرخة التي انبرى لها رسول الله، مغضباً يجر رداءه، ونادى لها «الصلاة جامعة» إلا رداً حاسماً على التطرف العرقي في (قيس بن مطاطيه) الذي أراد حرمان سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي من شرف العروبة. فيضيف ـ ابن باديس ـ قوله: «كون رسول الإنسانية، ورجل القومية العربية أمته هذا التكوين المحكم العظيم، ووجهها لتقوم للإسلام والبشرية بذلك العمل الجليل. فلم يكوّنها لتستولي على الأمم، ولكن لتنقذهم من سلطة المستولين على مقدرات العباد باسم الملك أو باسم الدين. ولم يكوّنها لتستخدم الأمم في مصالحها، ولكن لتنهض بهم من دركات الجهل والذل والفساد إلى درجات العز والصلاح والكرامة. وبالجملة لم يكوّنهم لأنفسهم بل للبشرية جمعاء».

ويعود ابن باديس، فيطلق لسانه بالدعاء الصاعد من أعماق نفسه، مبتهلاً الله في أن يحييه لخدمة العروبة، وأن يميته في خدمتها، مقتفياً بذلك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول: «**هذا هو رسول الإنسانية، ورجل القومية العربية، الذي نهتدي بهديه، ونخدم القومية العربية خدمته، ونوجهها توجيهه، ونحيا لها ونموت عليها، وإن جهل الجاهلون وخُدع المخدوعون واضطرب المضطربون ـ سنة ١٩٣٦**».

ركّز الاستعمار الافرنسي هجومه على اللغة العربية لضرب المسلمين بعضهم ببعض، وعزل الذين يتحدثون اللغة البربرية- المازيغية- واتخاذهم بطانة له وأعواناً لتنفيذ سياسته- وقد سبق عرض هذه السياسة بشيء من الإسهاب-. وتصدى- ابن باديس- لهذه الحملة الفاسدة المفسدة، ودأب عمره، يصل الليل بالنهار لبعث الجزائر العربية المسلمة. وقد دخل الميدان الإصلاحي والإسلام ضلالات ما أنزل الله بها من سلطان، والعروبة لا يكاد يرتفع لها صوت في ديار الجزائر. فرابط في واجهته «بالجامع الأخضر» مرابطة الجندي المجهول. وآمن بالأبعاد التي عشيت عنها فلاسفة الاستعمار، حتى أعاد شعبه إلى سواء السبيل، وأنقذه في الوقت المناسب، مما كان يراد له من تشتّت وفناء، وقال في ذلك: «لو جئنا- شعبنا- بعد عشرين سنة لما أدركنا فيه قابلية للعلاج. ولكن الله أراد خيراً بهذا الشعب، بعث فيه من آمن بنشوره، بعد إيمان الكثير بموته».

لقد كان- ابن باديس- على موعد مع قدره، وكان قدره هو قدر شعبه، فمضى بجولته من الصفر، بل من الصفر المركب. فلم يكن هناك كفر، ولكن إسلام مشوّه. لم يكن هناك جهل فحسب، بل ثقافة دخيلة مسمومة. لم يكن هناك شعب ألقى حبله على غاربه. ولكن، كان هناك الشباب الجاهل فقط، الشباب المشوّه الثقافة واللسان، المفصول عن تاريخه وحضارته، والمتصل- بانقطاع تاريخي- مع الرومان والغول أجداد الافرنسيين. مما كان يروّجه دهاقنة الاستعمار ومبشروه. فوقف ابن باديس ليؤكد أصالة الجزائر في عروبتها، وأصالة العروبة في

جزائر المسلمين، وأطلق مقولته:

«لقد تعرّبت الأمة الجزائرية تعرباً طبيعياً، اختيارياً، صادقاً، فهي في تعربها نظيرة إسماعيل جد العرب الحجازيين. فقد كان من العرب لما شبَّ في مهدهم ونطق بلسانهم، وتزوّج منهم، وليس تكون الأمة بمتوقف على اتحاد دمها. ولكنه متوقف على اتحاد قلوبها وأرواحها وعقولها، اتحاداً يظهر في وحدة اللسان وآدابه واشتراك الآلام والآمال» سنة ١٩٣٨.

تلك هي الأرض الصلدة التي نهض لها ـ ابن باديس ـ يبذر فيها بذور الخصوبة والنماء، وذلك هو المسلك الوعر الذي شقّ فيه طريقه، وتلك هي نقطة الانطلاق لنهضة، ابتدأت بذرة في أرض موات، فغدت أصلها ثابت وفرعها في السماء. ابتدأت حبوة علمية في «جامع سيدي قموش» وانتهت احتفالاً شعبياً بختم تفسير القرآن الكريم في (كلية الشعب) بقسنطينة. وابن باديس، متمسّك في مسيرته الشاقة بثلاث دوائر متداخلة متشابكة لا تعرف الانفصام ولا التجزئة، ولا تكتمل الصورة إلا بها جميعاً، ودون طغيان من إحدى هذه الدوائر على الدوائر الأخرى، أو توسع بعضها على حساب البعض الآخر، وهذه الدوائر هي: الجزائر والعروبة والإسلام (أو بترتيب معاكس سيان في ذلك طالما أنه ضمن تحقيق التوازن فيها). فهو إذ يقيم نهضته، يقيمها بمقدار ما أعطى لهذه الدوائر الثلاث من تلاحم ثابت ودائم. و(عروبة الجزائر) عند باعث نهضتها، ليست عروبة خطابة أو تهريج، أو حماسة جوفاء، إنه وهو يذكّيها بأنفاسه الملتهبة، ويرويها من عرقه المتصبّب

ويرعاها العشرات من السنين، يعطيها من الدراسة النظرية حقها، ويستمد لها من التاريخ العميق أصالتها. ويواجه أعداءها المتنكرين أو الناكرين لها، مواجهة الحجة بالحجة، ويقف من عروبة الجزائر موقفه من العروبة عامة. لا ينكر ما أثبته التاريخ من- أصل مازيغي- لسكان الجزائر القدماء. لأن العروبة الإسلامية فوق السلالات: «ما من نكير أن الأمة الجزائرية كانت مازيغية من قديم عهدها، وأن أمة من الأمم التي اتصلت بها، ما استطاعت أن تقلبها عن كيانها، ولا أن تخرج بها عن مازيغيتها أو تدمجها في عنصرها وفي عصر ظهورها، بل كانت هي التي تبتلع الفاتحين فينقلبون إليها، ويصبحون كسائر أبنائها... **فلما جاء العرب وفتحوا الجزائر فتحاً إسلامياً لنشر الهداية لا لبسط السيادة، دخل الأمازيغ من أبناء الوطن في الإسلام، وتعلّموا لغة الإسلام العربية، طائعين، فوجدوا أبواب التقدم في الحياة كلها مفتحة في وجوههم، فامتزجوا بالمصاهرة. وثافنوهم في العلم، وشاطروهم سياسة الملك وقيادة الجيوش. وقاسموهم كل مرافق الحياة، فأقام الجميع صرح الحضارة الإسلامية، يعربون عنها، وينشرون لواءها بلغة واحدة هي: لغة القرآن.** فاتحدوا في العقيدة والنحلة، كما اتحدوا في الأدب واللغة. فأصبحوا شعباً عربياً واحداً، متحداً غاية الاتحاد، وممتزجاً غاية الامتزاج، وأي افتراق يبقى بعد أن اتحد الفؤاد، واتحَدَ اللسان:

لسان الفتى نصف، ونصف فؤاده

فلم تبق إلا صورة اللحم والدم

واليوم، فإن اللغة العربية والآداب العربية هي لسان الأمة الجزائرية كلها، لا يجهلها إلا عدد قليل من المنقطعين في بعض رؤوس الجبال. ولا تستعمل اللغة المازيغية إلا في بعض النواحي القليلة استعمالاً شفاهياً محلياً. ثم اللغة العربية هناك لغة الكتابة والخطابة والتعليم والتخاطب العام.

ولو رأيت «الجامع الأخضر» في قسنطينة ، لرأيت أبناء الجزائر من جميع جهاتها، وفيهم من يتقنون المازيغية، يتزاحمون على مناهل العربية العذبة، ويتسابقون إلى الفوز في ميادين بيانها الفسيحة، ويتعاونون على بناء صرحها، ورفع منارها، ويستعذبون في سبيل المحافظة على تراثهم منها كل مر. ويستسهلون في سبيل تبليغه لغيرهم كل صعب. لو رأيت هذا لعرفت كيف كانت هذه الأمة الجزائرية أمة عربية واحدة، فحكمت بالجهل المطبق، أو الكيد المحقق على كل من يقول فيها غير ذلك».

ويستمد- ابن باديس- الحجة التي تبكت المستعمر، من واقع المستعمر ذاته، ليدحض دعوى البربرية التي تحدوه، ويشنع عليه احتجاجه بحالة في الجزائر، وتغافله عن مثيلة لها في فرنسا. فيفضح فيه التزييف المتعامي، والمغالطة المضللة: «تشكل فرنسا أمة واحدة. . . وعلى الرغم من ذلك، فإنك تجد في قرى من دواخل فرنسا وأعالي جبالها، من لا يحسن اللغة الافرنسية، ولم يمنع ذلك القليل- نظراً للأكثرية- من أن تكون فرنسا أمة واحدة.. وهذه الحقيقة الموجودة في فرنسا، يتعامى الغلاة المستعمرون

عنها هنا في الجزائر. ويحاولون، بوجود اللغة المازيغية في بعض الجهات وجوداً محلياً، وجهل عدد قليل جداً بالعربية في رؤوس بعض الجبال، أن يشكّكوا في الوحدة العربية للأمة الجزائرية، التي كوّنتها القرون وشيّدتها الأجيال- سنة ١٩٣٨».

ولم يتجن- ابن باديس- بقوله هذا على الواقع الجزائري، بل نقله نقلاً أميناً صادقاً، فلم تُفرض اللغة العربية على الناطقين بالمازيغية. ولكنها نبعت من قلوبهم، وفجرها الإسلام، فلا بدعة أن يقف الفتى الزواوي- با عزيز بن عمر- ليقول عن العروبة: «وإننا لنشعر من قبل ومن بعد، بدم العروبة يجري في عروقنا، وهو صاف لم يمازجه كدر وان اختلف المظهر. ونسمع صوتها الحنون يرن في آذاننا. فنفتح له الطريق إلى قلوبنا وأعماقنا. فالعربية حية فينا. ونحن أحياء فيها ما دامت السموات والأرض».

إن (عروبة الجزائر) عروبة تاريخ وحضارة، لها أيامها المجيدة، ودولها العريقة، ولن يقوم أمر الوطن الجزائري إلا بها، و- ابن باديس- حين يذكر هذا التاريخ، إنما يحدو شعبه إلى مستقبل أفضل يستمد عراقته وأصالته من التاريخ العربي لهذا الوطن: «لبس أبناء الجزائر العروبة، وامتزجت بأرواحهم، وتغلغلت في قلوبهم، وأشرقت شمس معارفها في آفاق أفكارهم، وجرت ينابيع بيانها على أسلات ألسنتهم، فأصبحوا ومنهم فيها علماء وخطباء وشعراء، ولهم منها جنود وقوّاد وأمراء. وحسبك من كثرتهم القائد الفاتح والخطيب المصقع- طارق بن زياد - ثم ما قامت مملكة من أبناء الوطن إلا وهي عربية في كل شيء. مثل

سائر الممالك العربية في المشرق ، بل فوق بعضها- سنة ١٩٣٨» .

كان من عادة- ابن باديس- التي عرفت عنه، أنه يحتفظ بالكلمة الفاصلة لليوم الحاسم، ويخفي سرّها في صدره، ويطيل الصمت. فإذا نطق، قطعت جهينة قول كل خطيب. يقف من الأحداث موقف المتتبع الصامت، حتى إذا بلغت ذروة التعقيد والتشابك، وأصبح الموقف موقف مصير، صدع بقولة الحق التي تسمو فوق كل الاعتبارات. وقد ظهر منه هذا الموقف سنة **١٩٣٨**، عندما احتدم صدام فكري قومي بين الأمير شكيب أرسلان وسليمان باشا الباروني في قضية (الوحدة العربية). فتدخل- ابن باديس- وأسفر مرة أخرى عن وجه عربي صميم، فقال القول الفصل في القضية، وتجرأ به في دنيا التضليل والتهريج، وعالم من الجبن والاستكانة. هكذا كان شأنه في القضية المصيرية. وأضافها للتاريخ وقفة بطولية، أبان فيها رأي الخبير بواقع العالم العربي. وأفصح عن القول الجريء: «**إن دولاً لا تسوس نفسها بنفسها، ولا تشق طريقها على ضوء مصلحتها، لا يمكن تصور وحدة عربية بينها. إن الوحدة السياسية لا تكون إلا بين شعوب تسوس نفسها. فتضع خطة واحدة تسير عليها في علاقاتها مع غيرها من الأمم، وتتعاقد على تنفيذها، وتكون كلها في تنفيذها والدفاع عنها يداً واحدة، فهي مقتدرة على الدفاع عنها، كما كانت حرة في وضعها. وأما الأمم المغلوبة على أمرها. فهي لا تستطيع أن تضع أمراً لنفسها، فكيف تستطيع أن تضعه لغيرها؟ ولا تستطيع أن تدافع عن نفسها، فكيف تستطيع أن تدافع عمّا تقرره**

مع غيرها؟ وإذا لم تستطع أن تعتمد على نفسها في داخليتها فكيف يعتمد عليها في خارجيتها. فالوحدة السياسية بين هذه الأمم، أمر غير ممكن، ولا معقول، ولا مقبول».

وابن باديس مؤمن «بالرابطة القومية» الخالدة قدر إيمانه باستحالة تحقيق «الوحدة السياسية» بين شعوب لا تملك أمر نفسها، وهو إذ يقف هذا الموقف المزدوج، إنما يبصر الشعب العربي بواقعه السياسي المؤلم الذي يقف حجر عثرة في سبيل إعطاء الوحدة الأصيلة مظهراً سياسياً، وفي إنكار ـ ابن باديس ـ لهذا الواقع، دعوة صارخة للثورة عليه، والملاقاة على صعيد الروابط العربية الثابتة والدائمة: «هذه الأمة العربية، تربط بينها ـ زيادة على رابطة اللغة ـ رابطة الجنس، ورابطة التاريخ، ورابطة الألم، ورابطة الأمل، فالوحدة القومية الأدبية متحققة بينها ولا محالة».

ويقف عبد الحميد بن باديس في سنة **١٩٣٨** وقفة القائد العسكري الذي خاض معركته وانتهى منها، وأخذ في إعادة استخلاص الدروس المستفادة من الصراع السابق، استعداداً للجولة التالية. وينتهي ـ ابن باديس ـ من إعادة تقويم الموقف ليقول: «. . . أما اليوم ـ سنة **١٩٣٨** ـ فقد تأسست في الوطن كله جمعيات ومدارس ونواد باسم الشباب والشبيبة والشبان، ولا تجد شاباً ـ إلا نادراً ـ إلا وهو منخرط في مؤسسة من تلك المؤسسات، وشعار الجميع **الإسلام، العروبة، الجزائر**. . . لقد نفضت الأمة عن رأسها اليوم غبار الذل. وأخذت تنازل وتناضل وتدافع

وتعارض، وشعرت بوحدتها، فأخذت تطرح تلك الفوارق الباطلة وتتحلى بحلل الاخوة الحقة، وتنضوي أفواجاً أفواجاً تحت راية **الإسلام والعروبة والجزائر**. لقد شعرت الأمة بذاتيتها اليوم، وعرفت هذه القطعة من الأرض التي خلقها الله منها، ومنحها لها، وأنها هي ربتها، وصاحبة الحق الشرعي والطبيعي فيها، سواء اعترف لها به من اعترف، أم جحده من جحد. وأصبحت كلمة الوطن، إذا رنت في الآذان، حركت أوتار القلوب، وهزت النفوس هزا».

وعرف الشيخ عبد الحميد خطورة المخطط الاستعماري، لعزل أقطار الوطن العربي ـ الإسلامي بعضها عن بعض، وإشغال كل قطر بهمومه ومتاعبه عن هموم إخوانه المسلمين ومتاعبهم في الأقطار الأخرى. وعلى الرغم من أن هموم الجزائر المجاهدة ـ في تلك الحقبة التاريخية بالذات ـ قد تجاوزت في حجمها وأبعادها كل ما كان يعانيه كل قطر عربي ـ إسلامي، إلا أن عبد الحميد يتجاوز هذا الواقع في تطلعاته نحو المستقبل ويكتب كلمة عتاب قد تجرح برقتها وعمقها بأكثر مما تفعله السيوف، وكان في عتابه: «مضت حقبة من الدهر كاد فيها الشرق العربي أن ينسى هذا المغرب العربي». والى عهد قريب كانت صحافة الشرق ـ غالباً ـ لا تذكره إلا كما تذكر قطعة من أواسط أفريقيا. في هذه الأيام يغمط حقه، ويتجاهل وجوده في كتب لها قيمتها، مثل كتاب «ضحى الإسلام» وغيره. ولكن هذا المغرب العربي، رغم التجاهل والتناسي من إخوانه المشارقة، كان يبعث من أبنائه من رجال السيف والقلم من يذكرون به ويشيدون باسمه،

ويلفتون نظر إخوانه المشارقة الى ما فيه من معادن للعلم والفضيلة ومنابت للعز والرجولة. ومعاقل للعروبة والاسلام»[١].

* * *

كل ذلك «وجمعية العلماء المسلمين» ماضية قدماً الى الأمام بفضل توجيه رئيسها الشيخ ـ ابن باديس ـ وذلك لتنفيذ أهدافها الواضحة، وأبرزها:

أولاً: تطهير الدين الإسلامي مما ألحق به الاستعمار من خرافات وبدع، وإيقاد شعلته الوضاءة التي بذل الاستعمار لإخمادها كل جهد مستطاع. ولم يتورع عن اقتراف افظع الجرائم لإطفاء هذا النور الالهي ـ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ـ.

ثانياً: بعث اللغة العربية وإحياؤها بعد أن جد الاستعمار لوأدها ودفن حضارتها.

ثالثاً: العمل بصورة سرية ـ حتى لا تتعرض الجمعية للملاحقات البوليسية التي تشل نشاطها ـ وذلك من أجل خلق تيار تحرري، والوقوف جنباً الى جنب مع الأحزاب الوطنية المنادية بالاستقلال والسيادة. ويبرز هذا الهدف في مقولة ابن باديس: «إن الدولة الجزائرية لم تزل حية طالما أنها محافظة على دينها ولغتها»[٢].

نشأ بنتيجة ذلك صراع عنيف بين جمعية العلماء من جهة،

---

(١) صفحات من الجزائر. (الدكتور صالح خرفي) ص ٧٩ ـ ٩١ و ٣٣٤ ـ ٣٣٥.
(٢) الثورة الجزائرية (أحمد الخطيب) ص ١٢٢ ـ ١٢٧.

والاستعمار الافرنسي ومبشريه وبعض الزوايا والطرقيين من جهة اخرى ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ . وتطور هذا الصراع بعدئذ، ولجأت الإدارة الافرنسية الى استخدام كل ما تختزنه من أسلحة الدس والغدر. فأخذت في تحريض الطرقيين وأصحاب الزوايا (كالعلويين والشاذليين والقادريين) على جمعية العلماء و أتباعها، مخوفة إياهم من السير في ركابها، لأن مباداءهم ستطيح حتماً بمراكزهم الدينية القائمة على التزييف والباطل، وستقطع عنهم الزيارات التي تتوقف عليها رفاهيتهم، وصورت لشيوخ هذه الطرق والزوايا كيف أن موارد عيشهم، ومصادر رفاهيتهم ستزول إذا انتصرت مبادىء جمعية العلماء الإصلاحية. وزينت لهؤلاء الشيوخ فضائل مقاومتهم لهذه الجمعية الناشئة، **واصفة علماءها وأتباعها بالكفر ـ الزندقة ـ لأنهم لا يقيمون الولائم العامة ـ أوكار الدعاية الاستعمارية المسماة بالوعادي ـ ولأنهم لا يزورون الأولياء**. وهذا وتر حساس أجاد الاستعمار في بادىء الأمر الضرب عليه لأن الجزائريين لهم تعلق كبير بالأولياء، حتى إنهم اصبحوا يقيمون على قبر كل رجل صالح قبة، ويولمون على روحه الولائم السنوية. ويقصده الزوار من كل مكان ملتمسين بواسطته الخير والبركة.

وأخذ الاستعمار ـ داخل نطاق سياسته التضليلية ـ بالاساءة الى سمعة الأولياء الصالحين. فراح يختلق الاكاذيب والبدع. مدعياً أن «الولي فلان» يحيي الموتى، ويدخل من يشاء الى الجنة. وأن «ولياً آخر» يختص بشفاء المرضى. . . وهكذا دواليك. .

وكان هدف الدوائر الاستعمارية من ذلك «تأليه أصحاب

القبب». وتضليل المسلمين الجزائريين عن جوهر دينهم حتى يسهل تنصيرهم بعد أن يصور لهم أن الإسلام عبارة عن «دين خرافي». وأسرعت جمعية العلماء لمعالجة الموقف قبل فوات الأوان. فراح علماؤهم يخطبون في الناس هادينهم سواء السبيل، موضحين لهم مبادىء الجمعية التي ما أنشئت إلا للمحافظة على الدين القويم، وحمايته من البدع والأساطير التي ألحقها به المستعمرون الافرنسيون لأغراض خبيثة في نفوسهم. واشتد الصراع حين شعر أفراد من الشعب بفداحة الخطر الداهم على دينهم، إذا لم يأخذوا بيد العلماء الأحرار، ويعملوا على دعمهم. وعرفت الإدارة الاستعمارية أن شوكة العلماء وجمعيتهم تتزايد قوة يوماً بعد يوم، وأن مواعظهم تجد آذاناً صاغية لدى جماهير الشعب. فأصدر سكرتير الأمن العام في الجزائر ـ ميشيل ـ تعليماته المشددة «لمراقبة جمعية العلماء مراقبة دقيقة» و «حرم في هذه التعليمات على غير الإمام أو المفتي المعين من الإدارة الخطبة في الجامع» وحتى يشرف بنفسه على تنفيذ هذه الأوامر، عين نفسه «رئيساً للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية». وبدأ أفراد الشعب يصحون من سباتهم العميق وينضوون تحت لواء جمعية العلماء الآخذ في اكتساح البلاد.

ازداد عويل الاستعمار. وكثرت ضغائنه وأحقاده، ولم يحجم عن تدبير مؤامرة لاغتيال رئيس الجمعية ـ الشيخ عبد الحميد بن باديس ـ. وتعهد بتنفيذ هذه المؤامرة أتباع العلويين إلا أن هذه المؤامرة باءت بالفشل. وقبض أنصار بن باديس على المجرم، وكادوا يفتكون به لولا أن ردد الشيخ عبد الحميد قول النبي

الأعظم صلى الله عليه وسلم: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»

واستمرت جمعية العلماء في جهادها، وهي تصل الليل بالنهار، حتى تبعد خطر الإلحاد عن الشعب. وأبت جمعية العلماء أن ينحصر عملها في قاعدتها «جامع سيدي الأخضر بقسنطينة» فأوفدت البعثات العلمية الى المدن والأرياف، داعية المواطنين الى اقتفاء سيرة السلف الصالح منبهة القوم الى مغبة ما يحل بهم، إذا هم ساعدوا الاستعمار الافرنسي بطريقة غير مباشرة على نشر سياسته الإلحادية. وقد صادفت هذه البعثات في طريقها عقبات ومشقات، وتحملت عذاباً وإهانات كالها عليها البوليس الإفرنسي وأنصاره. إلا أنها خاضت جميع هذه المخاطر بإيمان قوي وعزيمة صلبة.

يمكن هنا وفي مجال التعرض لأساليب الإدارة الإفرنسية في محاربة جمعية العلماء، ذكر حادثة مقتل «الشيخ ابن دالي عمر - الملقب بـ : كحول» والذي كان الافرنسيون قد نصبوه إماماً للمسجد الأكبر بالعاصمة - الجزائر - فعلى أثر عودة ابن باديس ووفده من باريس، دفعت فرنسا بهذا الشيخ لإرسال برقية الى الحكومة الافرنسية «تتضمن عبارات قاسية ضد الوفد، والمؤتمر الذي عقده العلماء، ويتبرأ منهم، ويؤكد إخلاص المسلمين لفرنسا وموالاتهم لها». وأعقب ذلك تعاظم النقمة ضد هذا الذي انتحل لقب «مفتي الجزائر». فبات رجل الشارع الجزائري يوجه أبشع الإهانات واقذعها لهذا الخائن. وزاد الموقف توتراً بسبب

إقدام الشيخ الطيب العقبي على قيادة الحملة ضد «كحول». وارادت الإدارة الافرنسية ضرب عصفورين بحجر واحد، **فأعدت** قاتلاً محترفاً وجهته لقتل الشيخ كحول، واتهمت في الوقت ذاته جمعية العلماء بتدبير جريمة القتل. وتم اعتقال «الطيب العقبي» وألقي به في السجن.

وأشاعت الإدارة الافرنسية في الوقت ذاته إشاعات مضادة لجمعية العلماء «التي تنظم جرائم القتل والتصفيات الجسدية للتخلص من خصومها ـ على ما زعمته الإدارة الافرنسية». وكان لهذه الدعاية دورها في تساقط ضعاف النفوس. وفي مقدمتهم نائب قسنطينة الدكتور ابن جلول الذي أظهر تخاذله أمام قوة الهجمة فنكص على عقبيه وتنكر لأصحابه وشيعته. وقال: «إنه لا يشترك في حركة تعمد الى القتل وإغماد الخناجر في قلوب المعارضين». وأدركت جمعية العلماء، وأعضاء نادي الترقي خطورة الموقف، فتم عقد اجتماع تقرر فيه الاعلان عما يلي:

أولاً: إن العقبي ذهب ضحية غدر إداري ومؤامرة استعمارية دنيئة.

ثانياً: إن الإدارة الاستعمارية لا تقصد بعملها هذا النيل من الشيخ العقبي، وإنما تريد تمزيق جمعية العلماء.

ثالثاً: إذا نجحت الإدارة الاستعمارية في الوصول الى هدفها، فانها ستدمر الحركة الإسلامية من خلال إضعاف «جمعية العلماء».

رابعاً: على الجمعية دعم الشيخ العقبي بكل قوة والدفاع عنه بكل ما يتوافر للجمعية من قدرات مادية ومعنوية، لإظهار براءته. والصاق التهمة بمرتكبها الأصلي «الإدارة الافرنسية».

خامساً: القيام بحملة توجيهية لدحض مقولات «دعاة الهزيمة» و «دعاة السوء» وإحباط مخططات الأعداء الظاهرين والمستترين الذين يحاولون طعن جمعية العلماء ونادي الترقي من الخلف ومن الأمام. والمحافظة على جمعية العلماء، ومتابعة عملها بانتظام.

وتم تعيين محام للدفاع عن العقبي. ومضت أشهر قليلة على الصراع ظهرت بعدها الحقائق واضحة، واعترف القاتل ـ عكاشة ـ بفعلته، واطلق سراح العقبي. غير أن الإدارة الافرنسية نجحت في إسقاط الشيخ العقبي بشباكها، وأخذت في استخدامه لتنفيذ مخططاتها داخل جمعية العلماء. وظهر ذلك في أكثر من مناسبة. كانت الأولى عندما عقدت الجمعية اجتماعاً لها لتوحيد الجهد مع الزعماء السياسيين، فوقف العقبي ليقول: **أنتم رجال الله. أنتم رجال الدين. فما لكم وللسياسة؟ وهؤلاء الزعماء الانتفاعيون، لا تعرفونهم ولا يعرفونكم. هل رأيتموهم في المسجد يصلون معكم؟ هل رأيتموهم في النادي يستمعون معكم الى الإرشاد الإسلامي؟ كلا، لستم منهم وليسوا منكم؟...»**[1]

وكانت المناسبة الثانية، عندما لاحت نذر الحرب العالمية الثانية في الافق، وتعاظمت تهديدات ألمانيا النازية لفرنسا. وفي

---

(١) حياة كفاح (أحمد توفيق المدني) ٢ / ٢٥٤ ـ ٢٦١.

اجتماع للعلماء في تلك الفترة، وقف الشيخ العقبي ليبادر إخوانه العلماء بقوله: «أرى أنه يجب علينا ارسال برقية الى رئيس حكومة فرنسا، نظهر له فيها صدق عواطف الشعب الجزائري، ووقوفه مع فرنسا ضد كل عدوان» وتصدى له كل رجال الجمعية، وخاصة ابن باديس العظيم، الذي قال له: «كيف نكون مع فرنسا وهي التي لم تقم لنا وزناً، ولم تعترف لنا بحق، وأمعنت في إهانتنا واحتقارنا. فكيف تجدنا ساعة الخطر أعواناً وأنصاراً؟ يجب علينا أن نسكت عنها إطلاقاً ولا نقول لها كلمة».

* * *

هنا لا بد من مقارنة موقف الشيخ العقبي بموقف الشيخ التبسي. فعندما اندلعت نار الحرب العالمية الثانية سنة **١٩٣٩**، طلبت الولاية العامة بالجزائر الى مختلف الهيئات والشخصيات الجزائرية أن يعلنوا للناس في الداخل والخارج عن ولائهم لحكومة فرنسا وإخلاصهم لها. وعلى هذا الأساس جاء ضابط كبير في الجيش الافرنسي الى الشيخ العربي التبسي ـ بتبسة ـ يسأله أن يدلي بتصريح يذاع بالاذاعة ـ الراديو ـ وينشر في الصحف. يؤكد فيه تأييده لفرنسا في حربها ضد الالمان. ولكن الشيخ العربي، أرفع وأجل من ان يمكن الاستعماريين من تحقيق هذه البغية الآثمة الدنيئة. فقفل الضابط الإفرنسي خائباً يجر أذيال الفشل. اذ أفسد الشيخ العربي على الاستعماريين خطتهم الرامية الى إخضاع الشيخ عبد الحميد بن باديس كرئيس لجمعية العلماء بواسطة أحد إخوانه. وإثر هذا الحادث، جاء الشيخ العربي الى قسنطينة،

فقصّ على الشيخ ابن باديس القصة. واعقبها سائلاً مداعباً: «لو جاءوك يا شيخ، فماذا كنت تجيبهم يا ترى؟». فاندفع الشيخ عبد الحميد في ثورة مباغتة فقال: «**أما أنا فوالله لو قال الاستعماريون قل: لا إله إلا الله محمداً رسول الله ـ ما قلتها**»[1]: «**إني لن أمضي برقية ـ بتأييد فرنسا ـ ولو قطعوا رأسي، وماذا تستطيع فرنسا أن تعمله؟ إن لي حياتين، حياة مادية، وحياة أدبية روحية. فتستطيع القضاء على حياتنا المادية بقتلنا ونفينا وسجننا وتشريدنا. ولن تستطيع القضاء على عقيدتنا وسمعتنا وشرفنا، فتحشرنا في زمرة المتملقين**»[2].

* * *

وتضيق الصفحات عن احتواء مآثر الشيخ عبد الحميد بن باديس. وهوى السراج الوهاج الذي أشرق نوره على الجزائر، فتغلغل في كل أرجائها. مات الرجل عملاقاً يوم ١٦ شباط ـ فبراير ـ ١٩٤٠ وقد بات ملء السمع والبصر والفؤاد. وماتت بموته مجلته «الشهاب». وخرجت الجزائر المجاهدة تنعي في يوم واحد فقيديها الغاليين الإمام ابن باديس ومجلته.

قيل إنه مات «بسل العظام» وقيل إنه مات «مسموماً». وتعددت الأسباب والموت واحد. غير ان هناك حقيقة بقيت ثابتة وخالدة، لقد مات الوجود المادي لابن باديس غير أنه بقي حياً بحضوره

---

(١) جريدة المقاومة ـ الجزائرية ـ ٢٢ نيسان ـ ابريل ـ ١٩٥٧.
(٢) الجزائر والأصالة الثورية (الدكتور صالح خرفي) ص ٢٣.

المعنوي ـ الروحي ـ ولقد قيلت كلمات كثيرة في رثائه، لعل أصدقها كلمة أخيه في الله وأخيه في الجهاد وخلفه في رئاسة جمعية العلماء الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، الذي كتب ما يلي: «. . . اعتقد أن الراحل، أخي العزيز، لم يكن لأحد دون أحد، بل كان كالشمس لجميع الناس. وأعتقدأن فقده لن يحزن قريباً دون بعيد. وإن أوفر الناس حظاً من الأسى لهذا الخطب، هم أعرف الناس بقيمة الفقيد، وبقيمة الخسارة بفقده للعلم والإسلام، لا للجزائر وحدها. فلهذا بعثت أعزيكم على فقد ذلك البحر الذي غاض بعد أن أفاض. . . وإن كانت التعازي تعاليل لا تطفي الغليل. ولكنها على كل حال تحمل بعض الروح من كبد تتلظى شجناً، الى كبد تتنزى حزناً. وظني في أخي أنه لو كان يعرف عنواني لكان أول معز لأول معزى»[1].

«واحسرتاه ـ رحم الله الراحل العزيز، جزاء ما بث من علم وزرع من خير وثقف من نفوس. ولله ذلك اللسان الجريء، وذلك الجنان المشع، وذلك الرأي الملهم. وانا لفقدك يا عبد الحميد لمحزونون».

(١) كان الشيخ الابراهيمي في هذه الفترة معتقلاً في سجون «الحكومة».

٤ ـ إخوان عبد الحميد في الجهاد

كان الشيخ عبد الحميد بن باديس، كبيراً بنفسه، عملاقاً بإخوانه، فقد التفت حوله مجموعة من كبار العلماء كلهم ذوو فضل وسعة في العلم، وكلهم يحمل في أعماقه ايماناً راسخاً وإسلاماً صادقاً وحماسة لا حدود لها لخدمة أهداف جمعية العلماء (الاسلام والعروبة والجزائر).

لقد بات من المسلمّ به أن شخصية الشيخ «عبد الحميد بن باديس» قد هيمنت على الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية لجزائر المسلمين في عقد الثلاثينات (١٩٣٠ ـ ١٩٤٠). وبات من المسلّم به أيضاً أن ظلال الجهود التي بذلت في هذه الفترة، قد أرسلت استطالاتها نحو أفق المستقبل، بفضل الشيخ عبد الحميد ابن باديس وإخوانه المجاهدين في جمعية العلماء. وإذا كانت الظروف الدولية قد جاءت لتعيق تفاعلات الأحداث ـ لا على الصفحة الجغرافية للجزائر وحدها ـ وإنما على الصفحة الجغرافية للعالم، بسبب الحرب العالمية الثانية، فإن تفاعلات هذه

الأحداث قد انطلقت بكل أصالتها، وبكل قوتها مع انتهاء الحرب العالمية الثانية مما يؤكد الدور الحاسم الذي مارسه الشيخ عبد الحميد وإخوانه المجاهدون في بناء القاعدة العملية للثورة.

وليس الهدف على كل حال، إجراء حصر لتلك المجموعة المؤمنة المجاهدة، إذ أنها تتجاوز حدود الحصر والإحاطة، ولكن المهم التوقف قليلاً عند أبرز الجهود المبذولة لإجراء ذلك التحول الحاسم في حياة الجزائر المجاهدة، والانتقال بها من مواقع الدفاع السلبي الى مواقع الهجوم الإيجابي ـ إذا صح التعبير وجاز ـ.

لم يكن من المتوقع ـ في كل الأحوال ـ أن تخمد جذوة اللهبة الثائرة التي أطلقها الشيخ عبد الحميد بن باديس من معاقلها، أو أن تموت بموته. وذلك لمجموعة من الأسباب:

أولها: أن ظهور عبد الحميد قد جاء تتويجاً لتفاعلات بطيئة ومستمرة عبرت عن أصالة الجزائر الثورية. وكانت هذه التفاعلات أوسع من حدود الجزائر. فقد حمل المجاهدون الجزائريون معهم، وبداية من الهجرة الأولى التي ارتحل فيها الأمير عبد القادر وإخوانه الى بلاد الشام، حمل هؤلاء معهم رايات الجهاد في سبيل الله، وأناروا بضيائها عالم العرب المسلمين في المشرق ـ عبر الصحافة والكتب والتعليم ـ وانعكست هذه الأضواء على صفحة الجزائر المجاهدة.

وثانيها: أن الجزائر المجاهدة لم تعدم أبداً وجود القيادات التي تصدت للحملة الصليبية الافرنسية، وكان جهد هذه القيادات وتضحياتها المستمرة، هي مشاعل النور على طريق الجهاد. ولئن

قصرت هذه القيادات عن الارتفاع حتى مستوى الشيخ ابن باديس إلا أنها بجهودها وتضحياتها، مهدت السبيل لظهور جيل «العلماء العمالقة».

وثالثها: أن ظهور عبد الحميد قد توافق مع وجود علماء كبار ـ جيل العلماء العمالقة ـ ومعذرة عن هذا التعبير ـ كانوا كلهم على مستوى الأحداث، حتى لو سقط بعضهم على الدرب ولم يكمل الطريق على نحو ما يحدث دائماً في كل حركة ثوروية أصيلة.

ورابعها: أن الشعب الجزائري الذي هزته الأحداث بقوة وعنف فأيقظته من غفوته، بات مؤهلاً لاختيار طريقه، وأصبح من العسير إعادته الى «قمقمه المغلق». وانتصب الشعب الجزائري عملاقاً قوياً، وانتصبت أمامه قيادة عربية ـ إسلامية ـ. والتقى عاملان أساسيان من عوامل تفجير الأحداث، ولم يبق إلا ظهور العامل الثالث، وهو «توقيت إنفجار الحدث». وجاءت بعد ذلك مسيرة الأحداث لتحدد هذا التوقيت. وهذا ما يبرز بدوره أهمية «إخوان عبد الحميد» وما قاموا به من دور في صنع الأحداث.

أ ـ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

لم يكن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي مجهولاً يوم بدأ حياة الجهاد فوق أرض الجزائر، لقد كان ماضيه الحافل بجلائل الأعمال يتقدم عليه ويسبقه، لقد عرفته عواصم العالم العربي ـ الإسلامي من قبل، في تونس ومصر وبلاد الشام، مجاهداً بالكلمة الصادقة والعلم الصحيح والإيمان العميق قبل كل شيء. ففي سنة

١٩٠٨ ، كان طلاب العلم في دمشق، ينهلون من علمه الغزير في «مكتب عنبر» و «المدرسةالسلطانية». وكان «مكتب عنبر» في تلك الفترة، موئل العلم ومنهل المعرفة ومنارة الهدى لكل الشباب الذين ينتظرهم مستقبل البلاد. وكان أساتذة هذا المعهد خيار من عرفهم العالم العربي الإسلامي، منهم الشيخ عبد القادر المبارك، ومنهم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي قال عنه أحد تلاميذه: **«أعجبنا في الشيخ سعة علمه، وقوة ذاكرته، واستقامة منهجه، حتى ولد في نفوسنا حب اللغة العربية وآدابها»**

ومن دمشق، ينتقل الشيخ الإبراهيمي الى الحجاز، حتى إذا ما انتهت الحرب العالمية الأولى، عاد الى موطنه الأصلي ـ الجزائر ـ ليتابع فيها جهده المخلص، وجهاده الصادق، مواكباً في مسيرته وعلى خط مواز جهد ـ ابن باديس ـ وجهاده. حتى أذا ما أقبلت سنة ١٩٣١، كان لقاء الخطوط المتوازية في «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين». وكان الشيخ الإبراهيمي باستمرار الصخرة الصلدة في مجابهة المخططات الاستعمارية الافرنسية الرامية «لتدمير إسلام الجزائر وعروبتها» وحرمانها من أصالتها الذاتية. وعرضه هذا الأمر لإزعاجات السلطات الافرنسية واضطهادها له، والتي لم يكن أقلها الاعتقال والسجن.

توفي ابن باديس. وكانت جمعية العلماء قد أصبحت تحت أحكام الحرب القاسية هامدة. وقد قررت التزام الصمت التام تجاه أحداث هذه الحرب، واستمر رجالها في ممارسة واجباتهم والاضطلاع بمسؤولياتهم في المدارس والمساجد.

وكان «الإبراهيمي العظيم» قد أخذته السلطة الإفرنسية عند بداية الحرب من تلمسان، وألقت به منفياً طريداً في «أفلو» الصحراوية النائية، ليذوق فيها العذاب الاليم. واجتمع العلماء بقسنطينة بعد أن غاب عنهم رائدهم ابن باديس واتفق الجميع على أن يكون نائب الرئيس البشير الإبراهيمي - رئيساً للجمعية. وان يباشر عمله بمجرد اطلاق سراحه، ويكون له مركز الرئاسة على الفور. ولم تمض فترة طويلة حتى تم الإفراج عن الشيخ الإبراهيمي، فباشر عمله في رئاسة العلماء: فكان الرئيس، وكان المعلم، وكان الصحفي، وكان الكاتب، وكان الخطيب، وكان بإيجاز العقل المدبر والذراع المنفذ حتى قال عنه أحد علماء الجمعية «ما رأت جمعية من الجمعيات رئيساً كالبشير الإبراهيمي».

عندما تولى «الشيخ الإبراهيمي» رئاسة الجمعية، كانت الأسس قد ترسخت، والمبادىء قد ثبتت، فوجه الشيخ الإبراهيمي جهد الجمعية نحو التعليم العربي الحر، واندفع بجرأة غريبة وسط حماسة شعبية رائعة لتأسيس مدارس البنين والبنات، والحكومة مشدوهة لا تدري ماذا تفعل: أتقاوم المدارس مقاومة عامة وتوصد أبوابها، وعندئذ تجد نفسها لا محالة أمام ثورة عامة في ظروف غير مناسبة لها نتيجة ظروف الحرب ذاتها؟ أم تتساهل في أمر هذه المدارس مع إدراكها لخطورة هذا العمل وتأثيره العميق على مخططاتها الاستعمارية؟ وكان أن اتبعت سياسة مزيجة بين اللين والشدة، فكانت تتساهل في بعض الجهات، لتضطهد المدرسين ورجال التعليم في جهات أخرى. كل ذلك، ومركب التعليم

يمضي قدماً تدفعه ريح شعبية قوية. واستطاعت الجمعية بفضل دعم المسلمين الجزائريين لها من تأسيس (١٧٠) مدرسة عربية حرة تعلم الدين الصحيح والتاريخ الإسلامي والعلوم العصرية. وبلغ عدد تلاميذها كل سنة، ما يزيد على الخمسين ألفاً بين ذكور وإناث، وكونت الجمعية لهم طبقة صالحة من المدرسين، أغلبهم من خريجي «جامعة الزيتونة» بتونس، وجاوز عددهم في مرحلة ما قبل الثورة (٩٠٠) معلم. ويتقاضون جميعاً، نفس المرتبات من الهيئات المحلية للمدارس.

وأنشأت «جمعية العلماء» لجنة للتعليم، تحت إدارة نخبة من أفضل العلماء، امثال المرحوم الحفناوي هالي ومحمد الصالح رمضان (واضع قصائد الشباب الهادفة والتي أصبحت فيما بعد أناشيد الثورة الجزائرية). فأوجدت هذه اللجنة البرامج التعليمية، ووضعت البرامج التربوية، وأخضعت كل مدارسها لمنهاج واحد.

وفي العام ١٩٤٧، دشنت جمعية العلماء أول معهد للتعليم الثانوي في مدينة«قسنطينة»،أطلقت عليه اسم فقيد الجزائر «الشيخ عبد الحميد بن باديس». وشرع هذا المعهد، بفضل دعم الشعب له، بتطوير عمله حتى بلغ عدد طلابه سنة **١٩٥٣** الفاً وخمسمائة طالب من جميع أنحاء الجزائر.

وأخذت جمعية العلماء في هذه السنة بايفاد البعثات من خريجي المعهد الى المشرق العربي ـ الإسلامي لإتمام الدراسة في المعاهد العليا. وخاصة في جامعة الزيتونة بتونس. كما ارتفع اثناء ذلك عدد المدارس الابتدائية حتى وصل الى أكثر من

(٣٠٠) مدرسة في سنة ١٩٥٣، وارتفع بذلك عدد الطلاب السنوي الى أكثر من (٧٠) ألف تلميذ. وكانت الجمعية قد أجرت في أواخر السنة الدراسية لسنة ١٩٥٢ اول امتحان لنيل الشهادة الابتدائية العربية «باسم الشعب الجزائري» وبدون موافقة الإدارة الافرنسية الاستعمارية.

والى جانب ذلك كله، كانت الجمعية تنشر كل أسبوع مجلتها الكبرى«البصائر» التي كانت منبراً رفيعاً للفكر الاسلامي. ومنهلاً للعلم الغزير والأدب الهادف. وكانت تعمل أيضاً على اماطة اللثام عن تحولات السياسة الدولية، فتسهم في نشر الوعي السياسي، وبلغ عدد ما يطبع منها اسبوعياً (٣٠) ألف مجلة، وقد استمرت في الصدور حتى أغلقتها الإدارة الاستعمارية الافرنسية سنة ١٩٥٦.

كانت مجلة «عيون البصائر» هي مرآة الجزائر المجاهدة طوال الفترة ما بين الحرب العالمية الثانية، وانفجار ثورة التحرير (١٩٥٤). وكانت «عيون البصائر» أيضاً منبر رئيس جمعية العلماء «انشيخ الإبراهيمي» الذي أضاف الى اعبائه في سنة ١٩٤٨، أعباء جديدة هي رئاسته «للجنة إعانة فلسطين». ففي هذه السنة أقيم الكيان الصهيوني فوق أرض فلسطين العربية ـ الإسلامية. واهتز العالم العربي ـ الإسلامي لهذا الحدث الأليم. وكان تجاوب الجزائر أكبر من الكلمات، وأعظم من كل وصف. وقد يكون من المناسب استقراء بعض نشاطات «لجنة إعانة فلسطين» من خلال بعض برقياتها.

أرسلت «اللجنة» برقية الى الأمين العام للجامعة العربية «عزام باشا» جاء فيها:

«يسعدنا إعلامكم أنه قد تألفت بالجزائر لجنة لإعانة فلسطين، مؤلفة من كل الهيئات والشخصيات التي تمثل الاتجاه الإسلامي الجزائري. إننا بلسان هذه اللجنة نؤكد لسعادتكم تضامن الشعب المسلم الجزائري مع كل الدول العربية المكافحة ضد الامبريالية الصهيونية، ونأمل انتصار القضية العربية العادلة».

الشيخ البشير الإبراهيمي، فرحات عباس
الشيخ بيوض، الشيخ العقبي

ووجهت «اللجنة» برقية الى الحكومة الإفرنسية جاء فيها:

«إن لجنة إعانة فلسطين، التي تمثل كل التشكيلات الدينية والسياسية بالجزائر، وتشمل الشخصيات الممثلة للاتجاهات الجزائرية، قد تأثرت بصفة مؤلمة من القرار الذي اتخذه المجلس الوطني الإفرنسي في إرسال التحية المخلصة لدولة إسرائيل المزعومة. إن هذا القرار يعتبر عملاً عدائياً ضد العالم الإسلامي. واللجنة تحتج بشدة على هذه الحرية التي تتمتع بها وسائل الدعاية الصهيونية ومنظماتها. وجميعها يعمل لفائدة الامبريالية وضد الديموقراطية. واللجنة تلفت نظر حكومتكم لما في اعترافها بدولة إسرائيل المزعومة من جرح لعواطف خمسة وعشرين مليوناً من المسلمين، سكان المغرب العربي المتضامنين تضامناً فعالاً مع إخوانهم أهل فلسطين، ومن إساءة عميقة للعلاقات بين فرنسا والإسلام».

عباس فرحات، الشيخ بشير الإبراهيمي
الشيخ الطيب العقبي، الشيخ إبراهيم بيوض.

وجهت اللجنة برقية الى الأمين العام لهيئة الامم المتحدة «تريفف لي» جاء فيها:

«إن لجنة إعانة فلسطين التي تشمل كل المنظمات والشخصيات الممثلة للشعب المسلم الجزائري تحتج على ما مس العالم الإسلامي من عدوان صريح قامت به الصهيونية، وهي تحاول إقامة دولة يهودية فوق أرض فلسطين. وتعتقد اللجنة أن هذه المحاولة تناقض ميثاق هيئة الأمم المتحدة. وتمثل تهديداً صريحاً للسلام العالمي. وتؤكد اللجنة تضامن الملسمين الجزائريين مع الشعب الفلسطيني في حربه مع الصهيونية الامبريالية الاستعمارية ـ احتراماتنا».

فرحات عباس، الشيخ الإبراهيمي،
الطيب العقبي، الشيخ إبراهيم بيوض.

ولم تكتف اللجنة بهذه التظاهرة الإعلامية، التي أكدت بروز الشخصية الجزائرية الإسلامية. فعملت على إرسال مجموعة من المجاهدين الى فلسطين، كما جمعت أموالاً طائلة بالنسبة لما كانت عليه حال الجزائريين المسلمين في تلك الفترة. فقد أرسلت مبلغ أربعة ملايين فرنك في البداية «للجهاد الفلسطيني». ثم أرسلت مبلغ ثلاثة ملايين فرنك، قام الشيخ أحمد توفيق المدني بتسليمها للسيد أحمد ثروت سفير مصر بباريس، وتم ذلك بحضور اسماعيل صبري باشا، خال الملك فاروق[1].

(١) حياة كفاح (أحمد توفيق المدني) ٢ /٣٨٨ ـ ٣٩٠.

غير أن «الشيخ البشير الإبراهيمي» يتجاوز في نشاطاته دوره الرسمي، فينطلق من خلال «عيون البصائر» مستنفراً الهمم، محذراً من الخطر، ملهباً للحماسة، فيكتب في ذروة المأساة ـ سنة ١٩٤٨ ـ ما يلي:

«يا ضيعة الآداب الاسلامية بينكم. إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، وقد لدغتم من الجحر الإنكليزي مرات، فلم تتعظوا ولم تتبصروا. خدع خلفكم، كما خدع سلفكم، واستهوى امراءكم وكبراءكم ودعاكم الى موائده فلبيتم، وما رأى منكم في كل الحالات إلا المجاملة، واستمرار المعاملة، وما آنس منكم الا التهافت على أعتابه، والتعلق بأسبابه. فيا ويحكم! أكل ذلك لأن الإنكليز أغنياء وأنتم فقراء، أو لأنهم أقوياء وأنتم ضعفاء؟ كلا. إنهم أغنياء بكم، وبأمثالكم من الامم المستخذية، وليسوا أغنياء عنكم. وأنتم الاقوياء بما يستمدونه من أرضكم وجيوبكم. فاقطعوا عنهم المددين يضووا ويهزلوا، واخذلوهم في مواطن الرأي والبأس ينخذلوا، وعمروا جزيرتكم تخرب جزيرتهم. إن لبدة الأسد هي بعض أسبابه الى زرع الهيبة في القلوب. ولكن لبدة الأسد البريطاني لبدة مستعارة. فلو أن أمة استرجعت شعراتها من تلك اللبدة التي تكمن وراءها الرهبة، لأمسى الأسد هراً، مجرود العنق، معروق الصدر، بادي الهزال والسلال.

إن الغنى عمل وتدبير، فلو عملتم لكنتم أغنياء. وان بدء الغنى من غنى النفس بالتعفف عن الكماليات، وفطمها عن الشهوات، وإن القوة مشيئة لا جبر فيها. فلو شئتم أن تكونوا أقوياء لكنتم .

وإن بدء القوة من قوة الاخلاق، وقوة الاتحاد...

إن العروبة لفي حاجة الى ذلك الطراز العالي من بطولة العرب.

وإن الإسلام لفي حاجة الى ذلك النوع السامي من الموت في سبيل الحق ليحيا الحق..

أيها العرب... أيها المسلمون...

إن فلسطين وديعة محمد عندنا، وأمانة عمر في ذمتنا، وعهد الاسلام في أعناقنا، فلئن أخذها اليهود منا ـ ونحن عصبة ـ إنا إذاً لخاسرون»[1].

ويعود الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، لمعالجة القضية الفلسطينية في أزمتها ـ سنة ١٩٤٨ أيضاً، فيقول: «أيظن الظانون أن الجزائر بعراقتها في الإسلام والعروبة، تنسى فلسطين أو تضعها في غير منزلتها التي وضعها الإسلام من نفسها؟ لا والله، ويأبى لها ذلك شرف الإسلام ومجد العروبة ووشائج القربى».

«ولكن الاستعمار الذي عقد العقدة لمصلحته، وأبى حلها لمصلحته، وقايض بفلسطين لمصلحته هو الذي يباعد بين أجزاء الاسلام لئلا تلتئم، ويقطع أوصال العروبة كيلا تلتحم. وهيهات لما يروم».

ويعود ليخاطب العرب فيقول:

---

(١) الجزائر والاصالة الثوريه (الدكتور صالح خرفي) ص ٢٨ ـ ٣٠ و ٤١ ـ ٤٣.



الرحوم الشيخ محمد البشير الابراهيمي رئيس جمعية العلماء.

«أيها العرب! قسمت فلسطين، فقامت قيامتكم، هدرت شقاشق الخطباء. وسالت أقلام الكتاب، وأرسلها الشعراء صيحات مثيرة، تحرك رواكد النفوس. وانعقدت المؤتمرات. وأقيمت المظاهرات. علم الصهيونيون أن الوعد لا يعدو كونه وعداً. وأن نصه الطري اللين... أن انجلترا تنظر بعين العطف الى إنشاء وطن قومي لليهود بفلسطين، فأعدوا لتحقيقه المال، وأعدوا الرجال، واتخذوا من الوقت سلاحاً، فلم يضيعوا منه دقيقة، واستعانوا بنا علينا، فاكتسبوا من ضعفنا قوة، ومن جهلنا قوة، ومن تخاذلنا قوة، ومن أقوالنا الجوفاء قوة، وأصبحت هذه القوات كلها ظهيراً لهم علينا».

ويقبل عيد الأضحى، أول عيد بعد إقامة الكيان الصهيوني، فينفث الشيخ الإبراهيمي زفرة لاهبة، فيقول: «النفوس حزينة، واليوم يوم الزينة، فماذا نصنع؟ إخواننا مشردون، فهل نحن من العطف والرحمة مجردون؟ تتقاضانا العادة أن نفرح في العيد وان نبتهج، وأن نتبادل التهاني، وأن نطرح الهموم، وأن نتهادى البشائر. وتتقاضانا فلسطين أن نحزن لمحنتها، ونغتم، ونعنى بقضيتها ونهتم، ويتقاضانا إخواننا المشردون في الفيافي، أبدانهم للسوافي، وأشلاؤهم للعوافي، أن لا ننعم حتى ينعموا، ولا نطعم حتى يطعموا... ليت شعري، هل أتى عباد الفلس والطين، ما حل ببني أبيهم في فلسطين».

«أيها العرب! لا عيد حتى تنفذوا في صهيون الوعيد، وتنجزوا لفلسطين المواعيد. ولا نحر حتى تقذفوا بصهيون في البحر. ولا

أضحى حتى يظمأ صهيون في أرض فلسطين ويضحى».

«أيها العرب! حرام أن تنعموا وإخوانكم بؤساء. وحرام أن تطعموا وإخوانكم جياع. وحرام أن تطمئن بكم المضاجع وإخوانكم يفترشون الغبراء».

* * *

تلك نماذج من مقولات كثيرة تخاطب العقل قدر استثارتها للعاطفة. ولعل أبرز ما يميز مواقف الشيخ الإبراهيمي في هذا المضمار:

١ ـ تحليله العميق للموقف الاستعماري، وهو قد سبق «ماوتسي تونغ» في تحليل ضعف الهيكل الاستعماري بأكثر من ربع قرن. وبينما يشبه «ماو» الاستعمار «بعملاق له قدمان من صلصال»؛ يعود الشيخ الإبراهيمي ليشبه «أسد الاستعمار البريطاني بهر، لم يكتسب فروته المرعبة الا من النهب الاستعماري».

٢ ـ وفي مقولة «الشيخ الإبراهيمي» تركيز مستمر على الأصالة الذاتية «القوة في نفوسنا والضعف في نفوسنا». والمثير في الأمر أن الثورة الجزائرية قد انطلقت من هذه الأصالة ذاتها. وكان اعتمادها دائماً على القدرة الذاتية لشعب الجزائر المجاهد.

٣ ـ ويدعو الشيخ الإبراهيمي لمقاطعة الاستعمار وحرمانه من موارد النهب، حفاظاً على قدرة العرب المسلمين في أوطانهم. وهي الدعوة التي لا زالت تتردد قوية الى ما بعد نداء الشيخ الإبراهيمي بثلاث عقود، دون أن تجد لها آذاناً صاغية.

٤ ـ والشيخ الإبراهيمي، ينطلق بصيحته من منبره، بقلب الإنسان المسلم، وارادة الرجل المؤمن (حرام أن تنعموا وإخوانكم بؤساء) فالمسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، اذا أصاب عضواً منه المرض تداعت بقية الاعضاء للسهر والحمى.

* * *

وتمضي السنوات متثاقلة لترهق كاهل الشيخ، وتنفجر ثورة الجزائر. ويعتقل الافرنسيون أحمد طالب الإبراهيمي، في حين يكون الشيخ مريضاً على فراشه، بمستشفى كراتشي. فيكتب الابن أحمد طالب الابراهيمي الى أخيه: «لم يكاتبني والدي هذه الأيام الأخيرة. ومن المحتمل ان يتلقى نبأ ايقافي برصانته المعهودة». وبعد أربعة أعوام من السجن يعود أحمد طالب الإبراهيمي ليكتب الى أخيه: «كاتبت اليوم والدنا أيضاً، آه لو تعلم كم أبتهل الى الله كي يعيش حتى يوم الاستقلال! فاذا ما كتبت له أن يشهد الجزائر وقد حررت أرضها، عندئذ يسوغ لي أن ألقي عليه مقطع «لورانزا تشيو» في مسرحيته الشهيرة: «تعال يا والدي النبيل! تعال وانظر الى أحلام عمرك تتهادى ضاحية، لقد أينعت الحرية... هيا وانظر نبتك المحبب ينبثق من الثرى». يومئذ أقول له ما قال شوقي لسعد زغلول:

لينم أبو الاشبال ملء جفونه ليس الشبول على العرين بِنُوَّمِ[1]

---

(١) رسائل من السجن ـ أحمد طالب الإبراهيمي ـ ص ١٥ و ١٢٥ ـ ١٢٦.

ب ـ الشيخ مبارك بن محمد الميلي:

كتب عنه صديق له: «إنه الرجل المثالي، الحر الأبي، الذي وضع حياته كلها منذ رجع من الزيتونة عالماً جليلاً في خدمة دينه وشعبه، مدرساً ومحاضراً ومفكراً عميقاً ومرشداً نصوحاً. كان نحلة منتجة، لا تراها إلا ساعية وراء رحيق زهرة، أو واضعة مع جماعتها عسلاً شهياً». ذلك هو مبارك بن محمد الميلي ـ الذي ولد في قرية (الميليه) وليس في مدينة (ميلة) التي حل فيها بعد ذلك وجعلها ميدان جهاده.

وكانت ولادته سنة ١٣١٦ هـ (١٨٩٨ م). وأتم دراسته الابتدائية على يد شيخه ومربيه العالم الشيخ محمد الميلي. ثم انتقل الى قسنطينة حيث تتلمذ على يد الشيخ ابن باديس الذي أنس في تلميذه الذكاء والفضيلة، فوجهه في السنة ذاتها (١٣٣٨ هـ = ١٩١٩ م) للدراسة في جامعة الزيتونة. حيث أمضى في تونس أربع سنوات ليعود في سنة ١٣٤١ هـ = ١٩٢٢ م إلى قسنطينة وقد توافر له قدر كبير من العلم والمعرفة. واستعان به شيخه عبد الحميد بن باديس للتدريس في معهده شهوراً. ولما رأى طموحه ونبوغه وعلمه، أيقن أنه لا يليق معيناً له، بل يكون قاعدة للاصلاح والنهضة، وسداداً لثغر مهم في ناحية مهمة في الجزائر. ولما طلبه الأغواطيون، حثه الشيخ عبد الحميد على الذهاب إليهم وقيادة نهضتهم الناشئة، وإصلاح النفوس في الأغواط المتعطشة للنور. وزار الشيخ مبارك الأغواط، فأعجب بها وبأهلها، فانتقل إليها في اواخر سنة ١٣٤٢ هـ ـ ١٩٢٣ م.

مضى الشيخ مبارك يضرب في كلِ ميدان من ميادين الجهاد، يمضي معظم وقته (عشر ساعات يومياً) في تدريس تلاميذه الذين زاد عددهم على سبعين تلميذاً ـ فيهم ست فتيات ـ لينصرف بعد ذلك إلى «الجامع العتيق» في الأغواط للالتقاء ـ بعد صلاة العشاء ـ بالشبيبة والرجال الراغبين في تلقي الإسلام من مورده الصافي ومصدره العذب. وليتردد بعد ذلك مرة في الشهر على الأقل لزيارة «مدينة بو سعاده» والقاء محاضراته التوجيهية الهادفة فيها. ولينتقل أيضاً إلى «مدينة الجلفة» مرة في الشهر للهدف ذاته. ولينتقي من بين تلاميذه من يتوسم فيهم الخير والفضيلة فيوجههم إلى «قسنطينة» و «جامعة الزيتونة بتونس» فشكل بذلك جهازاً للاضطلاع بنهضة الأغواط ـ الضاربة في عمق الصحراء ـ وليعمل أثناء ذلك كله على الاختلاط بجماهير الشعب، يوجههم نحو الدينِ القويم، ويفضح أساليب الاستعمار ووسائله المضادة للعرب المسلمين، وليحارب الطرقية وبدعها وانحرافاتها، مقتدياً بذلك سيرة أستاذه ابن باديس. وهاله أمر ما كانت تطرحه الدوائر الاستعمارية من أن «أهل البلاد ينتمون إلى الشعوب الغربية في أصولها و يلتقون بعد ذلك مع الإفرنسيين والرومان بأكثر من التقائهم مع العرب المسلمين». فمضى ليدحض هذه المقولة وامثالها، وأفاد من كل فرصة تتاح له لوضع كتابه «تاريخ الجزائر في القديم والحديث» محدداً هدفه من ذلك بقوله: « **إني شديد الشعور بالمسؤولية، ولكنني شديد العراقيل كثيرها، شديد الحاجة إلى المعين، عديمه. ففي التحرير، أجد عراقيل قلة المواد وبعد أسلوبها عن نظامي واختلاط مواضيعها بالنظر الى أسلوبي،**

وأعلم كثرة الكتب الافرنسية وحسن نظامها، ولا أجد من يعرب لي منها. وحاجتي إلى كتب الافرنسية من حيث المادة والنظام، ومن حيث الاطلاع على مقاصدهم نحونا للتعريض بردهم في كتابتنا»

ويكتب إلى صديق له: «أكاتبك اليوم فيما يهم عملنا، ولكنني أقتصر الآن على التنبيه لكتاب حماد أو ابن حماد، لتعريب فصول من كتاب ـ كاريت ـ تحت يدي ترجمة فهرست كتاب كاريت ـ وقد أعدت النظر فيها، فظهر لي إني أحتاج اليوم من أبوابها «الباب الرابع من الكتاب الأول. والابواب السادس والسابع والتاسع من الكتاب الثالث». وقد التزمت في هذا الجزء وضع باب لبيان قبائل بني هلال وغيرهم من العرب، في أنسابهم ومراكزهم وحياتهم وعلاقتهم بالبربر. ووضع باب آخر لتفصيل قبائل البربر بعد هجوم الهلاليين. فما تجده في كتاب ـ كاريت ـ يعين على هذا فترجمه لي».

ولم يعدم الشيخ مبارك على كل حال من يقدم له العون لإنجاز مشروعه العظيم، سواء من أبناء الأغـواط الذين كان عدد كبير منهم قد تعلم الافرنسية وأتقنها، أو من خارج الأغواط ـ وبصورة خاصة الشيخ أحمد توفيق المدني ـ الذي قدم للشيخ مبارك كل جهد مستطاع، حتى تم إخراج هذا المشروع للنور.

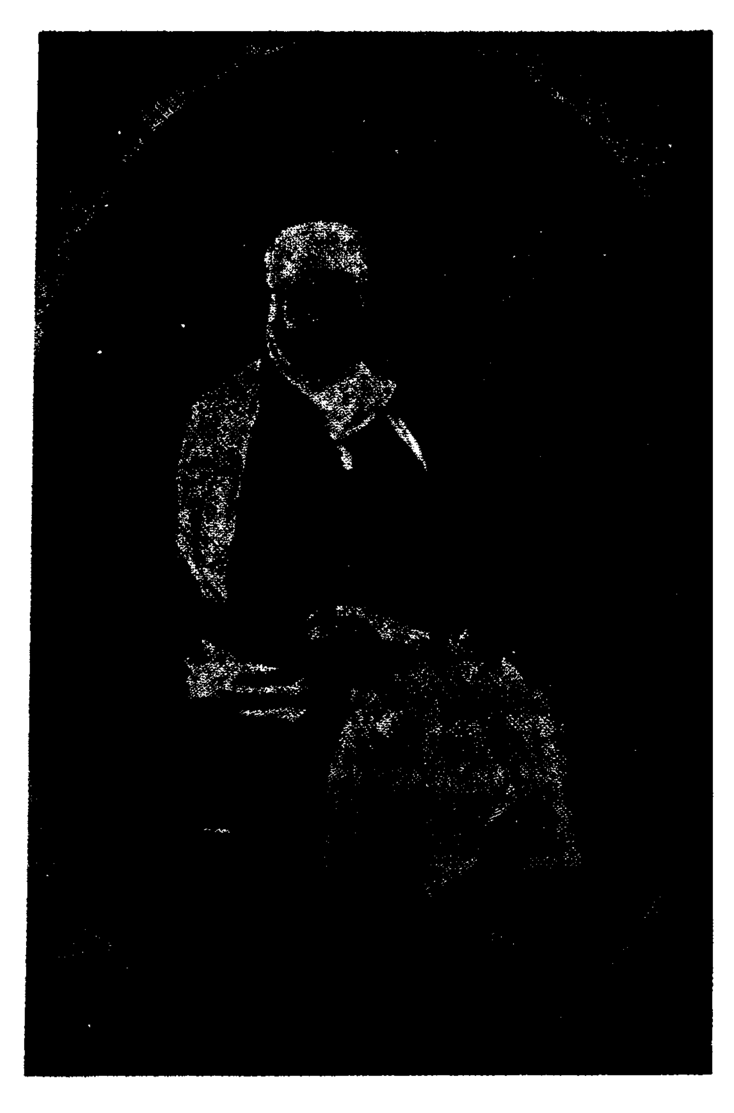
* * *

وكان الشيخ مبارك يشرح في دروسه، أمراض المجتمع، فيبين آفاتها وويلاتها على أصحابها. ويهاجم الإلحاد الـذي تبثه

المدارس الاستعمارية والأحزاب السياسية المنحرفة، ويهاجم البدع التي ألصقت بالدين فقتلت المسلمين، ويهاجم ضلالات الطرقيين الضالين، مثل (زردات القبور)[1] وحفلات مواليد المشايخ الطرقيين، واعتقاد العامة في الشيخ وطريقته بما ينافي الدين، وغير ذلك من المفاسد الخلقية. وكانت لدروس الشيخ مبارك نتائجها العظيمة. فشاعت الثقافة، وانتشرت اللغة العربية وآدابها بين الأغواطيين. وأقبلوا على الدين. وكان أكثر الاغواطيين من قبل مرتبطين بالطرائق الصوفية المتنافرة والمتناحرة، فتطهرت عن طريق الشيخ مبارك عقائدهم. وتفتحت عيونهم على الحق والهدى. وعرفوا دين الله الحق فتمسكوا به، وطرحوا عنهم رداء الطرقية وانحرافها، وتنكروا لمنكراتها. وانضم معظم شباب الأغواط لحركة الاصلاح التي يستجيب لها العقل وتتفجر لها العاطفة. وكان الشيخ مبارك ينظم زيارات كبار العلماء الجزائريين للأغواط. من أجل إلقاء المحاضرات. فزار الشيخ عبد الحميد ابن باديس الأغواط، وحضر درس الشيخ مبارك في «الجامع العتيق» ثم تلاه بدرس بليغ هز نفوس الأغواطيين وترك فيهم أعمق الأثر. وكذلك فعل الشيخ محمد البشير الإبراهيمي والشيخ بيوض إبراهيم. وسارت الأغواط بذلك في ركب الاصلاح. وصارت من انصار اللغة العربية وقاعدة صلبة من قواعد الدين «مما أهلها

---

(١) الزردات، جمع ومفردها زردة وهي طعام سنوي تصحبه أسواق للتجارة والفجور تقام حول قبور المشايخ، وتدوم أياماً. وكان الاستعمار يأمر بها لافساد الأخلاق، وتشويه الدين الإسلامي الحنيف. (نهضة الجزائر الحديثة ـ محمد علي دبوز ـ ٣ / ٢٥٩ ـ ٢٧٢).



العلامة المصلح والمؤرخ العظيم الشيخ الاستاذ مبارك الميلي

بالتالي لتكون قاعدة من قواعد الثورة عندما انفجرت هذه الثورة».

أحب الشيخ مبارك الأغواط وأهلها الذين بادلوه حباً بحب وإخلاصاً بإخلاص، بعد أن سلخ بينهم أحلى سنوات العمر في عمل دؤوب وجهد مستمر. لقد جاءها وعمره ثلاثون عاماً، وكانت أيامه بها حلوة هانئة، فتزوج فيها من ابنة شيخه «محمد الميلي - جاء بها من ميلة». وولد له في الأغواط ابنه البكر محمد. وظن أن الحياة ستسير به في يسر متنقلاً من نجاح إلى نجاح أكبر، ومن نصر إلى نصر أعظم في حياة العمل والانتاج. ولم يشعر باقتراب السحب المزمجرة من أفق حياته.

عرف الشيخ مبارك خطورة التعليم الافرنسي على حياة الناشئة، فخصص لهؤلاء الناشئة أيام عطلهم وبعض الوقت في كل يوم، خارج أوقات دوامهم في المدارس الافرنسية وذلك لتعليمهم أصول دينهم، وليحسن توجيههم، ويزيل من عقولهم ونفوسهم ما تدسه برامج التعليم الافرنسية من توجيهات سيئة. وكانت السلطة الاستعمارية في الأغواط تعتقد أن مدرسة الأغواط، مثلها كمثل الكتاتيب التعليمية العقيمة، فلم تقم لها وزناً في بداية الأمر. غير أنها استفاقت فجأة لتعرف بأن الشيخ مبارك قد دمر لها كل جهودها،وأحبط لها كل خططها، فأخذت في الكيد له والتحريض ضده. غير أن هذه الوسيلة المكشوفة والرخيصة لم تحقق هدفها، فما كان من الإدارة الافرنسية إلا أن لجأت إلى ذات السلاح الذي استخدمته - في وقت واحد - ضد الشيخ ابن باديس، فدفعت من يعمل على اغتياله من قبل الطرقيين وذلك في سنة ١٩٢٦.

غير أن تلاميذ الشيخ وأنصاره من الأغواطيين تصدوا للمجرم، وانتزعوا منه مسدسه، وكادوا يفتكون به. وعيل صبر السلطة الاستعمارية في الأغواط فطلبت إلى مشايخ الطرق إرسال عرائض تطلب طرد الشيخ مبارك من الأغواط وإغلاق مدرسته. ومارست في الوقت ذاته ضغطاً على موظفيها وأعوانها من الأغواطيين لمضايقة الشيخ وإزعاجه. وشعر الشيخ مبارك بالدائرة تضيق من حوله، والأنصار يبتعدون خائفين عنه. وعرف أنه بات من المحال عليه الاستمرار في إداء دوره والاضطلاع بواجبه، فحزم حقائبه، ورحل في سنة ١٣٥٠ هـ = ١٩٣١ م، عائداً الى بلده (الميليه). بعد أن قضى ثمانية أعوام من عمره في الأغواط[١].

كان الشيخ مبارك قد ارسل إلى الزيتونة بتونس مجموعة من أنجب طلابه سنة ١٣٤٧ هـ = ١٩٢٧ م ضمت: أحمد بن التهامي شطة، وأبو بكر بن بلقاسم، وأحمد بن بو زيد قصيبة، ومحمد الطيب الحفصي، ومحمد بن أدهينة بن الحاج عيسى، وعمر بن الساسي؛ وكلف أدهينة بن الحاج عيسى بمرافقتهم إلى تونس

(١) الأغواط: مدينة في شمال وادي ميزاب، تبعد عن مدينة بريان أول مدن ميزاب من جهة الشمال بثلاثة وسبعين ميلاً ونصف الميل. وهي في جنوب مدينة الجزائر وتبعد عنها بمائتي ميل وثلاثة أميال. والأغواط مدينة جميلة في شمال الصحراء. تمتاز بحسن موقعها، وجمال تكوينها وسحرها الخلاب! فهي مدينة تجمع بين سحر الصحراء وجمالها، وحسن الشمال وفتونه. والأغواط مدينة قديمة بنيت على وادي - أمزي - وهو واد كبير ينحدر من الجنوب الشرقي لجبال عمور في الشمال، فيمر على الأغواط، ويذهب مشرقاً في جنوب الأطلس الصحراوي فيسقي بلاداً كثيرة، حتى ينتهي في سباخ- ملفيغ - في جنوب «سيدي عقبة» وهو أكبر واد في الصحراء.

وتنظيم امورهم، ومتابعة دراستهم والاهتمام بهم ـ كلما توافرت فرصة من أدهينة لزيارة تونس في اموره التجارية ـ وقد اضطلع هذا بواجبه على أكمل وجه، فلم يشعر الطلاب بأية معاناة أثناء تعلمهم.

وبعد أن أكملوا دراستهم عادوا إلى الجزائر لمتابعة الجهد الذي بدأه شيخهم مبارك. فتكونت بذلك القاعدة الإسلامية الصلبة في الأغواط. خيث عمل الشيخ أحمد بن التهامي شطة والشيخ أبو بكر ابن بلقاسم الحاج عيسى ومعهما رجال الإصلاح على انشاء مدرسة الشبيبة في سنة ١٩٤٥، وتم الانتهاء من إقامة هذه المدرسة وبنائها في سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧م). وحضر حفل تدشينها الشيخ الإبراهيمي والشيخ ابراهيم بن عمر بيوض. وكانت إقامة هذه المدرسة تتويجاً للجهود التي بذلها الشيخ مبارك في الأغواط.

تابع الشيخ مبارك جهاده في كل الميادين التي اقتحمتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، غير أنه لم تتح له فرصة اقتطاف ثمار جهده، أو رؤية آثار عمله ـ شأنه في ذلك شأن أستاذه وشيخه عبد الحميد بن باديس، فمضى للقاء ربه يوم الجمعة ١٣٦٤ هـ = ٩ شباط (فبراير) ١٩٤٥، عن عمر يناهز (٤٨) عاماً. تاركاً وراءه لدنيا الجزائر أثراً لا يمحى (هو تاريخ الجزائر الحديث) ومخلفاً من بعده أجيالاً تسير على نهجه وتكمل أداء «الرسالة الخالدة» رسالة الإسلام والعروبة والجزائر.

ج - الشيخ أحمد توفيق المدني

ما من كتاب صدر عن الجزائر، أو تعرض للجزائر، خلال الفترة الممتدة من سنة ١٩٢٥ـ ١٩٨٠ إلا وكان للشيخ أحمد توفيق المدني ذكره مقترناً بأفضل ما يطمح إليه الإنسان من الذكر الحسن والإشادة بأجمل الفضائل. وإذا دل ذلك على شيء فإنما يدل على الأثر العميق الذي تركه في حياة الجزائر الدينية والاجتماعية والسياسية خلال مراحل الجهاد الأفضل والصراع الأمثل.

وقف الشيخ أحمد توفيق المدني، وإلى جانبه القائد فرحات عباس، في نيسان- إبريل- ١٩٥٦ ليعلن من القاهرة، تأييد جمعية العلماء للثورة، وانضمام مجاهديهم إليها وكان ذلك تحولاً حاسماً في حياة الثورة. لكن قصة الشيخ المدني لم تبدأ في هذه المرحلة، إن قصته مع الثورة قصة طويلة تعود إلى نعومة أظفاره، وأيامه الأولى مع الحياة، لقد خلق ليكون ثائراً.

ويتحدث الشيخ أحمد توفيق المدني عن حياته، فيقول: «في إحدى الديار العربية التي يرجع عهد بنائها إلى العصر الحفصي الأخير بتونس، ولدت يوم ١ تشرين الثاني- نوفمبر- ١٨٩٩- الموافق ٢٤ جمادى الثانية سنة ١٣١٧ هجرية. سليل عائلتين من كرام المهاجرين المجاهدين الجزائريين. أما الأب فهو محمد بن أحمد بن محمد المدني مولداً، القبي الغرناطي، من السادة الأشراف. ولد بالحضرة الجزائرية، وتلقى علومه العربية بالجامع الكبير، وكانت به بقية من كبار علماء الجزائر. أما جده فقد كان أمين

الأمناء، أي شيخ بلدية العاصمة الجزائرية. ثم اعتزم الهجرة مع والده إلى تونس عندما اشتد الاضطهاد الافرنسي بمدينة الجزائر. واستقر حيناً ببلاد الجرجرة الأبية. وكان ذلك سنة ١٨٧٠ . ووقعت الثورة الكبرى التي تولى كبرها المجاهدان المقراني وابن الحداد، فشاركا فيها إلى أن انهـارت. وتعارفا يومئذ مع جدي للأم ـ الصالح الشيخ عمر بويراز، الذي كان بدوره قاصداً مدينة تونس، مهاجراً مع أخيه عبد الرحمن، واشترك هو وأخوه في أعمال الثورة، ثم انتقل الجميع بعد ذلك إلى تونس في قافلة واحدة».

ويتحدث الشيخ المدني عن طفولته: «هل كنت حقاً صبياً؟ إنني لفي شك من ذلك مريب؟ لقد كانت الحياة في منزل فخم، جمع الأب والأم والابن، حياة ناعمة سعيدة، لا يؤرقني فيها إلا ما كنت أصغي إليه من حديث الأب والجد والخال عندما يزوروننا، ليتبادلوا أحاديث السمر، وليجتروا ذكر فظائع الاحتلال الإفرنسي، وذكر استحواذ الافرنسيين على سلطة ونفوذ في البلاد التونسية ـ اعتباراً من سنة ١٨٨١ ـ . . . وكنا قبل العشاء نحيط بجدي ـ عمر بويراز ـ ونتحلق حوله رجالاً ونساء وصبياناً، فيلقي علينا كل ليل درساً في الدين والأخلاق ، وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يعرج ـ كل يوم ـ على ذكر الاحتلال الافرنسي بالجزائر ومآسيه وفظائعه ومذابحه وقذارته، الى أن يستفز شعورنا، وإلى أن تسيل دموعنا، ويقول لنا كلمة لم نكن نفهمها يومئذ وفهمناها فيما بعد: «إن هذه الدموع هي خميرة المستقبل». ثم نصلي العشاء جماعة، وهو يؤمنا. ونتركه بعد ذلك لتهجده واذكاره. ونسير جمعاً إلى غرفة خالي ـ محمد بويراز. فيأخذ في الحديث الثائر المهيج

الهادف، ويحتد في حديثه وهو يتعرض لحالة الإسلام والمسلمين. وعن اعتداء أعداء الإسلام على بلاد الإسلام، وأن ما سيأتي به المستقبل هو أدهى وأمر، نظراً لفراغ البلاد الإسلامية من الدعاة المرشدين. واشتغال كل مسلم بما يعنيه خاصة».

بدأت حياة أحمد توفيق المدني بكتاب من كتاتيب العاصمة تونس، ولم يكن قد تجاوز الخامسة من عمره. لينتقل في سنة ١٩٠٩ إلى المدرسة الأهلية القرآنية، ومنها إلى الجامع الأعظم (جامع الزيتونة) في سنة ١٩١٣. (والمدرسة الخلدونية- التي تعد تكميلية للدراسة الزيتونية). وأظهر خلال ذلك قدرة خطابية مثيرة، وكفاءة عالية في الكتابة دفعته إلى تحرير عدد من المقالات الوطنية والاجتماعية والسياسية، نشرها في صحيفة (الفاروق)التونسية- التي كانت تصدر أسبوعياً. (وكان ذلك في سنة ١٩١٤). وعندما انفجرت الحرب العالمية الأولى، كوّن خلية من رفاقه للتحريض على الثورة ضد فرنسا. فكان أن اعتقلته السلطات الإفرنسية في تونس يوم ١٤ شباط- فبراير- ١٩١٥ وألقت به في السجن حتى شهر تشرين الثاني-نوفمبر - ١٩١٨. وقد أفاد من فترة السجن لمتابعة تعليمه الديني ودراسة اللغة الافرنسية حتى أتقنها. وعندما خرج من سجنه، كان إنساناً جديداً قد صلب عوده، وتكونت شخصيته، واتسع أفقه، رغم حداثة سنه.

أدى هذا النضج المبكر، بالمجاهد الشاب أحمد توفيق المدني، الى الالتقاء مع جيل رواد الجهاد، حيث تم له التعارف في تونس مع الشيخين عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير



أحمد توفيق المدني، في افتتاح معهد عبد الحميد بن باديس بقسنطينة سنة ١٩٤٧ ، والى جانبه الشيخ خير الدين.

الإبراهيمي واللذين سيكون لهما أثر كبير في حياته. كما ساعده ذلك على التحرك السياسي مع الزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي ـ مؤسس حزب الدستور التونسي ـ وذلك في سنة ١٩١٩. وفي ٢٩ أيار ـ مايو ـ عقد الحزب مؤتمراً له ـ في منزل الشيخ حموده المنستيري بالمرسى، وبرئاسة الشيخ عبد العزيز الثعالبي. وتقرر انتخاب أحمد الصافي أميناً عاماً للحزب وأحمد توفيق المدني ـ أميناً عاماً مساعداً للقلم العربي. وأعيد تنظيم الحزب، فكان أعضاء اللجنة التنفيذية يضمون ٢٧ رجلاً. غير أن حزب الدستور لم يلبث أن انهار تحت ضربات الاستعمار الافرنسي ومؤامراته. وتم إبعاد «أحمد توفيق المدني» إلى الجزائر يوم ٥ حزيران ـ يونيو ـ ١٩٢٥. حيث انفتحت له آفاق جديدة للجهد والجهاد.

كان أول لقاء له مع شعب الجزائر في حفل الشبيبة الإسلامية بالجزائر في ليلة ٢٧ رمضان من سنة ١٩٢٥. ووصف هذه الليلة بأنها (من أسعد ومن أغرب ومن أثرى ليالي حياته) اندفع فيها بحماسته المعهودة وهو يلقي خطابه على حضور زاد عددهم على (٥٠٠) جزائري. وختم خطابه بقوله: «ليكن شعاركم في حياتكم أيها الأحرار الأبرار: الإسلام ديننا، العروبة لغتنا، الجزائر وطننا، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون». وقد أشعره تجاوب الجمهور معه بضرورة العمل بحماسة أكبر.

عمل بعد ذلك على تأسيس (نادي الترقي) ليكون قاعدة للعمل الديني والسياسي والاجتماعي وذلك في سنة ١٩٢٧. وفي هذا النادي ذاته تشكلت «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» سنة

١٩٣١ . وكان لأحمد توفيق المدني دور هام في تشكيل هذه الجمعية وتنظيمها. كما كان في جملة نشاط نادي الترقي :

١ـ تأسيس جمعية الفلاح. ٢ـ جمع شمل وحدة النواب الجزائريين المسلمين. ٣ـ تنظيم اجتماع مؤتمر طلاب شمال أفريقيا. ٤ـ تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية الكبرى. ٥ـ مقاومة سياسة التجنس والاندماج. ٦ـ مساعدة الكفاح الفلسطيني. ٧ـ محاولة تكوين البنك الإسلامي الجزائري. ٨ـ مقاومة التبشير المسيحي. ٩ـ تكوين جمعية الزكاة. وقد تعثرت هذه المشاريع في حين حقق بعضها نجاحاً رائعاً في تحقيق بعض أهدافها ؛غير أن مجرد استعراض «نوعية هذه المشاريع» هو أمر كاف لإبراز فضائل القدرة المحركة الكامنة وراءها.

عرف عن الشيخ أحمد توفيق المدني أنه منظم رائع أكثر منه خطيباً في المحافل، وأنه خطيب مفوه أكثر منه شاعراً، وانه شاعر أكثر منه كاتباً صحفياً، وكاتب صحفي أكثر منه باحثاً ومؤلفاً. وقد كانت هذه المواهب أو الكفاءات المتنوعة التي تحقق التكامل أكثر مما تسبب التنافر، هي أفضل سلاح للشيخ المدني في جهده الصادق وجهاده الميمون. فمضى يحارب على كل الجبهات، ويخوض الصراع في كل الميادين. وكانت الصحافة هي مجاله الأول وميدانه الأفضل نظراً لمعرفته بما كان للكلمة من أثر بالغ في استثارة الجماهير. وهاهو نموذج عن مقالة له تحت عنوان «بين الموت والحياة»، وموقعة بلقبه «المنصور»[1] ؛جاء فيها هجوم حاد

---

(١) مجلة الشهاب ـ العدد ٣ ـ المجلد السادس ـ ٢٧ شباط ـ فبراير ـ ١٩٣٠.

على سياسة الدمج و «التفرنس» وتضمنت ما يلي: «طريقان قد فتحا اليوم في وجه- الجزائر الفتاة- وعلى رأس كل من الفريقين جماعة ترغب الناس سلوك ذلك الطريق وتعدهم الوعود، وتمد لهم في الأماني. **أما الطريق الأول**: فهو طريق التجنس والتنازل عن القومية واللغة، ونبذ التاريخ والتقاليد، والدخول في جنسية جديدة هي جنسية العنصر الغالب، والاندماج فيها. وقبول ما يتبع ذلك التجنس والاندماج من أخلاق جديدة، ولغة جديدة وعقلية جديدة. ودعاة هذا الطريق يبثون دعوتهم بجد ونشاط، يكتبون ويخطبون ويحادثون وينشرون الصحف والمجلات باللغة الإفرنسية طبعاً، ويريدون أن يؤثروا على الطبقات المتعلمة في المدارس الافرنسية والمتشبعة بالأفكار الافرنسية. **وأما الطريق الثاني**: فهو طريق المحافظة على الذاتية الجزائرية، أي المحافظة على دين البلاد وعلى لغتها، وعلى تقاليدها، وعلى مدنيتها الخاصة، وعلى توثيق الرابطة بين حاضرها وبين تاريخها المجيد. والأخذ من ثمرات المدنية الغربية بكل نافع مفيد، لا يمس العقيدة الدينية والوطنية، ولا يعتدي على كرامة البلاد، ولهذا الطريق أنصاره ودعاته حتى من بين طبقة الشبيبة المتعلمة في المدارس الافرنسية، **فأي الطريقين يجب أن تسلك الجزائر، وهي في فجر نهضتها الحديثة؟**...

لقد أخفقت سياسة التجنس والاندماج تماماً، وأفلست كل الإفلاس. وهكذا يخيب ويفلس كل أمر مخالف لسنن الطبيعة وقوانين الاجتماع. فلم يتجنس المتجنس إذاً، ويقدم على التضحية بدينه وقوميته؟ اللهم إلا إذا كان يرى دينه منحطاً فيريد أن

يتبرأ منه، ويرى لغته ساقطة فيريد أن يستبدل بها غيرها، ويرى أن أمته سافلة فيريد أن يعتز بأمة أخرى، ويرى تاريخه بشعاً فيريد أن يقطع الصلة بينه وبينه. فهو يصبغ نفسه صباغاً خشناً، ويحشر نفسه في زمرة قوم ليس منهم وليسوا منه. ويغدو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. ومثل هذا الرجل قليل في الجزائر والحمد لله.

المسألة الموضوعة أمامنا الآن، هي مسألة المحافظة على الإسلام وعلى العربية. وهذه المحافظة هي البرنامج الوحيد الذي يجب أن يكون برنامج الجزائر بأسرها في حاضرها ومستقبلها. وكأن الجزائر اليوم غير شاعرة بتلك الحقيقة الرهيبة القاسية التي نراها رأي العين أمامنا. كأنها ليست شاعرة بأن الإسلام في الجزائر سائر في طريق الموت. وكأنها ليست شاعرة بأن العربية في الجزائر سائرة نحو الاضمحلال. وكأنها ليست شاعرة بأنها إذا فقدت إسلامها وعروبتها فقدت كل شيء ولم تنل شيئاً. وكيف نريد أن يحيا الإسلام وأن تحيا العروبة في الجزائر. إذا كان الشعب الجزائري لا يعمل العمل الجدي الصالح في سبيل تلك الحياة؟.

تظنون أن الإسلام يستطيع أن يعيش إسلاماً تقليدياً على مر الدهور كما هو الآن عائش في أوساطنا؟ وإذا كنا لا ندرسه ولا نبث دروسه في كل الأوساط وفي مختلف الجهات، فماذا يبقى لنا منه بعد جيل آخر؟ والعربية، كيف تستطيع أن تعيش وأن تقاوم في سبيل الحياة، إذا نحن أهملنا دراستها إهمالاً، ونبذنا أمرها ظهرياً؟ وعلى من تريدون أن تعتمدوا لحفظ دينكم ولغتكم؟ أتعتمدون على الحكومة؟... إن كانت الأمة تريد لنفسها الحياة في ذاتيتها، فليس عليها إلا أن تقوم وحدها بكل الجهود، وتنتشل بأيديها

أبناءها من هذه الحالة البائسة، وهذا هو وحده واجب الأمة اليوم. وهذا هو موقفها بين «الموت والحياة». . . .

فيا شعب الجزائر: عربيتك ودينك في حالة تلاش واضمحلال، وناشئتك في جهل وإهمال. وإن مستقبلك كأمة إسلامية هو بين يديك. فإن شئت عملاً صالحاً فهذا أوان العمل الصالح. ولا يكون العمل منتجاً مثمراً إلا إذا كان رائده التضحية والاتحاد، ونبذ كل شقاق وخلاف، وعدم النظر إلا للواجب المفروض. . . لسنا الآن في وقت يسمح لنا أن نتشاجر فيه وأن نختلف، بل نحن في وقت يوجب علينا أن نوحد الجهود. وأن نكون صفاً واحداً يعمل بعزيمة لا تلين في سبيل الله والأمة والوطن».

ويقرن «المدني» القول بالعمل، وهو ما تبرزه الحادثة الطريفة التي يعرضها- المدني ذاته- بقوله: «كنا في قاعدة -نادي الترقي- وعلينا كآبة وفي نفوسنا هم- بسبب الاستعدادت الافرنسية للاحتفال بمناسبة مرور مائة سنة على احتلالها للجزائر- وإذا بالسيد محمد بلحاج مدير المدرسة الثعالبية الكبرى وأحد كبار الملحدين والمتفرنسين، يخبرنا بأنه قد ولد للسيد «ساطور» زعيم المتجنسين ولد بالأمس، فأطلق عليه اسم «كريستيان» أي «المسيحي» ونظر إلي نظرة شماتة، لأنه علم أن الأمر يؤلمني ويمعن في تعذيبي. قلت للناس من حولي؛ انظروا: هذه هي نتيجة التجنس بالجنسية الإفرنسية! وشاء ربك أنني رزقت بولد في نفس الليلة، هو مرلودي الأول، فأطلقت عليه إسم«إسلام».

وذهبت من الغد إلى النادي. واجتمع الناس، وكان بلحاج حاضراً، فوقفت وقلت: يا جماعة! بالأمس ولد لزعيم المتجنسين ولد دعاه «كريستيان» واليوم أبشركم بأنني رزقت ليلاً بولد دعوته «إسلام». ففي هذين الاسمين منهاج سياستين: سياسة التجنيس تجعل أولادكم «كريستان» وسياسة الإسلام والعروبة والوطنية تجعل أولادكم «إسلام» فاختاروا، وأنتم الآن على بينة من الأمر. وصفق القوم طويلاً. أما محمد بلحاج فقد اصفر لونه، وتلعثم لسانه، وقال بعد لأي: لقد جنيت على ولدك جناية لن يغتفرها لك إذ أطلقت عليه هذا الاسم. ونظرنا إليه جميعاً نظرة احتقار وازدراء. وأقسم بالله إنني لم أعد منذ ذلك اليوم أسمع في النادي كلمة تجنس، ولا تجنيس. ماتت الفكرة إلى الأبد. ولم نر وجه محمد بلحاج بعدها إطلاقاً»[1].

ويمضي الشيخ مدني على درب الجهاد، بالكلمة والعمل، مركزاً جهده باستمرار على قضية «الأصالة الذاتية للجزائر» وهي الأصالة المرتبطة أبداً بالإسلام والعروبة. ويحدث في سنة ١٩٣٤أن دفعت الإدارة الافرنسية بعض أذنابها للتقدم بطلبات أبرزها «١ـ إلغاء مساجد المسلمين. ٢ـ إغلاق المدارس التي تعنى بتعليم القرآن الكريم. ٣ـ تقييد حرية الصحافة في الجزائر» وتثور الجزائر من أقصاها إلى أقصاها. وينتصب الشيخ المدني عملاقاً وهو يمتدح أصالة شعبه ويهاجم بعنف وجرأة الاستعمار وأذنابه. فيقول:

---

(١) حياة كفاح (أحمد توفيق المدني) ٢ / ١٦٧ ـ ١٦٨.

«احتقروها واستصغروها، وتهاونوا بأمرها، وغرهم منها طول السكوت وطول الاستسلام، وخالوها ميتة فاستنسروا، وحسبوها جثة هامدة فتنمروا. وراموا الإجهاز على ما بقي فيها من بقية الحياة، بحسب ظنونهم، فتآمروا وقرروا ما قرروا، والله من ورائهم محيط. تحدوها امتهاناً وصغاراً، فاذا بها ترفع ذلك التحدي بأنفة وكبرياء. وقرروا فيما بينهم موتها، فاذا هي تقرر على رؤوس الملأ حياتها الخالدة. كذبت أمانيهم، وسفهت أحلامهم، وأرتهم رأي العين كيف تكون الأمم الناهضة وكيف تكون الشعوب المستيقظة، وكيف تتقدم في ميدان العمل السلمي المشروع أمة تتوثب للسعادة فأرادوا لها الشقاء، وتتطلع للحرية فصاغوا لها قيود الاستعباد. وتريد أن تتقدم مع المتقدمين، فأرادوا لها التقهقر مع الغابرين».

وكم كانت أمة الجزائر الحية الحساسة بديعة في مظاهرها القوية الناطقة. وكم كانت جليلة رائعة. يوم نطقت فيها مئات آلاف من الألسنة والقلوب. في تلمسان، وفي قسنطينة، وفي بونه، وفي جيجل، وفي بسكره، وفي قالمة، وفي سوق أهراس، وفي عشرات من المدن والقرى، فكان نطقها رهيباً، وكان صوتها مدوياً مسموعاً ، وكانت كلماتها الصادرة عن يقين وإيمان تسمع حتى الصم، وتنفذ حتى إلى القلوب الغلف التي هي كالحجارة أو أشد قسوة. كانت موجة الاستياء عظيمة لم تر البلاد مثلها فيما سلف. وبلغت القلوب الحناجر لما لحق بها من ألم وكمد. وكاد اليأس يستولي على الأنفس فيقودها حيث يقود اليأس

هادة الأنفس المستاءة. لولا حكمة أصيلة كبحت جماح النفس وألزمتها السكينة والهدوء...

وبلهجة ساخرة، مريرة، يقول الشيخ المدني: تمخضت أمة الجزائر مائة وأربعة من الأعوام فولدت... حسن الدواجي قاضي تلمسان، وابن عبد الله نائبها المالي، وابن علي الشريف نائب مالي بلاد القبائل، وغرسي نائب مالي مليانة، وسي جلول خليفة الأرباع. وهم أبطال هذا العصر ومعجزة هذا المصر، أتوا بما لم يأت به الأوائل ولا الأواخر، واقترحوا على الإدارة الإفرنسية من المقترحات ما به تزول الكروب، وتنجلي الخطوب، وتنتهي الأزمة وينقذ الفلاح، وينتهي خطر المرابين، ويتعلم التسعة والسبعون بالمائة من أبناء الأمة الأميين، ويتبدل شقاء الجزائر سعادة، وفقرها غنى ومسرة، وروعها أمناً واطمئناناً، اقترحوا- ويا للعار والشنار- هذه المقترحات التي سولت لهم أنفسهم اقتراحها:

أولاً: تأييد غلق مساجد المسلمين التي أمر الله أن ترفع ويذكر فيها إسمه، في وجه علماء المسلمين غير الرسميين، الذين يريدون أن يقوموا بما أوجبه عليهم ربهم من واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوعظ والإرشاد. لم يكتف هؤلاء السادة بقرار عامل عمالة (ولاية) الجزائر، فهم يريدون تأييد ذلك القرار بقانون رسمي.

ثانياً: القضاء النهائي على البقية التي سلمت إلى هذه الساعة من التعطيل، من المدارس القرآنية الحرة التي تلقن أبناء المسلمين كلام الله وآيات الذكر الحكيم، حيث لا يوجد ذلك في

مدرسة أخرى. بدعوى أن تلك المدارس لا تخضع لقواعد الصحة، ولا تخضع للحكومة. وما كنا نعلم قبل هذا الاكتشاف الخطير أن في الجزائر مدارس لا تخضع للحكومة ولا لقوانينها.

ثالثاً: تقييد حرية الصحافة بالجزائر، لا الصحف العربية التي لا توجد في الدنيا بأسرها صحافة أضيق منها حرية، ضرورة أن يكون للوالي العام حق إغلاقها متى شاء، وكما أراد، بواسطة قرار يصدره بصفته نائباً عن وزير الداخلية، بل الصحف الإسلامية التي تصدر باللسان الافرنسي والتي يديرها رجال يحملون الجنسية الافرنسية. تلك الصحف التي تخضع للقانون العام، قانون الصحافة الشهير، الذي نسمع به نحن مجرد السماع فقط، قانون ١٨٨٢، تلك الصحافة، هي التي يريدون أن يقيدوها ويكمموها، حتى لا يبقى للمسلم الجزائري صوت يسمع وكلمة تقال. بدعوى أن هذه الصحف تعمل ضد نفوذ فرنسا بالبلاد. وهل نفوذ فرنسا بهذه البلاد مزعزع إلى الدرجة التي تخافون معها أن تقضي عليه الصحافة التي ليست هي بشيوعية ولا بثورية، إنما قصاراها أنها تقول كلمة حق»

* * *

وتتعاظم قوة المقاومة في المغرب العربي- الإسلامي الخاضع لحكم فرنسا. وتفشل كل الوسائل القمعية والأساليب القهرية في إعادة العملاق الجزائري إلى قمقمه. وتشعر فرنسا بقوة الضرام الكامن خلف الرماد، وتتزايد مخاوفها مع اقتراب نذر الحرب العالمية الثانية. ويكتب الشيخ المدني في تشرين الأول- أكتوبر-

١٩٣٧. ما يلي: «نعم! في الشمال الأفريقي هيجان، وفي الشمال الافريقي اضطراب، وفي الشمال الأفريقي حركة تذمر واحتجاج عنيفة وبعيدة الغور. ولسنا نحن الذين ننكر ذلك أو نحاول التخفيف من حدته في نظر الحكومة. إنما نحن نسأل حكومة فرنسا وحكومة الجزائر، ونسأل كل عاقل مدرك في هذه الدنيا: هل يمكن أن يركن إلى جانب التهيّج، وأن يستاء وينزعج، وأن يصل إلى درجة اليأس، شعب قانع بما لديه من سعـادة، راتع في بحبوحة العيش الهنيء متمتع بإدارة حازمة تضع دواءها على موضع دائه ساعة أن يحس بوجوده، وحكومة عطوفة تسهر على صالحه، وتجيب في التو والحين رغباته، وتغدق عليه من ضروب الخير والنعم أصنافاً وألواناً، وتمكنه من وسائل العلم النافع والعمل الصالح؟».

ويعود الشيخ المدني في شهر تشرين الثاني- نوفمبر- ١٩٣٧، لمعالجة «مشكلة الجزائر» فيقول: «**إن العصر عصر قوة لا عصر حق. فما دمنا نقدم الحق ونداقع عنه بصفته حقاً لا يعتمد إلا على النظريات والأقوال، فسوف لا نلاقي في نضالنا إلا الخيبة والفشل. علينا أن نكوِّن أنفسنا تكويناً جديداً قوياً. تكون قوّتنا فيه مادية فعّالة، قوة كفاح سلمي مشروع يعتمد على المال الوفير والرجال الأقوياء المتعاضدين. عندئذٍ، وعندئذ فقط، إن تكلّمنا استمع الناس لمطالبنا، وإن اتجهنا نحو الحكومة عاملتنا كما تعامل الأقوياء، لا كما تعاملنا اليوم**».

لم يكن الشيخ المدني محصوراً في دفاعه عن المسلمين

بالحدود الجغرافية للجزائر المجاهدة، شأنه في ذلك شأن كل الشيوخ في رابطة العلماء الجزائريين، وشأن معظم الذين تصدوا لقيادة الصراع ضد الاستعمار الافرنسي. لقد أدرك الجميع أن معركة الجزائر هي جزء من الحملة الصليبية الشاملة ضد العالم الإسلامي- العربي. وعلى هذا لم يكن من الغريب أن يتصدى الشيخ المدني لمعالجة قضايا العالم الإسلامي، وأن ينقلها إلى صفحة الجزائر، بمثل ما ينقل صراع الجزائر إلى أفق العالم الإسلامي. وفي حديثه عن فلسطين،في تموز- يوليو- ١٩٣٧ جاء ما يلي: «كان آخر اختراع أنتجته المخيلة الاستعمارية الانكليزية هو تجزئة فلسطين إلى ثلاثة أقسام: قسم شرقي جبلي يقع ضمّه إلى مملكة شرقي الأردن التي يتولى أمرها الأمير عبد الله، وقسم غربي يشمل سواحل فلسطين الشمالية وأخصب بلادها ويكوّن دولة يهودية مستقلة تمام الاستقلال لها حكومتها وإدارتها ودستورها. وأخيراً قسم ثالث يشتمل بيت المقدس وسواحل حيفا، ويبقى تحت الانتداب الإنكليزي بدعوى حماية الأرض المقدسة ومجرى نفط الموصل. ففلسطين التي اقتطعت أول مرة من بلاد الشام ، ثم نكبت بالاستعمار الصهيوني، يريدون أن ينكبوها أخيراً بتقسيم جديد يمزّق أوصالها، ويجعل فيها لليهود دولة رسمية ذات استقلال تام. ثم تبقى المدينة المقدسة تحت نير الوصاية إلى أن يقع تمهيدها للصهيونية فتزدردها. وقد اجمعت كلمة العرب في فلسطين على رفض هذا المشروع الخاسر، وأجمعت كلمة العرب في العالم أجمع على تأييد هذا الرفض الأبي لأنه لا يوجد من يجري في عروقه دم العروبة الحار، ويرضى

مثل هذه المذلّة والمهانة- ويخلص إلى القول- إن قدر الله وضاعت فلسطين، فإنها والله لن تذهب ضحية الصهيونيين، بل هي تذهب ضحية المسلمين الجامدين، وضحية ملوك المسلمين المتغافلين. فيا عامة المسلمين ويا خاصتهم، ويا ملوكهم وأمراءهم وقادتهم، هذه فلسطين الشهيدة ضائعة متلاشية فماذا أنتم فاعلون؟».

..*.

ويمضي الشيخ المدني في ممارسة دوره، ملتزماً بما حدده لنفسه من منهج في الحياة- حراً خلقت وحراً أعيش وحراً أموت. ومن موقع الحرية هذا ينطلق للتبشير بثورة التحرير (١٩٥٤)؛ حتى إذا ما تفجّرت، انطلق وإخوانه لدعمها بصورة سرية، حتى إذا ما اعتقل الشيخ التبسي في سنة ١٩٥٦ وضاقت آفاق العمل السياسي، انتقل برفقة عباس فرحات إلى القاهرة لمتابعة الصراع السياسي. وتنتصر الثورة، وتعود الجزائر لتحتضن أبناءها الذين ما عرفوا في يوم من الأيام إلا الحب لها والعمل في سبيلها. وينتقل الشيخ المدني من مجال العمل السياسي إلى مجال البناء. وتبقى الكلمة رائده. فينطلق إلى عالم التأليف. وتصدر له مجموعة من الكتب (عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع) أهمها (حياة كفاح) في جزئين. والمأمول أن توافق الحكومة الجزائرية في عهد الرئيس الشاذلي بن جديد- الرجل الثائر- على الإفراج عن الجزء الثالث من هذه المذكرات[1]. هذا بالإضافة إلى ما سبق له نشره،

---

(١) قدم الشيخ أحمد توفيق المدني مشكوراً للمؤلف مجموعة كتبه وذلك أثناء زيارة =

بداية من تقويم المنصور ورواية وحرب الثلاثمائة سنة بين إسبانيا والجزائر وتاريخ الجزائر وإسهامه بتاريخ الجزائر الحديث (الذي وضعه الشيخ مبارك بن محمد الميلي). واليوم، وقد بلغ الشيخ المدني الثمانين من العمر- لا زال يتدفق نشاطاً وحيوية وهو يدير (المركز الوطني للدراسات التاريخية- الجزائر) ولا زال يسهم بالبحوث الغزيرة في (مجلة التاريخ) الصادرة عن المركز الوطني للدراسات التاريخية، والتي يرأس تحريرها أيضاً. **ويضيق المجال عن ذكر ما قدمه هذا الشيخ المجاهد بحق لأمته الإسلامية وشعبه العربي ووطنه الجزائري: إنه سيف من سيوف الإسلام والعروبة والجزائر.**

د - الشيخ الطيب العقبي:

إنه من مواليد الفترة الأخيرة من القرن الماضي- التاسع عشر- أمضى في «المدينة المنورة» المرحلة الأولى من شبابه- قبل الحرب العالمية الأولى، وعاصر الثورة العربية في سنة ١٩١٦، واتهم بالمساهمة فيها من قبل الأتراك، فنفي إلى تركيا، ثم رجع إلى «مكة المكرمة» ليدير جريدة «القبلة» و«المطبعة الأميرية» في حكم الحسين بن علي شريف مكة. ولم يلبث طويلاً، حتى عاد إلى وطنه الجزائر، التي استقبلته، داعياً مصلحاً وشاعراً وكاتباً

= المؤلف للجزائر في صيف سنة ١٩٧٩. وقد أسهمت هذه الكتب والمؤلفات في إغناء البحوث التي يتم تقديمها للقارىء في إطار هذه المجموعة من الكتيبات عن الجزائر المجاهدة. فللأستاذ المدني شكر المؤلف وتقديره. (انظر قراءات ٢).

وخطيباً. ولم يلبث أن أسّس جريدة «الإصلاح» في بسكرة سنة ١٩٢٦، فكانت إحدى الصحف التي رفعت راية الريادة في إيقاظ النهضة الفكرية الإصلاحية، والتي قال عنها «الشيخ بشير الإبراهيمي» ما يلي: «ثم أسّست جريدة (الإصلاح) ببسكرة، فكان اسمها أخف وقعاً، وإن كانت مقالاتها أسدّ مرمى، وأشد لذعاً. وأسماء الجرائد كأسماء الأناسي، يظن الناس أنها وليدة الاختيار المقتضب، والشعور الطافر، وغلطوا. إنما هي وليدة شعور متمكّن، وتأثّر نفساني عميق، تزجيه مؤثرات قارة». وعندما التقى العلماء في «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» سنة ١٩٣١، كان الطيب العقبي أحد مؤسسيها الرئيسيين، ومن أبرز أقطابها العاملين. ويتحدث عنه الشيخ المدني بقوله: «كانت فصاحته تخلب الألباب، ذو صوت جهوري يؤثر على الجماهير. كما كانت لسيرته الفاضلة وسلوكه الديني النقي دورهما في التأثير على الجماهير تأثيراً عظيماً... كان العقبي عظيماً، مدهشاً، يخلب الألباب بسحر لسانه وبديع بيانه. فالتفت العامة حوله التفافاً رائعاً وساندته مساندة قوية». وعندما توجّه الوفد الوطني الجزائري إلى باريس سنة ١٩٣٦ برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس. كان «الشيخ العقبي» في جملة أعضاء الوفد. ويصف ابن باديس موقفاً من مواقف العقبي في هذه الرحلة، فيقول:

«فلما ترنحت السفينة على الأمواج، وهب النسيم العليل، هبّ العقبي الشاعر من رقدته، وأخذ يشنّف أسماعنا بأشعاره، ويطربنا بنغمته الحجازية مرة، والنجدية أخرى، ويرتجل البيتين والثلاثة والأربعة في المناسبات، وهاج بالرجل شوقه إلى الحجاز،

فلو ملك قيادة الباخرة، لما سار بها إلا إلى جدة دون تعريج على أي مرسى، وإن رجلاً يحمل هذا الشوق كله إلى الحجاز، ثم يكبته، ويصبر على بلاء الجزائر وويلاتها ومظالمها، لرجل ضحّى في سبيل الجزائر تضحية أي تضحية».

لقد عايش الشيخ العقبي حركة الإصلاح الديني التي انطلقت من الجزيرة العربية (الحركة الوهابية) ويظهر أنه تأثر بها إلى حد كبير. وعندما وصل الجزائر صدمته بدعة الطرقية وانحرافاتها، فانطلق في الهجوم عليها بعنف وقوة، مستخدماً موهبته الشعرية[1].

---

(١) نشر الشيخ العقبي في مجلة «الشهاب» الأسبوعية سنة ١٩٢٧ قصيدة جاء فيها:

هلم بنا يا قوم نحو العلا نرقى
لتجديد دين الله فهو الذي يبقى
ودونكم أهل الغواية والردى
ففيهم وعيد الله، لا شك قد حقا
أناس دعوكم للضلال، وناصبوا
ذوي العلم والتقوى العداء لهم حمقا
ألم يعلموا أن الجهالة غتيها
وخيم. وأن الجهل بالمرء كم يشقى
فويل، وويل، ثم ويل لجاهل
قضى عمره بطلاً ولم يعرف الحقا
رمى جانباً تلك العلوم التي بها
غدا الغير حراً عندما حرم الرقا

(المرجع- صفحات من الجزائر- الدكتور صالح خرفي) ص ٢٨٣- ٢٨٦ وانظر بقية القصيدة في آخر الكتاب- قراءات (٣).

وبلاغته النثرية لفضح الطرق ومشايخها، ولإسقاط الهالة الدينية التي كانوا يتستّرون بها.

استمر الشيخ العقبي، عنيفاً في هجومه، مقذعاً في نقده، مما أثار شيوخ الطرق ضده. وكانت جمعية العلماء قد تبنّت خطاً معتدلاً يرمي إلى جمع الشمل وإجراء الإصلاح من الداخل- بالحجة والإقناع واكتساب الوقت «وإقناع رجال الطرق بوجوب تطوير زواياهم حتى تصبح معاهد علم ونور وهداية- على نحو ما كان عليه أمرها عند ظهورها». وأدّى تطرّف العقبي في هجومه إلى أن انفكّت العصبة، وانحلّت الرابطة الأولى. وانسحب المرابطون من نادي الترقي ومن جمعية العلماء. ثم إنّ الشيخ العقبي ازدادت صلابته، حتى اصطدم برجال جمعية العلماء- مثل السيد عمر إسماعيل والعاصمي- واشتعلت نار حرب مؤلمة بين الجانبين. إلى أن جاء الاجتماع الثاني للعلماء فانسحب الطرقيون من الجمعية، ثم أسّسوا جماعة «علماء السنة».

وقعت بعد ذلك حادثة (مقتل مكحول) والتي سبقت الإشارة إليها (نهاية فقرة ٣- مدافع الله) وخرج العقبي من السجن، وهو غير العقبي الذي دخله. فأخذ في الإيضاح للادارة الافرنسية حتى إذا ما انفجرت الثورة التحريرية الكبرى (سنة ١٩٥٤). وقف منها موقف المشكّك بقدرتها على النجاح. وأصيب في أواخر أيامه بأمراض الشيخوخة، وتوفي سنة ١٩٥٦.

هـ ـ الشيخ التبسي:

هو العربي بن قاسم التبسي، من كبار علماء الإصلاح بالجزائر، عاش حياته مجاهداً «بتبسة» وقد سبقت الإشارة إلى بعض مواقفه في عرض سيرة «ابن باديس». وبقي في كل مواقفه ملتزماً بمواقف «جمعية العلماء». مؤيداً لها، منفذاً لمنهجها، وكان له فضل كبير في إيقاظ الوعي الإسلامي الصحيح. وقد يكون من المناسب اختصار كل صفحات جهاده المشابهة لكل صفحات إخوانه من أجل الوقوف على الصفحة الأخيرة منها:

«في مساء يوم الخميس ٤ رمضان ١٣٧٦ هـ الموافق ٤ نيسان ـ إبريل ـ ١٩٥٧، وعند الساعة ١١ ليلاً. اقتحم جماعة من الجند الافرنسي التابعين لفرق المظلات، المتحكّمين اليوم في الجزائر، سكنى فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ العربي بن قاسم التبسي، الرئيس الثاني لجمعية العلماء، والمباشر لتسيير شؤونها، وأكبر الشخصيات الدينية، بعد أن حطموا بعض نوافذ الأقسام المدرسية الموجودة تحت شقته (بحي بلكور) طريق التوت، وذلك شأنهم في إقتحام ديار المسلمين. لا يأتونها غالباً من أبوابها، وإنما من السطوح أو النوافذ، لتتم ـ حسب زعمهم ـ المفاجأة، أو ليشتد الارهاب والنكال. ثم طرقوا باب الشقة، ففتحت لهم، وكانوا يرتدون اللباس الرسمي للجيش الافرنسي، ومسلحين بأسلحتهم التي يحاربون بها الشعب، الجزائري والمدنيين المسلمين. وقد وجدوا فضيلة الشيخ في فراش المرض الملازم له. وقد اشتدّ عليه منذ أوائل شهر آذار ـ مارس ـ ١٩٥٧. وأخذت نوباته تتوالى عليه

عنيفة عدة مرات في الأسبوع. فلم يرعوا حرمته الدينية، ولا سنّه المتقدمة، ولا مرضه الشديد، وانتزعوه من فراش المرض بكل وحشية وفظاعة. ثم أخذوا في التفتيش الدقيق للسكنى والملفات والكتب والرسائل، بعد أن حجزوا عائلته، وفصلوه عن أبنائه وبناته. وانهالوا بالضرب على أكبرهم لما حاول مساعدة والده المريض، ثم أخرجوه حاسر الرأس، حافي القدمين غير متدثّر بشيء من لباسه المفضل، وأرغموه على ارتداء سروال ولده - البنطال الإفرنجي - ومعطفه، وكلاهما لا يصلح لباساً له لصغره. وكان من المحقق لدى العائلة أنهم ذهبوا به للتحقيق معه، وإنما عومل هاته المعاملة لأنهم لم يشاؤوا أن يميّزوه بشيء عن أفراد شعبه، زيادة في النكال والاستفزاز، وكان هذا شأنهم منذ التحصيل على التعويضات الخاصة في آذار - مارس - ١٩٥٦. وخصوصاً منذ أن «حجزت» الجزائر إلى قائدي فرق المظلات «ماسو - و - بجارد». ولكن المفاجأة كانت عندما سئل عنه، من الغد والأيام التالية، في الإدارات الحكومية المدنية والعسكرية والشرطة والعدلية، فتبرّأت كل إدارة من وجوده عندها أو من مسؤوليتها عن اعتقاله أو من العلم بمكانه. حتى وصل الأمر إلى الإدارة العليا بمقر الوزير المقيم والوالي العام، فتظاهرت بإنكار العلم، واستنكار «الفعل» ووعدت بالبحث. وقد بقيت المسألة كذلك إلى أن أرسل مراسل جريدة «لو موند» الباريسية بالجزائر، بخبر صغير، نشر في زاوية مهملة، يعلن فيه أن رجال المظلات، قد اعتقلوا الشيخ العربي التبسي، وهو عضو هام في جمعية العلماء، وأنه تحت أيديهم لأجل التحقيق والاستجواب. وكان

ذلك بعد يومين من الاعتقال. وإذا بمؤسسة الصحافة الافرنسية، وهي هيئة رسمية ـ تبادر بإذاعة بلاغ على العالم تزعم فيه أن الشيخ العربي التبسي قد اختطف من قبل مجهولين. ويظهر من هذا البلاغ المضلّل ـ أنها محاولة لتبرئة فرنسا من القضية.

وجمعية العلماء، تذيع على العالم أجمع أن الإدارة الافرنسية، المدنية والعسكرية، مسؤولة مسؤولية كاملة في قضية فضيلة الشيخ العربي، وتخشى أن تكون قد اغتالته يد العدوان أو مات تحت التعذيب، ولم يمكنها أن تدّعي أنه حاول الفرار، أو افتكاك السلاح من يد الجنود فقتل. كما لم يكن بمقدورها أن تدّعي أنه انتحر، وهو مقيّد اليدين والرجلين، بعد افتضاحها في قضية الشهداء: ابن مهيدي وبو منجل والعمران، فاخترعت هذه الدعوى لتبرر تنصلها من المسؤولية وعدوان أعوانها. وتلاحظ الجمعية أن فضيلة الشيخ العربي، كان في الزمن الأخير قبلة أنظارهم، ومحط آمالهم، لعلّهم يجدون منه ليناً أو تفهماً يشجعهم على اتخاذه المفاوض الصالح للفت من عضد الثورة، وتشتيت شمل الشعب. فما وجدوا فيه إلا الصلابة والحزم والتضامن الكامل مع شعبه المجاهد وجيش التحرير المحارب وجبهة التحرير المناضلة.

لقد زعم بعض المسؤولين، أن الشيخ ربما اختطف من قبل رجال الإرهاب المضاد. ثم زعموا في بلاغ أنه اختطف من طرف مجهولين. ثم بدأت بعض التعليقات الصحافية تزعم أن الذين اختطفوه هم الإرهابيون (وهي الصفة التي كانت تطلقها الإدارة

الاستعمارية على رجال جيش التحرير الوطني الجزائري). وإن جمعية العلماء تكذب كل تضليل في الموضوع، وتعلن للرأي العام الإفرنسي، وللرأي العام العالمي، أن الإدارة الافرنسية المدنية والعسكرية هي التي اعتقلته، وأن رجالها الرسميين هم الذين أخذوه، وانها تتحمل مسؤوليتها كاملة والأمة الجزائرية، تهيب بكل ضمير حي في العالم، وبكل الهيئات الدولية والمنظمات الإنسانية والمذاهب الدينية، أن يتدخلوا في الموضوع، وأن يسألوا الحكومة الإفرنسية، ويجبروها على فتح تحقيق محايد، لكشف النقاب عن هذه القضية»[1].

وتلك كانت الصفحة الأخيرة في حياة الشيخ العربي بن قاسم التبسي.

---

(١) جريدة المقاومة ـ الجزائرية ـ ٢٢ نيسان ـ إبريل ـ ١٩٥٧.

٥ـ تيار الأصالة الثورية في الجزائر

يظهر العرض السابق أن الجزائر عاشت حياة الثورة الكامنة أحياناً والثورة الدموية في أحيان أخرى منذ أن وطئت أقدام الغزاة الاستعماريين ثرى الجزائر الطهور. غير أن قوة القمع الوحشية وأساليب الحرب الصليبية (الحضارية) تمكنت من إسقاط عدد كبير من المواطنين الجزائريين في شباكها ـ ولو أن هذا العدد الكبير بقي بالنسبة لعدد مسلمي الجزائر قليلاً ومحدوداً ـ وقد استطاعت الإدارة الاستعمارية الإفادة من هذه المجموعة الساقطة من المجتمع الجزائري ـ في تكوين تيار لا هو فرنسي ولا هو إسلامي، وظيفته خدمة المخططات الاستعمارية الصليبية في الجزائر، دون التمتع بأي امتيازات. وكان لا بد من خلق تيار مضاد، وهنا ظهر دور «رابطة علماء المسلمين الجزائريين» في تنظيم هذا التيار الذي كان موجوداً دونما ريب، غير أن هذه الرابطة استطاعت توحيد الجهد في تيار واحد، وفي ذلك ظهرت كفاءة القائد العظيم ابن باديس. وقد وصف الزعيم الجزائري ـ عباس فرحات ـ هذا التيار بقوله:

«وكان الجزائريون المتخرجون من جامعة الزيتونة في تونس، والأزهر في القاهرة، يجعلون من نهضة الإسلام والقومية العربية الشروط الأولى للنهضة الجزائريه. وكان أنصارهم من جماهير الفلاحين يشكلون عدداً ضخماً. فقد كان الشعب الجزائري الذي أرهقه حكم بوليسي، واستثمار عنصري، ينطوي على نفسه، ويتمسك بقوة بعقيدته الدينية وانتمائه القومي»[1]. وكان لا بد لهذا التيار من أن يضم إليه بالضرورة كل أولئك الذين يلتقون معه فكرياً وعقائدياً، ممن يمثلون الطليعة الفكرية، سواء كان هؤلاء من رجال الصحافة أو من الشعراء أو من الأدباء. وكان لا بد لهذا التيار أيضاً من أن يؤثر بقوته على كل التيارات الفرعية التي تمارس عملها بعيداً عن التنظيم، إذا صح التعبير، ويمثل الفئة الأولى الشاعر الجزائري الثائر- محمد العيد- والأستاذ أحمد رضا حوحو، في حين يمثل الفئة الثانية الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض - قائد النهضة الإسلامية في ميزاب، ومعه الصحافي «أبو اليقظان».

هذه النماذج- وأمثالها مما يصعب حصره- هي التي عبرت عن تيار الأصالة الثورية، وإذا كان هذا التيار قد استطاع إبراز هذه النماذج ورفعها، فإنه كان ولا ريب تياراً عنيفاً، قوياً، جباراً، ضم جيوشاً من الجنود المجهولين الذين مارسوا دورهم بتجرد وإنكار للذات لا يعرفه إلا أولئك المتصوفة. وشتان بين الصوفية السلبية الهروبية، وبين هذه الصوفية المخلصة الإيجابية. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن هذا التيار هو نسيج متصل، شأنه في ذلك

---

(١) ليل الاستعمار (فرحات عباس) ترجمة وليم خوري- ص ٢٧٠

شأن كل تيار تاريخي، يتفاعل في الأعماق ليرسل بظواهره كلما كانت هناك ضرورة للظهور. ولقد اقترن هذا التيار- عبر مسيرته الشاقة- بمجموعة من الروافد الفرعية والتي كانت بدورها أيضاً من ظواهر الثورة العميقة والجانحة للتعبير عن وجود الجزائر الفتاة وما يتوافر لها من الحيوية، مثل «جمعيات الكشافة الجزائرية المسلمة» و «اتحاد الطلبة الجزائريين المسلمين» و «اتحاد الكتاب الجزائريين» وأخيراً «اتحاد العمال الجزائريين المسلمين» الذي انشق عن الحزب الشيوعي الافرنسي في ظروف حرب التحرير.

عند هذه النقطة تظهر أهمية الدور الرائد للشيخ عبد الحميد بن باديس ومدرسته الإسلامية التي مهدت السبيل بتضحياتها وجهودها أمام طريق الثورة، وفجرت الطاقات الكامنة في أعماق المجتمع الجزائري المسلم.

أ ـ الشاعر محمد العيد

قدمه المرحوم البشير الإبراهيمي، سنة ١٩٣٨ إلى حضور الاحتفال بختم- ابن باديس- رحمه الله لتفسير القرآن الكريم بالكلمة التالية: «ومن يعرف محمد العيد، ويعرف إيمانه وتقواه وتدينّه وتخلّقه بالفضائل الإسلامية، يعرف أن روح الصدق المتفشية في شعره، إنما هي من آثار صدق الإيمان، وصحة التخلق. ويعلم أن من هذه الناحية بدع في الشعراء». وكان الشيخ الإبراهيمي قد ذكر قبل ذلك في سنة ١٩٣٧ ما يلي: «إذا كان في النهضة الأدبية العلمية بالجزائر نواحي نقص فمنها أن يبقى شعر

محمد العيد غير مجموع ولا مطبوع»[1].

أما محمد العيد، فقد قال- في سنة ١٩٦٥- معبراً عن أمنياته: «لي أمنيتان في هذه الدنيا، ومرحباً بعدهما بغفوة القبر. أن أحج إلى بيت الله الحرام. وأرى ديواني مطبوعاً بين أيدي القراء». وفيه كتب الأمير شكيب أرسلان- من جنيف سنة ١٩٣٧ ما يلي: «كلما قرأت شعراً لمحمد العيد الجزائري، تأخذني هزة طرب، تملك علي جميع مشاعري وأقول: إن كان في هذا العصر شاعر يصح أن يمثل البهاء زهيراً في سلاسة نظمه، وخفة روحه، ورقة شعوره، وجودة سبكه، واستحكام قوافيه، التي يعرفها القارىء قبل أن يصل إليها، وأن التكلف لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه - يكون محمد العيد، الذي أقرأ له القصيدة المرتين والثلاث ولا أمل. وتمضي الأيام وعذوبتها في فمي. كان يظن أن القطر الجزائري تأخر عن إخوته سائر الأقطار العربية في ميدان الأدب، ولا سيما في الشعر، ولعله الآن سيعوض الفرق، بل يسبق غيره بمحمد العيد».

ذلك هو تعريف وجيز بالشاعر المجاهد الذي عانى من الحياة قسوتها وشظف عيشها، وعمل مدرساً في معهد «ابن باديس»

---

(١) صفحات من الجزائر (الدكتور صالح خرفي) ص ١٨٧- ١٩٥. وفيه: «ما أمرها لحظة، وما أبلغها عظة أن يسأل المرحوم البشير الإبراهيمي في أيامه الأخيرة محمد العيد عن حاله، فيرد عليه بهذين البيتين:

يا سائلاً عنا، وعن أحوالنا ... هذا لسان الحال عنا يخبر
أصحابنا رحلوا، وصرنا بعدهم ... غرباء، تنكرنا العيون، وننكر

وهدفه تنشئة جيل مؤمن صلب- كما قال هو ذاته عندما أنحى عليه أصدقاؤه واخوانه باللائمة لاختياره لهذا العمل الشاق، عمل التدريس[١] ومضى يضرب في الحياة مستنفراً الهمم، مثيراً للمشاعر، مؤيداً للاصلاح الذي قاده ابن باديس واضطلعت به جمعية العلماء. مغتنماً كل مناسبة للإشادة بالمسؤولين عن هذه الحركة المباركة. وهو الإنسان الجزائري المسلم، الذي سحقته قبضة الاستعمار بكل وحشيتها، لا يتناسى آلام قومه أو يتجاهلها، فينطق شعراً مثيراً يعرض فيه بأولئك المتخمين الذين أنستهم الدنيا مشاركة الفقراء في بؤسهم وشقائهم، وهو لا يفتأ في الإفادة من كل مناسبة للتعريض بالاستعمار الإفرنسي سبب كل البلاء وأس كل الشقاء الذي عاشه الشعب الجزائري المسلم على امتداد ليل الاستعمار. وهو على الرغم من الظلام الدامس الذي ميز ذلك الليل، وعلى الرغم أيضاً من الظروف الصعبة التي عاشها، لم ينقطع أبداً عن فتح نافذة الأمل أمام شعبه، مبشراً أبداً بحتمية الثورة وحتمية انتصار الجزائر المجاهدة وشعبها البطل. وكان مصدر تفاؤله هو إيمانه العميق بأصالة أمته التي عبرت عنها «جمعية العلماء الجزائريين المسلمين» التي اتخذت شعارها «الإسلام- العروبة- الجزائر».

(١) انظر (قراءات- ٤) في نهاية الكتاب.

ب ـ أحمد رضا حوحو

«على أثر إعدام المفوض الاستعماري «سانمار سيللي» في قسنطينة من قبل مجاهدي المقاومة السرية يوم ٢٩ آذار ـ مارس ـ ١٩٥٦ قامت القوات الافرنسية بحملة إرهابية عنيفة، اعتقلت خلالها وجهاء مدينة قسنطينة، ومن بينهم الأديب «أحمد رضا حوحو». وقد سيق هؤلاء الوجهاء إلى سجن «الكدية» ولكن المدير المسؤول عن السجن رفض استقبالهم بحجة أنه لا يوجد متسع لأي شخص في السجن. فقادهم الجنود الى «الحزوب» على بعد ستة عشر كيلو متراً من مدينة قسنطينة، وفي الطريق أطلق الحرس عليهم النار من الخلف، وصرعوهم»(١) تلك بإيجاز الخاتمة المأساة لمجاهد طالما عرفه رواد معهد ابن باديس وطلبته، وأنسوا فيه خلقه القويم، وجرأته في مقارعة الاستعمار.

ولد أحمد رضا حوحو ببلدة «سيدي عقبة» إحدى ضواحي مدينة «بسكرة» الجميلة بواديها الذي يخترقها حاملاً فوق كل ضفة من ضفافه غابات النخيل الخضراء المتناسقة. ثم انتقل إلى مدينة «سكيكدة» على الساحل الجزائري ليواصل تعلمه الثانوي، ومنها ارتحل إلى المدينة المنورة سنة ١٩٣٧، ليعود بعدها إلى قاعدته في معهد «ابن باديس» وليعمل كاتباً عاماً للمعهد في الفترة التي كانت تمارس فيها الإدارة الافرنسية كل وسائل الضغط والطغيان

---

(١) الثورة الجزائرية (أحمد الخطيب) ص ١٩١ ومجلة الشباب (الجزائرية) عدد ٢٠ شباط ـ فبراير ـ ١٩٦١ ص ٦ و ٧

لإعاقة هذا المعهد عن ممارسة دوره. غير أن أحمد رضا حوحو، صمد للضغوط واستمر في أداء دوره، مسخراً أفضل صفتين عرف بهما: «الصمود والعمل المتواصل».

اختار «أحمد رضا حوحو» الكلمة سلاحاً له، وكانت القصة القصيرة هي مجال هذه الكلمة، فأخرجت له مطبعة التليلي بتونس في أول سنة ١٩٤٧ قصته «غادة أم القرى» ثم ظهر له «مع حمار الحكيم» وقبل وفاته بأشهر فقط، صدرت له مجموعة قصص قصيرة في كتاب البعث، عدد شهر كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٩٥٥ . ومجموعة قصص حوحو هي «نماذج بشرية» قدم لها بقوله: «لو لم تكن هذه الطباع متباينة بعض التباين، تتمتع بشيء من الحرية لخلا المجتمع من هذه النماذج النادرة الطريفة، ولما وجدنا هذه الضحية من ضحايا المجتمع تكسر قيود بيئتها، وتتخذ من الوطنية ديناً يهديها سواء السبيل. ولما تعرفنا على هذا الفقيه الطاعن في السن الذي يتخذ من شرع الله حانوتاً لبيع الجرائم. ولما كانت هذه النماذج البشرية التي نقدمها للقراء».

كان «أحمد رضا حوحو» يختار أبطال قصصه من واقع مجتمعه، فيجيد تصويرهم بخيال الشاعر وريشة الفنان ليسقط القناع عن الرذائل، وليعمل على إبراز الفضائل، وهدفه الثابت هو تنقية المجتمع الإسلامي العربي من شوائبه، وتطهيره من انحرافاته، حتى لا تكون هناك ثغرة يتسلل منها أعداء الدين والوطن.

ج - الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض
وتجربته التربوية الرائدة في ميزاب

تبقى هناك تجربة تربوية رائدة عرفتها الجزائر المجاهدة فيما حمل اسم «معهد الشباب» الذي أسس سنة ١٣٣٣ هـ = ١٩١٤ والذي تحول سنة ١٣٧٥ هـ = ١٩٥٤ م إلى ما أصبح يعرف باسم «معهد الحياة» نسبة إلى جمعية الحياة الخيرية التي تقوم به. وكانت «القرارة» الواقعة في شرق «ميزاب» بجنوب الجزائر هي مسرح هذه التجربة التربوية التي ارتبطت بحق باسم الشيخ المصلح «إبراهيم بن عمر بيوض» . وتكمن أهمية التجربة التربوية الرائدة «لمعهد الحياة» بمجموعة النقاط التالية:

أولاً: ربط المدرسة التعليمية بالحياة ربطاً وثيقاً: «تبتدىء الدراسة في المعهد، في الثامنة صباحاً وتنتهي في الثانية عشرة زوالاً، فينصرف الطلبة إلى دورهم، ومعظمهم يذهبون بعد الغداء إلى بساتينهم وحقولهم للعمل فيها نحو ساعتين في كل يوم. وهذا العمل هو أحسن رياضة للجسم يعول عليها المعهد في ما يجب عليه في التربية الجسمية، إنه يحث التلاميذ على النشاط والعمل في البستان خارج أوقات المعهد. أما في الصيف، فإن دروس الوعظ العمومي، ودروس دار التلاميذ، تتم في فترة بين العصرين، حيث يذهب الطلبة والتلاميذ إلى بساتينهم وحقولهم في الصباح- بعد صلاة الفجر- فيقضون فيها ساعات عديدة، إلى السابعة فيرجعون. وفي البستان، يقوم الطلبة بأعمال تربي خلقهم وعقولهم وأجسامهم، فيتسلقون النخل الطويل للتأبير أو الفرق

وتنضيد العراجين، أو للصرم، ويحرثون الأرض بالفؤوس الكبيرة، وينزحون الماء من الآبار العميقة، ويقومون بكل الأعمال الفلاحية الصعبة، فينهمر العرق من التلاميذ، وذلك العرق هو الذي يغسلهم من الفسولة، ويبعد عنهم الرخاوة والأمراض، ويورثهم أخلاقاً عظيمة لا تكون إلا بالعمل في البساتين والحقول! إنه أحسن في التربية من لعب الكرة وغيرها من كل الألعاب التي يأتيها المترفون الفارغون. إن ذهاب الطلبة إلى العمل في البساتين والحقول، من وحي المعهد وتوجيهه، ومن أمر الوالدين وحثهم، لينشأ ابنهم على حب العمل، وعلى النشاط والحزم والشجاعة، وعلى القوة في جسمه، وعلى الفراهة والنضارة في كل نواحيه»[١].

ثانياً: تنمية الفضائل، من خلال الالتزام بشعار المعهد الذي وضعه له الشيخ بيوض «الخلق قبل العلم، ومصلحة الجماعة قبل مصلحة الفرد». وكذلك: «إن الغاية التي يجب أن يجعلها المتعلم نصب عينيه هي: طلب رضى الله سبحانه وتعالى، وشرف العلم نفسه، وتثقيف العقل، وتربية النفس تربية صحية، وإعدادها لتحمل عبء الإصلاح الديني والوطني».

«إن الأنانية هي أم كل الشرور، إنها سبب الحسد والعصبية، والعداوة الشديدة بين الأمم والأفراد، وكل الويلات التي تفتك بالمسلمين. لذلك يحاربها المعهد بكل وسائله، وتحاربها الهيئة التدريسية بكل طاقاتها وتطهر النفوس منها، وتملؤها بحب

---

(١) نهضة الجزائر الحديثة (محمد علي دبوز) ص ٤٣- ٤٤ و ٣٤ و ١٥٨- ١٦٠

التضحية والغيرة على المصلحة العامة، وبكل الأخلاق الاجتماعية الأخرى: كحسن العشرة والأمانة والسخاء وغيرها. ويتم الاعتماد في ذلك على شيئين: البيئة والأساليب التربوية العملية التي تغرس في التلميذ الفضائل الاجتماعية. إن البيئة في «ميزاب» و «القراره» و «المعهد» كلها تغرس فيه التضحية والاهتمام بالمصلحة العامة. إن وادي ميزاب هو وطن «العمل لله» فمرافقه العامة كالمدارس والمساجد والنوادي ودور العشائر وغيرها، كلها من بناء المحسنين الذين يبتغون رضوان الله وحسن ثوابه، وهم الذين يقدمون كل ما يحتاجه دار المعهد الكبير من أثاث كأسرة النوم وأدوات الطبخ وغيرها. إن جدران المعهد تنطق بهذه الحقيقة، وتأمر بهذه الصفة وتغرس في التلميذ هذه المنقبة العظمى. إن التلميذ يرى العمل لله في أغلب الأشياء التي تكتنفه في دار المعهد. ويرى التضحية والعمل لله في مدير المعهد وأساتذته، إنهم كلهم يعملون لله، وإذا أخذوا شيئاً زهيداً من الجمعية، فإنه لا يعد أجرة، إن هو إلا كالجائزة التي تعطى رمزاً للتلميذ. إن ما يمسكهم في ثغورهم إنما هو خلق التضحية والعمل لله، والشعور بالواجب. فلولا هذه الفضائل ما ثبتوا يوماً واحداً في ثغورهم. ومع البيئة التي تعتمد عليها البعثة في التربية الاجتماعية تمرين الطالب على خدمة الجماعة، وتعويده القيام بشؤون غيره. وذلك بتكليفه بما يستطيع القيام به من شؤون المعهد. فيكون له عملاً مستمراً يلزمه القيام به».

ثالثاً: تحمل المسؤولية ـ الإدارة الذاتية: يجتمع مدير المعهد

مع كبار الطلبة البارزين في مطلع كل عام دراسي فينظرون في قانون المعهد، فيزيدون فيه أو ينقصون، إنهم يحسنونه دائما، ويراعون فيه حاجات الطلاب وأحوالهم، ثم يوزعون الأعمال. وهذه الأعمال إما فردية أو جماعية. فيعينون للجماعية من يليق لها، وللفردية من يستطيع القيام بها. ويكتبون كل ذلك على لوحة- يعلقونها في الدار. فتسارع كل جماعة إلى عملها، ويبادر كل فرد إلى واجبه. فيقومون بها في جد ورغبة وإتقان، وهم يهزجون بأناشيدهم الدينية- الشجية والمثيرة للحماسة وحب العمل -. إنهم يخدمون إخوانهم الذين يحسون أنهم أقرب إلى نفوسهم من إخوتهم الأشقاء. ويردون لزملائهم بعض اليد، إنهم كلهم يعملون. والأعمال في المعهد كثيرة، ومن الصعب حصرها، ومنها أعمال تتصل بالطبخ، وأخرى بنظافة الدار، وأعمال أدبية ومادية تتصل بالتلاميذ، ومنها: تقوية الضعفاء بدروس خاصة في الدار، ورئاسة الجمعيات وهي للخطابة والكتابة وإدارة خزائن الكتب العامة في الدار وتنظيم إعارة الكتب للتلاميذ واستردادها. وحث الطلبة على القراءة المفيدة. وتعليم الصلاة للمراهقين ومراقبتهم ليصلوا بالطهارة والوضوء، ويتقنوا صلاتهم ويؤدوها في المسجد مع الجماعة.

رابعاً: إعداد الطلاب للاعتماد على أنفسهم في العلم والتعلم. حيث يعمل «معهد الحياة» على غرس الاعتماد على النفس في التحصيل لدى التلميذ، ودفعه إلى تنمية مواهبه العقلية. ومن أجل ذلك: «يعمل التلاميذ على مطالعة دروسهم وإعدادها قبل تقريرها. وتتم هذه المطالعة بصورة فردية وجماعية، حيث يطالع

فريق من الطلبة يقطعون بفؤوسهم خشبة النخلة بعد إسقاطها .



فريق من طلبة البعثة ينقون التمر قبل شحنه في الخابية .

كل تلميذ درسه وحده، فيعمل عقله كل الأعمال ويحاول فهمه بنفسه، فيتعب في ذلك، ثم يجلس إلى جماعته في مطالعة الدرس، وهم من طبقته، وعلى مستواه في الذكاء، فيناقشون الدرس الجديد المقبل، ويحاولون فهمه بأنفسهم، وقد يتعبون في ذلك أشد التعب، ولكن عقولهم تتطور، وفهمهم يقوى على مرّ الأيام. وتتكامل ثقتهم بأنفسهم فتدفعهم إلى العمل، وتبعثهم على الطموح. ويراجع طلبة المعهد قبل مطالعة الدرس المقبل، الدرس الماضي، فيستعينون بالقديم على فهم الجديد. ويربطون الجديد بالقديم فيرسخ. وتتم المناقشة في مطالعة الدروس بالعربية الفصحى. فيدربون عقولهم على الفهم، وألسنتهم على الفصاحة. وقد تعلم كثير من التلاميذ فصاحة اللسان في المناظرة التي كانت تحتدم في مطالعة الدروس الجديدة. ومن لا يطالع درسه من الطلبة قبل تقريره، توقع عليه العقوبة بأن يوبخه الأستاذ، ويجلسه وراء حلقة الدرس. وهذا عقاب يشق على التلاميذ أكثر من العصا. وقد يطرد من الدرس فلا يحضره، وتلك عقوبة أشد وقعاً وأكثر إيلاماً.

خامساً: تنوع الأنشطة (النشاط) مثل: إنشاء الفرق التمثيلية، وتحرير المجلات الأدبيةوالعلمية وتنظيم الرحلات الكشفية(جمعية كشافة الجنوب). وإقامة المخيمات، وإحياء حفلات السمر. ففي مجال التمثيل، تختار الجمعية الروايات التاريخية والاجتماعية، ذات الصلة الوثيقة بالمجتمع الجزائري فتبين أمراضه وعلاجها والدواء الشافي لها. مثل رواية (بلال بن رباح) للشيخ محمد العيد و (شبح القصر) له ايضاً. ورواية (الشيخ

الحاج عمر بن يحيى) التي ألفها محمد علي دبوز في زعيم النهضة، فبين أدواره وأنواع جهاده، وحال النهضة في أيامه. والجماهير في «وادي ميزاب» مغرمة بالتمثيل، سيما الروايات الاجتماعية والتاريخية المعنية. ويتخلل الاحتفال ـ الذي يبدأ بتلاوة القرآن الكريم وبه يختتم ـ أناشيد مطربة حلوة، معظمها من إنشاء طلبة المعهد، يختارون لها ألحاناً موافقة من أغاني المطربين الكبار، وقد يضعون هم الألحان الجميلة القوية. فيضعون عليها أناشيد إسلامية وطنية بالعربية الفصحى، فتعرض على لجنة خاصة في المعهد، فإذا ارتضتها وارتضت ألحانها قدمتها للمنشدين الذين يرصعونها بأناشيدهم المطربة التي يسحر بها الجمهور.

وفي مجال الكتابة والتحرير، أصدر المعهد منذ سنة **١٣٥٨** هـ = **١٩٣٩** م مجلة أطلق عليها اسم «مجلة الشباب». فكانت هذه المجلة من أكبر الأسباب في تقدم المعهد وتطوره، ومن أقوى الوسائل التربوية التي تكونت فيه، رقت عقول الطلبة بالمقالات والقصائد والقصص التي يكتبونها. وأذكت فيهم حب الأدب، وخلقت في نفوسهم حب الجمال، وبعثهم حب الفصاحة والبلاغة على القراءة الكثيرة والمفيدة، فاكتسبوا عادة الفصاحة والبلاغة، فنبغ في المعهد جماعة من الكتاب والشعراء، فخرجوا من نطاق مجلة الشباب الضيق إلى رحاب الصحافة الجزائرية الواسع وغيره. ومن هؤلاء: الشيخ عدون بن بالحاج والمرحوم الأديب حمو بن عمر لقمان، وعلي امعمر، وأحمد بن عمر، والأخضر السائحي الكبير. وإبراهيم بن يحيى الحاج أيوب، وحمو بن عمر

فخار، وصالح الخرفي وسواهم كثير[1].

وفي مجال العمل الكشفي، عملت الجمعية الرياضية على تنظيم الحركة الكشفية في سنة ١٣٦٥ هـ = ١٩٤٦ م. وكان مركزها «القرارة» وكانت هذه الحركة، تعنى قبل كل شيء بالتربية الدينية: «**إن الدين هو الأساس القوي الراسخ للشخصية القوية في كل نواحيها، الناجحة في كل أمورها. فهي تراقب سلوك أعضائها مراقبة دقيقة ليكون كما يأمر الدين، وتحيط أعضاءها في مخيماتهم بجو ديني قوي. فالصلوات الخمس يؤديها الأعضاء في أوقاتها، بالطهارة الكاملة، والوضوء، والأذان، وفي الجماعة. إذا نصبوا مخيمهم فأول مكان يختارونه ويحتفلون به هو المصلى. فيمهدونه ويعدونه أحسن إعداد. وينتخبون من بينهم**

---

(١) يمكن انتقاء نموذج لما كانت تنشره «مجلة الشباب» في موشح لمؤلفه «أحمد ابن عمر الشيخ أحمد» تم نشره في العدد ٢٤٦ الصادر يوم الخميس ١١ جمادى الأول ١٣٥٥ هـ (١٣ تموز- يوليو- ١٩٣٦)

نداء إلى أرباب الحياة

ياشباب القطر يا أهل الرشاد — هذه أوطاننا فيكم تنادي
للصلاح للكفاح للجهاد — فأجيبوها بجد وعناد
وانهجوا نهج بني ماضي العصور

أيها الأقوام اقضوا عمركم — في سبيل الدين فهو نهجكم
في سبيل العلم وهو نوركم — في سبيل الشعب وهو مجدكم
لتعيشوا في سرور وحبور

اسلكوا نهج الرعيل الأول — والبسوا لامته للقسطل
وأبيدوا السفهاء العذل — وارتقوا فوق السماك الأعزل
أنتم في الأرض نور فوق نور

مؤذناً وإماماً. فيؤذن المؤذن في الأوقات. فيسارع كل الأعضاء إلى ارتداء ثياب الصلاة البيضاء السابقة، ويستعدون لها بالوضوء الكامل والخشوع الواجب. وبين العشاءين، يجلس الأعضاء كلهم حلقة واسعة فيقرءون جميعاً في ترتيل خاشع قوي ما تيسر من القرآن الكريم وكذلك بعد صلاة الصبح»

وتعلم الكشافة لأفرادها: تسلق النخيل، والسباحة في الأحواض، والسباحة في الأبار، وأعمال الفلاحة الصعبة. ويخرج الكشافة في كل ربيع إلى صحراء- سيما في القرارة- فينصبون خيامهم فيها لمدة أسبوعين. ويدرسون الناحية التي يخيمون فيها، ويضعون لها الخرائط، ويكتبون عنها المقالات. ويتصلون بالأعراب في خيامهم، فيدرسون أحوالهم. ولما جاء الاستقلال، وتوحدت الجمعيات الكشفية في الجزائر، دخلت كشافة الجنوب في «الكشافة الإسلامية الجزائرية». فصارت فرعاً منها، وانقسمت إلى أفواج: فوج الحياة (في القرارة) وفوج الإصلاح (في غرداية) وفوج النهضة (في العطف) وفوج الفتح (في بريان) وتقيم هذه الأفواج مخيماً عاماً في كل سنة في عطلة الصيف، وتتم إقامة هذا المخيم في الشمال، لأن طقسه في الصيف أنسب، ومعرفة الشمال والتعرف إلى أهله، مما يجب على كل مثقف في الجنوب معرفته. ويدوم هذا المخيم شهراً، يدرس المشتركون فيه الناحية جغرافياً وتاريخاً واقتصادياً. ويرسمون ما يروق لهم من المناظر الطبيعية أو الآثار التاريخية. ويكتبون عنها المقالات المفيدة. ويتصلون بسكانها، ويقيمون لهم الحفلات فيسمعون أناشيدهم، ويعرضون رواياتهم (مثل رواية صلاح الدين الأيوبي) ويخرج

الأهالي من حفلاتهم، وفي نفوسهم أثر عميق مما يلقيه الكشافة في أحاديثهم ورواياتهم التي يدعون فيها الجماهير إلى التمسك بالدين وحب اللغة العربية.

كان لكشافة الجنوب قبل الاستقلال علمها الخاص وشعارها، ولما انضمت إلى الكشافة الإسلامية، صار شعارها وعلمها هو شعار وعلم الكشافة الإسلامية الجزائرية: هلال تتوسطه زهرة ياسمين بيضاء، فيها خمس بتيلات إشارة إلى الأركان الخمسة للإسلام الذي يجب على كل كشاف جزائري أن يتمسك به. أما بياض الياسمين فرمز لبياض القلوب ونقاء السيرة مما يجب أن تتصف به الكشافة الإسلامية. وأريج الياسمين هو رمز السمعة العطرة التي يجب أن يتركها الكشاف المسلم الجزائري في كل مكان يحل فيه.

* * *

وبعد، فقد يكون من الصعب الإلمام بكل أبعاد هذه التجربة التربوية الرائدة، غير أن اللمحات السابقة كافية لإبراز أهميتها في إطار (صراع النظريات التربوية الحديثة). وقد يكون من المثير بعد ذلك، استقراء مناهج هذا المعهد التي تعتمد على «الأصالة الذاتية». وهنا تبرز أول فضيلة من فضائل هذا المعهد التربوي، ألا وهي التطور المستمر في برامج التدريب، وذلك بدون أن يتخلى المعهد عن برامجه ومناهجه الأساسية.

يعتبر معهد الحياة: «أن القرآن هو أساس العلوم جميعها، سيما

جماعة من الطلاب يغسلون ثيابهم في حوض تصب فيه قناة من عين القرارة في الفوساعة.



فريق آخر يحمل على الدواب قطع الخشب المجزأة. فريق من الطلبة يقطعون بفؤوسهم خشبة النخلة بعد إسقاطها.

العلوم العربية والشريعة، وهو أساس التربية كلها، وآثاره لمن تدبره في خلقه وعقله ولسانه وجسمه لعظيم، لذلك اشترط معهد الحياة حفظه واستظهاره وعدم نسيانه. وحفظ القرآن الكريم هو أحسن ما يهيىء نفس التلميذ وعقله ولسانه للتعليم الثانوي والعالي، إنه يقوي الإرادة في التلميذ، ويكسبه فصاحة اللسان، ويزوده بثروة كبيرة من العربية الفصحى» ومن أجل ذلك: «أنشىء في المعهد قسم خاص لحفظ القرآن يتولاه معلم خاص» «**ولا زال حفظ القرآن واستظهاره شرطاً للدخول في معهد الحياة إلى اليوم. وقد أحسن المعهد بالتمسك بهذا الشرط، لا سيما في هذا الزمان الفاجر الملحد الذي نحن فيه**» «ولقد حفظ كثير من المسيحيين القرآن الذي يكفرون برسالته، لآثاره في الخلق، وجدواه العظيمة على عقل المرء ولسانه. أما هذا الزمان الفاسد اللئيم، وأغلب البلاد العربية اليوم، تعزف عن القرآن، وتنفر من حفظه، لذلك تشيع فسولة الأخلاق، وفسولة العقول، وفسولة اللسان في معاهدها. وأصبحنا لا نرى منها إلا غثاثة النفس. وأجيالاً هزيلة تورث للأمة هزالها! ليتها تعرف الفوائد التربوية العظيمة للقرآن، فتجعل حفظ القرآن كله أو جزءاً منه شرطاً للدخول في معاهدها»[1].

أما عن نظام «معهد الحياة» فالتلميذ يقضي معظم نهاره، وجزءاً كبيراً من ليله في معهده. وهو كالمعاهد الداخلية التي لا يفارقها التلميذ. ويتكفل المعهد بأكل التلميذ ونومه. وتبدأ أعمال الطالب الدراسية من السحر ـ قبل الفجر ـ حيث ينهض الطالب ويذهب إلى

---

(١) نهضة الجزائر الحديثة (محمد علي دبوز) ص ٣٩ ـ ٤٣ و ٥٠ ـ ٥١

«دار التلاميذ» التابعة للمسجد في ميزاب» فيلتقي هناك بالتلاميذ القدامى الكبار عاكفين على دراستهم، يقرءون الكتب، أو يكررون محفوظاتهم في المتون، أو يتلون القرآن في المسجد. وبعد صلاة الصبح مع الجماعة، يقع درس الوعظ العمومي، أو يقع درس أو درسان في دار التلاميذ في اللغة العربية والشريعة. وتستمر الدروس إلى السابعة، حيث ينصرف التلاميذ لتناول فطورهم. ثم تستأنف الدروس من الثامنة حتى الثانية عشرة. وفي الشتاء ينصرف التلاميذ بعدها للعمل في الحقول والبساتين وتناول طعام الغداء. أما في الصيف فيمضي التلاميذ فترة الصباح بكاملها في الحقول والبساتين. وفي الحالين، يجب على طالب المعهد أن يصلي العصر في المسجد مع الجماعة، فيفتح المعهد أبوابه بعدها، وينصرف الطلبة إلى دروسهم حتى المغرب، حيث يعود الطلبة بعد الصلاة إلى قسم القرآن في المعهد لحفظ القرآن وتدارسه. وتبدأ المطالعة الإجماعية بعد صلاة العشاء لإعداد دروس اليوم التالي.

«ومعهد الحياة، مثله مثل كل المعاهد في ميزاب، يفتح الأستاذ دروسه بالدعاء إلى الله والتضرع إليه أن يفتح عليه وعلى تلاميذه كنوز حكمته، وأبواب علمه، ويفيض عليهم رحمته. ويعيذهم من الشيطان ووساوسه التي تشغل البال ويغيم بها العقل، وينيلهم رضاه الذي يستلزم كل الخيرات والبركات، ويختم الدروس بدعاء الأستاذ أن يبارك الله فيما تعلموه، ويتطول عليهم بالمزيد ويحمد الله على ما أنعم به من نور العلم ونعمة المعرفة... إن الملحدين أبناء بطونهم يرون هذا الدعاء جموداً وقشوراً،

والتربية الدينية كلها رجعية وانحطاطاً. فيحتقرونها ويحتقرون من يلتزمها، لأنهم لا يؤمنون بالله، ورؤوسهم فارغة من العلم الصحيح. كل ما فيهم إنما هي البطون المتنفخة التي أورثها لهم أساتذتهم الملحدون وعصرهم الفاجر. فصاروا كالمرأة الوحمة تكره الأطعمة اللذيذة المفيدة، وتغرم بالتهام الطين».

«لقد حفظ الله نهضة الجزائر الحديثة، وحفظ معهد الحياة في الأعاصير التي تشتمل عليه من كل ناحية لتطفئه، وتقضي على النهضة، فلم تزده إلا ازدهاراً لأنه شديد الصلة بالله، وحمايته، فحفظه من كل مكروه، وبارك له فصار أحسن معهد في التربية والتعليم». وكان «معهد الحياة» - ولا زال - يولي اهتماماً أساسياً بالتربية الدينية، وغرس الدين الإسلامي العظيم في نفس التلميذ بكل الوسائل، وبناء العقيدة الدينية وترسيخها بكل الوسائل العلمية والتربوية. فتراه يعتني بالتوحيد فيجعله أول ما يحفظ الصغار مع السور الأولى من القرآن الكريم، وهم في الحداثة دون البلوغ، ثم تكون أول ما يدرسون إذا كانوا في المراهقة قبل البلوغ، ثم يدرسون العقيدة في كتب الفقه الكبرى بنحو فلسفي، ويدرسونها في كتب علم الكلام إذا كانوا في الطبقات العليا. **كل ذلك لتركيزها في نفوسهم، وتعميق أسسها، حتى لا يستطيع الجهل والاستعمار والملحدون فيها شيئاً، هذه الكوارث التي تتسلط على الدين الإسلامي لتهدمه في النفوس، وعلى العقيدة** الإسلامية لتفسدها في القلوب، وهي أساس الدين والخلق»[1].

---

(١) المرجع السابق: ٢٦ و١١٦ - ١١٧ و٦٤

ويشمل التعليم الإعدادي والثانوي مواد المنطق والفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع واللغة الافرنسية ـ التي خصص لها في المرحلة الثانوية ٤ حصص أسبوعياً ـ بالإضافة إلى تاريخ الأدب والتاريخ الطبيعي والتربية المدنية، وتوسع في التاريخ فزاد تاريخ أوروبا وتاريخ الدولة العثمانية وتاريخ الاندلس، وتاريخ الجزائر قبل كل شيء. أما في الجغرافيا، فيدرس التلميذ جغرافية العالم السياسية والطبيعية باختصار، ويتوسع في جغرافية المغرب والأقطار الإسلامية. أما مدة الدراسة فهي ٣ سنوات للإعدادي وثلاث سنوات للثانوي (بكالوريا). ويعمل المعهد على إيفاد المتفوقين من طلابه إلى الجامعات الإسلامية (في تونس والقاهرة خاصة) كما يستقبل الطلاب من كل أنحاء الجزائر، ومن الأقطار العربية ـ الإسلامية المجاورة.

لقد تعززت مكانة المعهد بفضل ما أظهره طلابه من التفوق في كل مجال اقتحموه من مجالات الحياة العملية، واعتمادهم على أرضيتهم الدينية الصلبة. ولقد عرف عن الرجال الذين دفعهم «معهد الحياة» إلى الحياة العامة، بإخلاصهم لدينهم ووطنهم، وكفاءتهم، وصلاحهم، وجهادهم المخلص وعملهم ابتغاء مرضاة الله وحده. واشتهر عنهم في «حرب التحرير ـ الثورة الجزائرية» شجاعتهم وتضحيتهم «لقد نزلوا إلى الميدان العملي، بحماسة كبيرة، وحب للعمل شديد، إنها الرغبة في الجهاد في سبيل الله! فسدوا أهم الثغور في الأمة، فكان منهم العزابة المثقفون الأكفاء والمدرسون المخلصون الناجحون، والتجار الأمناء، والفلاحون الناشطون، ومنهم رؤساء العشائر الذين

وعدة كبرى للوطن، ومنهم رؤساء البلديات الذين كانوا سوراً منيعاً للدين والوطن. يردون عنه كيد الاستعمار، ويحمونه من شر الجامدين وفساد المفسدين. ومن تلاميذ المعهد، من لم ينل من العلم شيئاً كثيراً لضعف مواهبه. ولكنه نال قسطه من التربية كاملاً. فكان رجلاً صنديداً في مجتمعه»

خلاصة القول، لقد شكل «معهد الحياة» تجربة تربوية رائدة لا في الجزائر وحدها وإنما في الوطن العربي الإسلامي. وهي تجربة تستحق كل اهتمام وبحث وتطوير، وإذا كان الاتحاد السوفييتي يفخر برائد تربيته «ماكارنكو». وإذا كان الأمريكيون يباهون برواد تربيتهم من أمثال «جون ديوي»، فإن للجزائر- وللعالم العربي- الإسلامي أن يفاخر بهذه التجربة التربوية التي يعود الفضل الأساسي فيها للشيخ «إبراهيم بن عمر بيوض».

ولد إبراهيم بن عمر بيوض سنة ١٨٩٩ م، في القرارة، إحدى قرى ميزاب، وتعلم فيها، وفي المعهد الذي كان يديره والده والشيخ عمر بن الحاج مسعود. وفي سنة ١٩٢١ توفي الحاج عمر. فما كان من ابنه الشيخ إبراهيم- ولما يكن قد تجاوز الثانية والعشرين من عمره- إلا أن جمع تلاميذ المدرسة، وأعلن لهم أن الدراسة ستستمر تحت إدارة الشيخ عمر بن الحاج مسعود، وأنه سيقوم مع بعض إخوانه في مساعدة الشيخ على إدارة المعهد وتطويره- للنهوض بميزاب كلها. تلك كانت البداية، وانصرف الشيخ إبراهيم بن عمر للعمل بكل طاقة الشباب وإيمانهم، يلقي الدروس، ويطور المعهد، ويرسل البعثات، ويرعى الخريجين،

ويوسع مجالات العمل، ويبني المسجد المتمم للمعهد. ويضع برامج التدريس، ويسهر على رعاية شؤون طلابه، ويوجههم للبحث والدراسة وهو يكرر على مسامعهم باستمرار: «إن غرضي من هذه الدروس أن أنشىء عقولاً تفهم بلاغة القرآن، ونفوساً دارعة بعدة الفصاحة والبلاغة. إن جهادنا يستلزم هذه العدة، وهذا لا يكون إلا بعملكم أنتم! ألا فاعملوا، طالعوا دروسكم مراراً قبل الدرس، وراجعوها مراراً بعده واعتمدوا على أنفسكم».

إستمر الشيخ إبراهيم في عمله المنتج والمبدع حتى بداية الحرب العالمية الثانية، وإذ ذاك تضاعفت أهوال الاستعمار، وأطلقت أيدي الحكام العسكريين الإفرنسيين في الجنوب فعزموا على خنق النهضة، والقضاء على معاهدها ورجالها. فشمروا للتهديم والانتقام، وشمر أنصار النهضة للدفاع والبناء. وكانت معارك طاحنة استمرت زماناً طويلاً، كان الله فيها مع حزبه وأوليائه. فلم تعصف تلك الأهوال بمعهد الحياة، بل زادت في نشاطه ورسوخه. فسارت أشواطاً واسعة في أيام الحرب.

لقد حلف الحاكمان العسكريان الطاغيان في «غرداية» وحلف أذنابهما الأيمان المغلظة على القضاء على نهضة ميزاب ورجالها، وأن يشنقوا زعيمها الشيخ بيوض أو يسجنوه أو ينفوه. فاستخدم الاستعمار أذنابه في الجنوب لكتابة التقارير السوداء ضد النهضة وزعيمها الشيخ بيوض. فطالبوا بنفيه أو سجنه، وبإبطال المدارس العربية، وكل ظواهر النهضة. فاستند الحكام العسكريون إلى هذه التقارير، فحكموا على النهضة بأنها حرب ضد الدولة، وعلى

زعيمها الشيخ بيوض بأنه عدو فرنسا اللدود. وأن له يداً مع الألمان. فعزموا على القبض عليه. ولكن الله سخر للنهضة حماة مخلصين دهاة من أبنائها، فدافعوا عن النهضة وزعيمها، وفضحوا الحكام العسكريين وتواطؤهم مع أذنابهم أعداء النهضة الأقدمين.

وخافت الولاية العامة عاقبة المساس بالنهضة وزعمائها. إن نهضة ميزاب هي جزء من نهضة الجزائر، والشيخ بيوض أحد زعمائها. سيثور أولئك الزعماء عليها، ويثور ميزاب والجزائر. وهي ضعيفة قد احتل الألمان ديارها وأخذ بخناقها فتبصرت الولاية العامة، فكفكفت من شرور الحكام العسكريين في ميزاب، وأمرتهم بالحكمة في حربهم، فلم يستطع الحكام العسكريون إعتقال الشيخ بيوض. فأكدوا ما سبق أن فرضوه عليه في سنة ١٩٣٨ م. من الإقامة الجبرية في بلد القرارة. وحرمت زيارته على مدن ميزاب، وشددت عليه الرقابة. فاستقر الشيخ بيوض، وانقطعت عنه الأشغال الخارجيةالتي كانت تزاحم عمله في المعهد، أو تقطعه عنه. فصار وقته كله للمعهد. ووجد الطلبة من وقته وجهوده كل ما يريدون، ونشطت الدراسة في المعهد، حتى إذا ما انتهت الحرب سنة ١٩٤٤، وضعت فرنسا- ديغول- سياسة جديدة للجزائر تعتمد على قليل من اللين وكثير من الخبث والدهاء والمكر. وهذه السياسة شر من الغلظة والاستبداد والجبروت.

واستغل زعماء النهضة وعلماؤها هذا المناخ، **فانطلق الشيخ البشير الإبراهيمي- رئيس رابطة العلماء بعد وفاة ابن باديس- وهو**

يقود نشاط جمعية العلماء في قوة وإخلاص ومهارة. وكان يجوب البلاد ويهزها بخطبه ودروسه ومقالاته في البصائر. وفعل ذلك رجال جمعية العلماء كلهم (وخاصة الطيب العقبي وأحمد توفيق المدني). وكذلك فعل الشيخ بيوض، الذي انطلق من عقال الإقامة الجبرية، فجاب أنحاء الشمال والجنوب، يهزهما بخطبه ودروسه، ويضع الخطط المحكمة مع رجال النهضة للجهاد المقبل.

كثرت أعمال الشيخ بيوض الاجتماعية، وتعددت ميادين جهاده، فهذه وفود من رجال النهضة من مدن ميزاب تترى عليه للتفاوض في الجهاد الذي يقومون به. وهذه أعباء جمعية الحياة التي يرأسها، وذلك مجلس العزابة الذي هو رئيسه. إن أغلب مشاكل المدينة ترفع إليه. وهذه أسفاره للدعاية ولمصالح النهضة الأخرى. وهذا حزب المعارضين وقد تكتلت صفوفه، واشتدت معارضته، وانضم إليهم أذناب الاستعمار من «القواد والباشآغاوات» وغيرهم. واتحدوا جميعاً مع المستعمرين العسكريين في محاربة النهضة. فنازلهم حزب الإصلاح جميعاً بقيادة الشيخ بيوض، فوقعت أعنف المعارك الاجتماعية والسياسية معهم في هذه العهود. لقد كثرت فروض الشيخ فلم يبق للمعهد من وقته إلا القليل. وجاءت ضرورة أخرى تهرب منها كل التهرب، فأرغمه الواجب على الخضوع لها. وهو دخوله في المجلس الجزائري نائباً عن وادي ميزاب، فانقطع عن التعليم في المعهد، وحل أبناؤه النبغاء محله.

صدر الدستور الجزائري الذي قضى بإنشاء المجلس

الجزائري في ٢٠ أيلول- سبتمبر- ١٩٤٧ . وكان المستعمرون قد أحسوا بكنوز الصحراء الجزائرية، فعزموا على التمسك بالصحراء، وقطعها عن الشمال. وكانوا يوقنون بثورة الشمال عليهم. إن مقدماتها ودخانها قد شاهدوه في حوادث سطيف في ٨ أيار- مايو- سنة ١٩٤٥ . وفي عيون كل الجزائريين التي تشتعل فيها النيران. وقالوا: «إن الصحراء لا جبال فيها تصلح للثورة، فهي المكان الآمن لهم في الجزائر، وكنوزها هي الأثداء الغزيرة التي ترويهم. لقد شبعوا من خيرات الشمال فيجب أن يتخموا من كنوز الجنوب أيضاً. إن استقرارهم في الصحراء يجعلهم يقطعون عن الدولة الجزائرية التي ستنشأ في الشمال غذاءها من الصحراء فتموت هزالاً. أو تظل ضعيفة تخضع لهم وتسير في ركابهم. على أن استقرارهم في الصحراء، وإنشاء دولة إفرنسية فيها يمكن من القضاء على ما يمكن أن يناله الشمال من استقلاله بثورته. سيحيكون له الدسائس ويخلقون له المشاكل، ويحفرون له الهوى التي يقع فيها. إن الصحراء هي اللقمة السائغة، وهي الدار الآمنة لهم في المغرب، فيجب التمسك بها، ويجب التمهيد لذلك بالقضاء على كل نهضة فيها. وكانت نهضة وادي ميزاب التي دخلت شبابها تقض مضاجعهم، ويرون فيها حتوفهم فعزموا على القضاء عليها».

وعين الاستعمار للمجلس الجزائري أذنابه، وجعل للصحراء فيه نواباً من الضعفاء أو من الأذناب وعزم أن يجعل نائب ميزاب في المجلس أحد أذنابه الكبار الذين ينصرون أهواءه فيطالبون بفصل الصحراء عن الشمال، وبالقضاء على النهضة ورجالها فيجد

الاستعمار مستنده وحجته، فيبلغ كل أغراضه. ورأى رجال النهضة في ميزاب هذا الخطر الذي تستهدف له الجزائر، والنهضة التي هي روح الجزائر ورأس مالها الكبير، فهبوا جميعاً لدرئه، وإفساد خطة المستعمرين. فكان الله معهم، فاستمالوا بعض رجال الحكم في فرنسا وفي الجزائر بالوسائل المغرية، والأساليب السياسية البارعة، وأروهم عاقبة إرغام الميزابيين على نائب لا يرتضونه. فأخذوا وعداً من الولاية العامة أن يكون الانتخاب حراً في ميزاب، فتمسك رجال النهضة بهذا الوعد، وأفادوا منه كل الإفادة، واستقدموا غداة يوم الانتخاب ٤ نيسان- إبريل- ١٩٤٨ مراقبين شرعيين يراقبون الانتخابات في ميزاب، وبعض الصحفيين الإفرنسيين. وبذلوا في ذلك المال الكثير. ونظموا صفوفهم، وخاضوا معركة الانتخاب للمجلس الجزائري في نشاط ويقظة ودهاء واتحاد ففازوا بما أرادو.

رأى رجال النهضة وحزب الإصلاح أن المعارك بينهم وبين الاستعمار في المستقبل ستكون معارك ديبلوماسية خطيرة! إنها مسألة فصل الصحراء عن الشمال، وما يجب أن يفعلوه لتظل الصحراء جزءاً من الشمال، فلا بد من نائب لهم في المجلس الجزائري، تتوافر له الكفاءة والقدرة من أجل إحباط المخططات الاستعمارية. ووقع اختيار الجميع على الشيخ بيوض. غير أن الشيخ رفض العرض، وأظهر تمسكه بميدان العلم الذي خلق له، وذاق حلاوة النجاح فيه. غير أن أهل ميزاب ورجال نهضتها ما زالوا به حتى أقنعوه بقبول المنصب، حتى لا تترك ثغرة ينفذ منها الاستعمار وأذنابه. ونزل الشيخ إلى ميدان الجهاد الجديد، وقاد

معارك كبرى ضد فصل الصحراء عن الشمال استمرت ست عشرة سنة كاملة (من سنة ١٩٤٧ إلى سنة ١٩٦٢) وكان رجال النهضة في ميزاب كلهم جنده وأنصاره في معاركه السياسية الكبرى. فالتفوا حوله، ورفعوا صوتهم معه ينادون بإباء الصحراء وهم يستنكرون فصل الصحراء عن الوطن الجزائري. وبقي الشيخ بيوض على اتصال وثيق «بمعهد الحياة» لم تصرفه عن الاهتمام به متاعبه السياسية. وكان الجميع يشعرون بوجوده دائماً بينهم، رغم ابتعاده بجسده عنهم. وكان لهذه الرابطة القوية دورها في دعم «معهد الحياة» واضطلاع أفراده وتلاميذه القدامى بواجباتهم الدينية والوطنية في كل أنحاء الجزائر.

لقد انبث مئات من خريجي «معهد الحياة» في بلاد الشمال بالجزائر، ففي كل المدن الكبرى بالشمال، وفي كثير من القرى، تجد تلاميذ معهد الحياة، وأثرهم في الشمال كأثرهم في الجنوب. كانوا دعاة تملؤهم الحماسة للعمل من أجل الدين الإسلامي ونشر اللغة العربية، وكانوا نماذج تحتذى في الأقوال والأعمال. وقد جاهدوا باستمرار لدعم كل الحركات الوطنية في الشمال، فوقفوا مع «جمعية العلماء» بكل ما أوتوا من قوة. ودعموا حزب الشعب وجماعة البيان. ولما اندلعت الثورة، كانوا في الشمال والجنوب جندها المخلص وأنصارها الثابتين. وكانت دكاكينهم التجارية ومساكنهم في مدن الشمال، معاقل للثورة، ومستودعاً لأسرارها وأموالها، وملتقى لضباطها وملاجىء لثوارها. وكانوا يعملون على دعم الثورة وتنفيذ مخططاتها بكفاءة عالية وإيمان صلب، ويعتبرون جهادهم في الثورة هو جهاد في سبيل

الله، يقومون به لوجه الله، وواجباً وطنياً يرضي ضميرهم الحر وحبهم للوطن وإخلاصهم لدين الله. وكانوا لثقافتهم، ودهائهم الموروث، قادرين على خداع المستعمرين وإخفاء حقيقتهم الثورية، وكان من المحال قيام الثورة في العاصمة لولا ما قاموا به من جهد، وما قدموه من تضحيات مستفيدين في ذلك من منازلهم ودكاكينهم المنتشرة حتى في وسط الأحياء الأوروبية. حتى إذا ما انتهت الثورة بالنصر، انصرفوا إلى متابعة أعمالهم، والإسهام في بناء المجتمع الجديد بالقدر الذي تطلبه الثورة منهم.

* * *

تلك هي صفحة رائعة من صفحات الجزائر المجاهدة.

صفحة رسم الشيخ عبد الحميد بن باديس، بعض ملامحها بريشته، وترك بعضها لريشة إخوانه وتلاميذه، وبعضها رسمت بريشة إخوان له كان عملهم مستمداً من عمله ورافداً له. وبفضل هذا التكامل تشكل التيار الجارف الذي أرسى القاعدة الثابتة والأرضية الصلبة لانطلاقة الثورة.

غير أن هناك تياراً آخر كان له دوره في مجموعة التفاعلات التي أدت إلى انفجار الثورة. وهذا التيار هو «تيار التكتلات الحزبية» وهو يتطلب بحثاً مستقلاً. غير أنه من المناسب هنا الإشارة إلى أن التياران لم يكونا متناقضين أو متضادين تماماً. لقد كان لكل تيار مساره الخاص، وكانت هناك قنوات تصل بين كل التيارات على امتداد مسارها، ومن هنا يظهر التأثير المتبادل بين هذه التيارات. وهذا ما يؤكد بطريقة غير مباشرة الدور الكبير الذي اضطلع به

«الشيخ عبد الحميد بن باديس» وإخوانه في تمهيد الطريق أمام الثورة.

وتبقى تجربة «الشيخ عبد الحميد بن باديس» و «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» و «معهد الحياة» من التجارب التاريخية الخالدة الرائدة، لا باعتبارها تجارب قد مضت وانصرمت، وإنما باعتبارها تجارب ترسل ظلالها إلى أفق المستقبل، وباعتبارها أيضاً من التجارب التي تحتفظ بكل فائدتها وأهميتها لا في الحدود الزمنية أو في حدود الإطار الجغرافي للجزائر. إنها تجارب حية، تمتلكها الأمة الإسلامية والعالم العربي وهي جديرة بالدراسة والتعلم (وقل رب زدني علماً).

(محتوى الكتاب)